دار المقطم للصحة النفسية
المكتبة الأدبية العلمية

أغوار النفس

من واقع العلاج النفسي والحياة



د. يحيى الرخاوي

أستاذ الطب النفسي - جامعة القاهرة
ومستشار دار المقطم للصحة النفسية

أغوار النفس

ثلاث لعبات: من واقع العلاج النفسى.. والحياة

نظماً. بالعامية المصرية

د. يحيى الرخاوى

أستاذ الطب النفسى. جامعة القاهرة

ومستشار دار المقطم للصحة النفسية

الناشر

دار الغد للثقافة والنشر

٤٧ شارع الفلكى القاهرة

إهــــداء

إلى الأصدقاء الذين تركونى : أمانة ، أو مسئولية ، أو خوفا

وإلى هؤلاء الذين لم يعرفونى : دفاعا ، أو إهمالا ، أو رفضا . .

أهدى هذا العمل بشقّيه . . عرفانا بجميلهم علىّ ، وتأكيدا لمسئولية اختيارى ما هو « أنا »

« يحيى الرخاوى »

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« .. اللهم فاشهد »

مقدمة

— ١ —

كتبت « هـذا العمل » فى السنوات الأخيرة على فترات متقطعة ، وحبسته فى محفوظاتى ، مثلما أحبس كثيراً مما أكتب لأسباب مختلفة :

منها الخوف من الخلط بين أدوارى التى أقوم بها فى رحلتى فى هذه الحياة.. فأنا طبيب أمارس المهنة ، وأنا أستاذ بالجامعة ، وأنا صاحب قلم بعض الوقت ... إلخ ، ولعل هذا بعض ما أشرت إليـه فى بعض الحـواشى فى كتابى « سر اللعبة » ، (دراسة فى علم السيكوباثولوجى) ، من أنى لا أجرؤ أن أعرض نفسى على الناس « حالياً » لأنى ما زلت

أرتدى قميص الطبيب وأتصدى لعلاجهم ، وهم يحتاجون أن يرونى بشكل خاص .

ومنها أن جرعة رؤيتى لنفسى (من خلال معاناتى التى أثارها فىّ أصدقائى المرضى) جرعة أكبر من أن تقال ، حتى أنه ساورنى الشك فى كل السير الذاتية التى لا يمكن أن تعرض إلا الجزء «المتاح »من صاحبها، أو الجزء المُدرك من ذاته على أحسن تقـدير ، أما إذا زادت الرؤية فلا سبيل فى مرحلة تطور الإنسان الحـالية إلى عرضها « هكذا » — ولعل هذا ما حدا بالمتصوفة إلى الـكف عن الحديث فى علوم المـكاشفة— ولا يملك صاحب هذه الرؤية ،إذاً، إلا أن يحتال ليعرض نفسه بالأسلوب السائد بلغة الفن ، وربما الفلسفة أو العلم ، فالفن الروائى مثلا — فى جزء منه على الأقل — يساعد صاحبه فى الحديث عن بعض ما يرى داخله على ألسنة شخوص روايته (وهذا بعض ما حاولته فى رواية طويلة هى:

« المشى على الصراط » صدر منها الجزء الأول تحت عنوان « الواقعة ») .

وهذا العمل هو أيضاً من هذا القبيل : تجربة شخصية عنيفة ، تمت فى مجال خاص تماماً ، واختلطت بممارستى لمهنتى وتمت بالتلاحق بلا اختيار كامل، وهزتنى إلى الأعماق ، فرأيت من خلالها ما لم أكن أحلم أن أراه أبداً ، وعلمتنى فى مهنتى وعن نفسى ما صار هادياً لى ، ومثبتاً لخطواتى ، وقد بلغ انفعالى بها ، ومعايشتى لها ، أنى حين أردت أن أسجلها خرجت « بالعامية المصرية » مرتدية ثوباً منظوماً لكنه فضفاض ، فزاد حرجى وتضاعف ترددى فى نشرها .

ثم حدث فى فبراير الماضى حين كنت أشارك فى ندوة فى البرنامج الثانى فى الإذاعة المصرية عن كتاب الشهر مع الأستاذ الدكتورة سهير القلماوى ومؤلفة الكتاب الأستاذ الدكتورة نبيلة محمود وكان عنوانه « القصص الشعبى بين الرومانسية والواقعية »؛أن طرحت تساؤلا على مؤلفة الكتاب

عن ما هو البديل الصحى للقصص الشعبى بعد تناقص كمه وتشويه كيفه ، وكدنا نتفق أن الإذاعة والتليفزيون ليسا بديلاً حقيقياً — بوضعهما الراهن — فالقصص الشعبى والملاحم الشعبية كان لها — وما زال بدرجة ما — وظيفة سبر أغوار النفس .. والحديث عن الجزء المغمور منها فى شكل فنى (قد يقال عنه خرافى أو أسطورى أحياناً) ، وبذلك تستكمل رؤيتنا للجانب الآخر من الوجود البشرى ، وكان هذا الفن الشعبى يقوم بهذا الدور تلقائياً وبنجاح نسبى ، وطرحت تصوراً أن الفن — بعمق معين (يفسره خلود أعمال شكسبير مثلاً) — لا بد وأن يقوم بهذا الدور ذاته فى المجتمع المعاصر ، ولكن أين هو هذا الفن لدينا ، هذا الفن الذى يصل إلى عمق ما كان يصل إليه ذلك الفن الشعبى التلقائى؟ وأحسست أن حساسيتنا المعاصرة ضد الخرافة ، نتيجة لغرور العقل الواعى ومنطقه القاصر والمتعب، قد ينتج عنها تشويه للوجود البشرى وإعاقة لنموه الحقيقى بشقيه الواعى

واللاواعى ، فالنمو الإنسانى لا يتم إلا إذا شمل جانبى الوجود وقرّب بينهما حتى يندمجا فى كلٍّ واحد موضوعى متكامل .. (أو هذا هو هدف الوجود على الأقل) ، وأى تقدم يتصور أنه إذا ملك ناصية العلم المادى الحالى وحده ، فقد ملك سبيل التقدم المعاصر هو تصور خاطئ لامحالة ، بل هو تصور خرافى فى جوهر مضمونه ، وقد أحسست أن للشعر العامى بوجه خاص دوره فى هذه النقلة الحضارية — إذا أردنا أن نبحث عن بديل حقيقى ، لينتشر بين الناس ويغطى هذه الفجوة التى تركها انحسار القصص الشعبى واختفاء « الحدوتة » من بيوتنا ومجالس سمرنا ..

ورجعت أقلب فى أوراق « هذه » التى سبق أن كتبتها من سنوات ، وتصورت أنها قد تؤدى دوراً فى رؤية النفس الإنسانية ، وأنها — رغم صعوبة بعض أجزائها ، فهى ليست أصعب من بعض الفن الشعبى الذى أدى هذه الوظيفة بنجاح فى حينه ، وراجعت بعض ما كتبت من أكثر من

عشر سنوات عن أرجوزة « واحد اتنين سرجى مرجى »
ثم عن « الحيل النفسية فى الأمثال العامية » ، ونشر فى مجلة
الصحة النفسية ، ثم فى كتابى « حياتنا والطب النفسى »
فوجدت أن علاقتى بهذا الفن الشعبى — تفسيراً حينذاك —
ليست جديدة ، ثم تذكرت تفسيراً آخر قدّمته للأغنية الشعبية
« يا طالع الشجرة » ، نشر فى الملحق الأدبى لمجلة الهلال . .
وجعلت أسترجع كل ذلك وأنا أقرأ أوراق ، فوجدت أن
هذا الفن الذى بين يدىّ يستحق أن ينشر بالمعنى الذى خطر
لى أثناء هذا النقاش، وربما كان له دور ثقافى خاص، فالفن الشعبى
يحدث تأثيره حتى ولو لم يكن مفهوماً ظاهره (راجع يا طالع
الشجرة . . وسرجى مرجى . . إلخ) ولم يثننى تخوف قديم
على إسمى العلمى ، فقد تصادف كل هذا بُعَيْد حصولى على
درجة الأستاذية فى فرع تخصصى ، وكان هذا الحدث هو
علامة على طريق تطورى تتيح لى أن أبدأ بداية كنت
أنتظرها من زمن لأتواصل مع الناس مباشرة دون قيود

الخوف على الوظيفة أو من الوظيفة ، وقررت أن أنتصر على ترددى وأتحمل فى سبيل ذلك ما يكون .

— ٢ —

وفى هذا العمل حاولت أن أقدم رؤيتى للوجه الآخر للعلاج النفسى ، ومن خلالها أخترق حواجز النفس الإنسانية لأعرضها كما عرفتها داخلى وخارجى ، بنبض الإنسان المصرى فى الشارع ، وأبدأ فأؤكد أنها خبرة شخصية أولا ، وأنها إنما تصف « الوجه الآخر » للعلاج النفسى فحسب . . أعنى سلبياته وبعض مصاعبه ومضاعفاته ، أما وظيفة العلاج النفسى الإيجابية وفوائده ودوره البناء فى المجتمع .. فهذا شأن آخر ، كتبت فيه الكتب ، وساهمت أنا كذلك فى تناوله، ولست أنتقص منه شيئاً .. فلست ممن يسمون أنفسهم من رواد الحركة المناهضة للطب النفسى Antipsychiatry ، بل

إنى ما زلت أؤمن أن التطبيب النفسى والعلاج النفسى لهما دورهما الذى لا غنى عنه فى مجتمع ضعفت فيه العلاقات بين أفراده ، وزاد التنافس والخوف ، وبعدت المسافات وتضاعفت التطلعات ، واختفى « الرجل الطيب » و « شيخ الحارة » و « كبير العائلة » من اجتماعاته ، وتراجع رجل الدين عن دوره العلاجى الناجح ، واكتفى أغلبهم بالتهديد والنصائح (بالترغيب والترهيب) ، أقول إنى لا أملك أن أشجب هذه المهنة ابتداء ، وهى تؤدى كل هذه الوظائف (رغم أنها تؤديها بكفاءة أقل وبسعر أغلى !!) ، على الأقل كمرحلة بديلة ، حتى تعود للمجتمع حيويته ، ويسترد نبضه الإنسانى ، ويصبح التفاضل بين الناس أساساً هو فى تأكيد الوجود البشرى ..

إلا أنى ـ بالرغم من كل ذلك ـ قدمت هذا الوجه الآخر للعلاج النفسى بهذه الصورة لعلى أحد من الغلو فى الأمل فيه ،

وأواجه موجة خطيرة قد تعوق تطور المجتمع فى أحرج مراحل انتقاله، هذه الموجة التى نبهت لها فى مقال لى نشر بمجلة «العربى» تحت عنوان « قبل أن يغزو الطب النفسى حياتنا اليومية : محاذير على طريق مسيرتنا الحضارية » ، وقد قلت فى هذا المقال « ... ولذلك فإن دور الطب النفسى فى المجتمع المعاصر لم يتحدد بصورة نهائية ، والصراع بين مدارسه ليس صراعاً نظرياً بحتاً ، بل هو اختلاف له دلالة ، خليق بأن يجعل الإنسان العادى يقف مرتين قبل أن يأخذ معطياته المتواضعة مسلمات بلا نقاش » إلى أن قلت « ودخول الطب النفسى إلى حياتنا العادية — تفسيراً وتبريراً وتأويلا — أصبح بدعة شائعة ، .... فليس خافياً أننا نجد فى كل آن تفسيراً « طبنفسياً » لمظاهر حياتنا ... فالطالب الفاشل ، والعامل المتراخى ، والزوج البليد ، والمراهقة الرعناء .. وغير ذلك من فئات سلبية كفيلة بتحطيم أى مجتمع ، قد وجدت لنفسها

عناوين طبنفسية تحتمى بها وتختبئ وراءها . . . » ، وقد أحسست دائماً أن أى سلاح جديد فى مجال تخصصى هذا ، هو سلاح ذو حدين بالضرورة ولا بد من الوعى بحركته تماماً واتجاهها باستمرار .

موجز القول أنى أعرض هنا الجانب السلبى لممارسة طبية علاجية ضرورية وهامة ، وتركيزى على هذا الوجه الآخر دون الوجه الإيجابى ، هو تكملة للصورة وليس إبدالا لها ، وعلى من يريد أن يعرف تلك الإيجابيات أن يبحث عنها حيثما هى مع تقديرى واحترامى وتأييدى لأغلب ماذهب إليه الداعون لها (وأنا منهم فى موقع آخر) .

— ٣ —

والعلاج النفسى يشمل عدة أنواع ليس هذا مجال ذكرها ، ولكنى أعرض هنا بعض وسائله (وليست أنواعه) ،

والوسيلة الأولى والأهم فى العلاج النفسى هى « الـكلام » حتى أن بعض الباحثين أسمى هـذه الطريقة « الشفاء عن طريق الـكلام » ، ورغم ميل البعض إلى تصور هذا الـكلام فى صورة محددة مثل الاسترسال والتداعى الحر على حشية لذة معينة . . . إلخ ، إلا أن هذه الوسيلة تستعمل فى كل مجالات العلاج ، وفى مواقف مختلفة وأوضاع مختلفة (مثل الـكلام وجهاً لوجه .. أو الـكلام فى العلاج النفسى الجمعى ... إلخ) ، ومما لا شك فيه أن الـكلام هو ما يميز الإنسان – (أو من أهم ما يميز الإنسان) ، غير أن الوجه السلبى الذى أقدمه هو أن يحل « الـكلام » محل الحيـاة ، أو أن يصبح العلاج بالـكلام هو المبرر الخفى للتوقف عن التطور الإنسانى والنمو النفسى ، وفى الفصل الأول من هذا العمل « لعبة الـكلام » قدمت عدة صور تعلن مخاطر هذه اللعبة التى إذا لم ننتبه لها..فإننا نسير فى عكس اتجاه التطور.. أو كأننا نموت أحياء إذ نتوقف .. وربما كان هذا هو السر وراء تسميتى لهذه الصور « جنازات » .

أما الفصل الثانى « لعبة السكات » ، فهو يترجم طريقة أخرى للتواصل تتم أثناء العلاج – وخاصة العلاج الجمعى – وهى التواصل دون ألفاظ ، وفى المرضى الذهانيين بخاصة (الفصاميين منهم على وجه التحديد) تسقط وظيفة الكلام وتفشل ، ويصبح التواصل غير اللفظى أهم وأخطر ، ويخترق المريض حجب الطبيب ودفاعاته وتصبح نوعية « وجود » الطبيب « فى الحياة » ، (وليس ما يقوله من ألفاظ) هى العامل المؤثر فى علاج المريض ، وبالتالى فإن مسئوليته تكون أكبر ، والتزامه بالمحافظة على استمراره فى مسيرة التطور تكون أكثر إلحاحاً وضرورة .

وقد عرضت فى هذا الجزء الثانى صوراً « للعيون » ، وكيف يمكن اختراقها للتواصل البنّاء أو لمعرفة أغوار النفس ، وأعلنت بهذا الأسلوب الخاص حديثها المؤلم العميق ... ، وكذلك كشفت بعض أوراق الشخصية .

وأخيراً فقد ختمت هذا العمل (الجزء الثالث : لعبة الحياة) بإعلان صريح أن « الحياة هى العمل » ، وأن الهرب فى الألفاظ ، أو النكوص إلى إحياء أحاسيس فجة ، ليسا بديلاً عن الحياة وعن العمل بحال من الأحوال ، وبالتالى فإن العلاج النفسى إذا لم يلتحم بالعمل .. ويرجع المريض إلى أرض الواقع بكل ما يحمل هـذا الواقع من التزام وألم ومرارة ليبنى نفسه وبنى جنسه من جديد .. إذا لم يفعل ذلك فإنه قاصر أو مقصر بلا شك ..

— ٤ —

ومثلما كان بالنسبة لدراستى فى علم السيكوباثولوجى ، وتوقفى أمام السؤال الصعب : هل أقدم العمل الفنى «هكذا» ليستوعبه من يشاء كيف شاء ، أم أشرح ما وراءه من نظريات وأفكار ، وقفت هنا أيضاً ، ولن أطيل وقفتى ثانية

حيث قد انتهيت راضياً أنى لا أقدِّم فناً صرفاً ، ليقاس بمقاييس تقليدية معينة ، كما أنى لا أقدم علماً ينبغىَ علىَّ أن أدلِّل على معطياته وأبرهن مقولاته ، ولكنى — على حد تصورى — أقدم فناً علمياً (أو علماً فنياً) ، وهو ما تصورته من متطلبات مرحلة تطور الإنسان حالياً إذا شئنا مواكبة احتياجاته الحقيقية فى توليفة جديدة Synthesis ترحمه من التمزق والاغتراب .. ، وعلى هذا فقد ألحقت بهذا العمل « حواشى » لشرح بعض المفاهيم العلمية وراء هذه الرؤية التى أوصلها للناس،وكذلك بعض الملابسات الشخصية ، وهى إذ تميز هذا النوع من العمل بوجه خاص ، قد تفيد بعض المختصين إن شاء لهم فكرهم العلمى المجرد أن يناقشوا بعض ما قدمته .. أو شاء لآخرين حب استطلاعهم أن يعرفوا ما وراءه . .

أما وظيفة هذا العمل بالنسبة لى فى البداية والنهاية:

فهى أن تقوم بهدف محدد — على حد تصورى — فى رحلتى فى هذه الحياة ، وهو أن أتواصل مع الناس أعرّفهم ما أعرفُ دون أن يطرقوا بابى ، وهأنذا أطرق أبوابهم وألتمس عذرهم وأعرض بعض نفسى بين أيديهم . .

اللهم فاشهد .

المقطم فى ٢٣/٢/١٩٧٧

ملحوظة: بعد انتهائى من كتابة الشرح الملحق، ومراجعة ما كتبت ، وجدتنى أود أن أنصح القارئ ألا يقرأ منه شيئاً فى أول مرّة ، أى أن يمر «بالمتن» كله أولا . . ثم يرجع إلى مايشاء من الحواشى.. إذا شاء ، فإن قبِل . . فقد أعفانى من إحساس خاص بأن هذه الحواشى [illegible]ات ..أو مجرد مخاوف..
[illegible] شويه . . وشكراً

تصـــدير

— ١ —

لمّا بطّلت الغُنا ،

لما ذعت « السِّر » ؛ [١]

لمّا خفت .. وانكمشت .. واتراجعت ،

خفت « منى » بالأمانة .. — [٢]

وخفت مالطوب ، والطماطم ،

خفت مالبيض المِمَشِّش .....

والعيون « اللاء » .. خايفة .. ! ،

أيوه خايفـــه ما لحقيقه .. !! [٣]

قلت أسكت ؛

واتداريت جوّا الـكتب ، [٤]
قلت أَرسم نفسى زىّ « طبيب نفـوس » [٥]
واقعد أرطن باللسان ،
والروشِتّـه ،
والنصايحْ . . ،
والعــلاَمْ .
بس يا خوانا دى سكّة مدَرْبِـكَة
المريض فيها طبيبْ [٦]
والطبيب فيها يا حبة عينى ماشى فْ بيت جحا
ييجى صاحبَك « ملْط » إلا ما الْحقيقهْ [٧]
ييجى يزُقلها فى وشّى وْتَنُّه ماشى
يبقى نِفْسى أَقول : « دا مجنون » . . ، وانتهى ،
بكره يعقل ! [٨]
بس ما قْدرتش ياناس :

النفوس واحدَهْ ونَفْسِى حته منهمْ [٩]
لَمْ قِدِرتْ آعمَى بنَوَاضْرى
حتى لو كان العمى «سيم» البضاعَه اللى يمَشِّى
الحال ، ويملا الجيب تمام [١٠]
قلت : إعْقَل يا ابن نفسى [١١]
قلت : حاسب ما الفضايح والجُرَسْ
قلت : عيش زى اللى عايشين والسلام .. ،
بس والله يا عالم لَمْ قِدِرت
قلت أَخطف نظره عالماشى واغَمَّضْ مِن جديد ،
هيّه نظره — واللى خلقك — لم تَخِيتْها [١٢]
بس شوفوا اللى حصل :

— ٢ —

بصيت لقيت الزفّه بتلف الضريح لم بطّلت [١٣]
وتقول مدد !!

بس العمامة اتغيرت

الطبيب أصبح مهندس للعقول البايظه

(يعنى . !!) ، واللى برضه اتصلحت [١٤]

(الطبيب دا هوّ انا، مش حد غيرى) [١٥]

وساعات بيعمل شيخ طريقة « مُقَنَّنَه » ! [١٦]

وساعات بيفْتِى فى المشاكل والعقد ، . [١٧]

وساعات يطبطب عاللى رايح واللى جاىْ ، [١٨]

وساعات أشوفه مشَخّصَاتى : مضحك

الملكة الأغا [١٩]

الكلام أصبح صناعَه ، [٢٠]

والعواطف تتشحن جوّا العيون زى البضاعه، [٢١]

والجنازه زفّه ترقص عالسراير —

فى البيوت اللى حواليها الستاير [٢٢]

واللى خايف من خيالُه

واللى خايف ما العساكر .. والرقيب [٢٣]

واللى بيوزع تذاكر يا نصيب [٢٤]

واللى بيفرّق دوا « ضد الذنوب » [٢٥]

واللى ماشى يشق ف بطانة الجيوب .

والعرايض ، والجـــــرايد ؛

واللى بيرصّوا الكلام ؛ [٢٦]

« قف مكانك ، أو تأخر للأمام » !

بخّروا سيدنا الإمام »

« سرّ .. بضهرك ...، »

والعرق : إلكوز بكام ؟ .. » [٢٧]

* * *

أما صورة مرعبه ياخلق هوه .. إلحقونى [٢٨]

قلت غلطان والنبى يا ناس سيبونى

قلت اغمّض تانى حبّه صغيرين ،

.. لمْ قدِرت [٢٩]

طب حا فتّح ليه يا عالمْ ؟

هيه فُرجة ؟ ! [٣٠]

بصّ لى « صاحبك » ولقّبْلِى حواجبه ،

قال : وقعْت ، [٣١]

والقلم كمّل كإنى لم وقفت : [٣٢]

— ٣ —

بقى دى حياتنا يا ناسْ ، وِآخْرِة صبرنا ؟

الحياهْ ؟ نقعد نحكّى لبعضنا ؟ [٣٣]

الحياهْ ؟ نقعد نحسّ، نبصّ ، يتهيأ لنا ؟ [٣٤]

طب واحنا فين « دلوقتى » حام « أو هنا » ؟ [٣٥]
دى المركب الماشية بلادفه ولا مقلاع حتشردْ منّنا ،
واوْعَى الشقوق توسع يا نايم فى العسل ،
لا الميه تِغْلَى ، تزيد ، تزيد ،
.. ميّةْ عطَنْ ، تكسِى الجلود
بالدّهْننَه ، [٣٦]
وتفوح ريحتها تِعْمِى كل اللى يحاول يتلفت ناحيته «لماذا» ،
أو «لمعنى» يكون ما جاشى فى « الكتاب » ،
أو للى « جوّه » ،
أو نواحى « ربنا » !
(الرحمه يا رب العباد : إغفر لنا) [٣٧]

* * *

واللعب داير ليل نهارْ لمْ ينقطعْ ،

والسيرك صاحبُه واقفلِي بِيلف العصا
ويقول بعزّ ما فيه :
أهو دا اللى ممكن ،
. . واللى عاجبه ! [٣٨]

. . . .

. . . .

أنا مش عاجبنى هِهْ ، ولازْماً يتحكى ،
كل اللى جارى .. لاجْل ما الناس تنتبه قبل الطوفان،
أيوه . . !
دانا دينى كبير ؛
للناس .. ، لـكل الناس حا قول ..
ردِ الجميل للطير بينزف م الألم قدام عيونى ،
قالوا « مريض » لـكنه أستاذ الأساتذة كلهم

علمنى اشوف .. علمنى أصحى

علمنى ضرب النار ، بكلمة صدق طالعه مولعة

تحرق عبيد الضلمة والتفويت وشغل الهمبكة ،

وتنوّر السكة لإخوان الشقا ،

اللى يقايس

اللى يحس ، يبص ، يتجرّأ ، يشوف ،

للناس .. لكل الناس حاقول :

دا حق كل الناس يا ناس .

حق اللى ورانى « أنا »

حق اللى علمنى أكون إنسان ،

حق اللى علمنى الحياة

حقه : أقول للناس حقيقة اللى جرى :

أنا رايح اقول كل اللى عارفه حتى لو جانى —

— الفقى مددنى فى الفلكَة وقطّع جتتى

. . . .

. . . .

إنْ كنت عايز تلعب « العَشرة » وتبقى الطيبة ؛
نكشف ورقنا قبل ما الوادْ يتحرق [٣٩]
واللى يبَصَّر « بالبِذَيَّة » يبقى ذنب التانى على جنبه
مالوش يزعل بقى
ما كان يشوف . . !
ما اللعب عالمكشوف أهُهْ [٤٠]

* * *

لأّهْ :

ولأه كان مانيشْ ساكتْ وِدِينى وْمذهبى
حتى ولو كان اللى « مات » هوّا اللى « عاش »
فى عُرفكمْ [٤١]

لأَّهْ ، مانيش ميِّت حاعيش ..

هوَّ انا ناقص رِجْل ، ولاّ ماليش لسان ؟

وشّع بقى ..

. . . .

القلم محصمح ونطّ الحْرف منُّه لْوَحدُه ِبيخزّق عِنَىّ ،

وابتدا قلبى يجرّحنى أنا : [٤٧]

— ٤ —

قالِّى بالذمة : لو كنت صحيح بنى آدم .. بتحسّ ،

والناس قدامك فى ألمهم ، وف فرحتهم ،

وف كسرتهم ، وف ميلة البخت ،

مش ترسمهم للناس ؟

الناس التانيه ..

إللى مش قادره تقول « آه » عند الدّكتور .

أصل « الآه » الموده غاليه ، لازم بالحجز ،
لازم بالدور ؛
مش يمكن ناسنا الغلبانه إللى لسه«ما صابهاش» .
الدور ؛

ينتبهوا قبل الدحديرة —
قبـل ما يغرقوا فى الطين [٤٣]
ولاّ السّبُّوبه حيتعطّلْ لَو ذعت السر ؟
ولاّ انت جبان ؟ [٤٤]

. . . .

بصراحه انا خفت ،
خفت مْنِ القلم الطايحْ فى الـكّلْ كَليلَهْ ،
حيقولوا إيه الزملا المستنيه الغلطه ؟
حيقولوا إيه العُلَمَا المُـكْنْ
(بسكون عالـكاف .. إوعك تغلط)

على عالِم، أو متعالم : بيقول : كما راجل الشارع [٤٥]

. . . .

. . . .

إلقلم اتهز فْ ايدى

طلّعْ لى لسانه :

ما يقولوا !!

ما نا قُلتْ زمان، وكما الفنان :

حكّيت ورفضت ، طلعت نزلت ،

رجعت احترت . .

وبْكُلّ لُون شخبطت

تطلع غنوه حلوه ،

تطلع حدوته ملتوته ، [٤٦]

أنا قلت وبس

أنا مالى . . ، أنا لىّ الناس ،

وما دمت باحسّ ،

والحبر بتاعى مية نار

راح اقول :

والخايف يبقى يوســـع ، أحسن يتطرطش ،

أو تيجى فى عينه شرارة ، أو لا سمح الله

يكتشف انه بيحس

أنا مالى . .

أنا لىّ الناس . .

وخلاص . .

* * *

إهداء :

لما قطعت السلاسل

لما نطّيت الحواجز

لما فجّرت المناجم .

خفت تانى .. (!)

. . .

يا ترى الكلمه حا تقدر تفشى سرّى ؟

يا ترى مين فيكو يستحمل مرارتى ؟

يا ترى مين فيكو حاينساعى شقاى ؟

أهدى مين ؟

أهدى إيه ؟

هوّا عمر المرّ يتهادى يا عالم ؟

بس يمكن .. (!!) .. ،

قلت انطْ فْ وسط خلق الله جميعاً ..

همّه دول حمل الكلام المرّ والدم اللى يغلى ..

همّه دول حمل الحقيقة .

قلت أهديها لْبلدنا ،

للى غنّى .. واللّى صحّاه الغنى

يا ما قلتوا يا أهل مصر يا فنانين

يا غلابَه

يا حضارَهْ

يا تاريخ

يا ما قلتوا ويا ماعِدْتُوا

صحيتونى . .

والجتت ويّا الجماجم والحجاره والتراب: كلِّمُونى ،

فوّقونى .

الهديّه للى غنّى ليبهيّه . . أو ياسين ،

واللى صحّى ليلى والمجنون يغنّوا لمصر تانى ، [٤٧]

واللى علِّمنى حلاوة المرّ . . من جوّا النقايَهْ ،

واللى . . واللى . . واللى واللى . . والجميع .

• • •

يا ترى تقبل يا شاعر مصر يا صاحب الربابة ؟

يا ترى يا اهل الحضاره والكلام الحلو واللحن الأدان ..

تقبلوا منى الهديه ؟

أصلى غاوى ،

بس يا خساره مانيش لابس طاقيه ،

قلت انقط بالكلام .

اعتذار :

[٤٨] طب وحبيبتى .. راح اقولها إيه ؟

إللى ما عمرها قالت لأ .. ولا « مش قادره »

ولا فيها شىء يتعايب ..

حلوه ، وغنيه ، وبنت أصول !!

معلشى النوبة ،

المرّادى سماح

وانا أعمل إيه ؟

أصل الحدوتة المرّادى كان كلها حسّ ،

والحس طالعلى بالعامى بالبلدى الحلو

والقلم استعجل .

ما لحقشى يترجم لتفوته أيها همسة

أو لمسة

أو فتفوتة حس [٤٩]

معلشى النوبه ..

وَاهِى لسه حبيبتى ..

حتى لو ضرتها غازيه .. بتدق صاجات .

الفصل الأول

لعبة الـكلام

« سبع جنازات »

(بعض صور .. — أو مفارقات — ما يسمى « بالعـــلاج النفسى بالـكلام » (!) وهو عادة من نوع العلاج الفردى ، والتحليلى بالذات) .

مقـــدمة

— ١ —

مرّ الهوا صفَّرْ ، سمعنا الصوت كإن النعش بيطلّع كلام :
(لأْ . . ، لسّهْ . . ، إسْكُتْ ، . . لَمْ حَصّـــلْ ،
سيا . ، ياتا كيى ، . . لسّهْ كام ؟)
أىّ كلام

ألفاظ زينَهْ ، مسـكينهْ ،
بتزقْزَق ، وتصوْصَوْ
. . وخلاص !!

* * *

اللفظ مات من ركنته

من لعبة العسكر وطول تخبيِّتُه

ظرف رصاص فاضى مِصَدِّى ف علبته (٥٠)

لما القلم سنُّهْ اتقصف؛ حطيته تلبيسهِ تمَكِّنْ

ماسْكِتُه ،

واهِى شخبطَةْ (٥١)

— ٢ —

واحد نايم متصلطح ، وعنيه تتفرج :

على رسم السقفِ وْعَلَى أفكارُو اللى بتلفْ،

تلِفْ ، . تلِفْ ،

وكلام فى كلام .. هاتك يا كلام ،

يا حرام !!

والتانى قاعدلى وراه .. على كرسى مدَهّبْ .

طيّب ؟ .. طبعاً طيب . !
بس خدوده نحاس
وعيونه إزاز
وشفايفه قفل رصاص
ووِدانه شريط حساس
يسمع حكايات .. حكايات
وتمر ساعات وساعات
(ما أظنش أيوب مات) [٥٢]

. . . .

« إشى عدّى البحر ولا اتبلش » ؟؟
« قالّك : إلعجل ف بطن امه » !!

. . . .

أرزاق . . !
وخلايق لابسه الوش زواق .

* * *

اللفظ قام من رقدته

ربك كريم ينفخ فى صورته ومعنته

يرجع يغنى الطير على فروع الشجر

ويقول « يارب »

وتجيله رد الدعوه من قلبه الرِّطِب [٥٣]

ألفاظ بتهز السكون

وبتضرب فى المليان

وتغـيّر طعم الضحكة

وتشع النور ما الضّلمهْ

وبتفضح كِذْب الساكت

وبتفقس كل جبان [٥٤]

* * *

الجنازة الأولانية

سارى الخوف

لأْ ، مش لاعب

حاستنى لما اعرف نفسى ،

من جوّه

على شرط ما اشوفشى اللى جوّه ، [٥٥]

وانْ كان لازمْ ؟

لازم يفضل زى ما هوّه [٥٦]

ايش ضمّنى ؟

أنا عارف دهْ ا

بيقولوا الشط التانى أمان.

إيش عرفنى ؟ [٥٧]

وانْ كان لازم إنى أعدّى :

الموجه المادية تعدينى

من غير ما أعوم [٥٨]

وأعدِّى من شطىٍّ لشطىٍّ ؛

هوّا دا شرطى [٥٩]

. . .

ولحد ما يهدا الموج

واشترى عوامَهْ وارْبُطها على سارى الخوف [٦٠]

يا للا نقول : « ليه ؟ »

« وازاى ؟ »

« كان إمتى ؟ »

« يا سلام !!! » [٦١]

« يبقى أنا مظلوم !! »

. . .

« شكر الله سعيك » [٦٢]

الجنازة الثانية

القرداتى

الركن بتاعى متحضّر

حارجعله واسيبكم

ساعتْ احسّبْكم [٦٣]

حافضل كده

طالع نازل . . زى اليويو

كدهه !! [٦٤]

. . .

. . .

أصل انا خايف

أنا خايف موت

أنا ميّت خايف [٦٥]

— لكن قولّى :

هوّا الميت بيخاف ؟

— طبعا بيخاف ؛

بيخاف يصحى ! [٦٦]

☆ ☆

يا للا بنا نلعب يا جماعة :

نقعد مع بعْض ، [٦٧]

فال إيه ، ونحِسْ ، [٦٨]

وكلام للصبح ، [٦٩]

ونقول بنحب ، [٧٠]

. . .

. . .

وما دام الركنِ متحضَّرْ هنا تحت الأرض ؛

راح انطّ لفُوق

وأعدّى الطوق ،

وارضِى القُرَدَاتِى ..

« يسترزق » !　　[٧١]

الجنازة الثالثة

ريحة بنى آدم

طيب .. طيب .. واحدَه .. واحدَه

أنا حاقلعَ اهُه :

آدى صورتى يا سيدى .. شرمطها ،

وَادِى قصه طويله

وَادِى عقدة نقص وكسرة قلب

. . . .

. . . . أهو كله كلام !! [٧٢]

. . . .

أنا قالع ملط ..

لـكنى مش عريان . [٧٣]

هوّا انا مهبول ؟

أدّيك نفسى لحمه طرية ؟

على إيه ؟

الناس الشرفا فى الغابة أحسن منكم

يا كلوها علنا بشجاعة من غير تبرير

ولا ييجى واحد منهم بيه

يسأل بالعلم المتمكن : بتحس بإيه ؟ [٧٤]

ويقلب سيخى :

ويقولّى : حسّ ؛

بالنار من تحتك ،

كما إنى باحس

بحلاوة ريحتك [٧٥]

. . . .

. . . .

الحالة دى صعبه ومهمه ،

« تنفع للدرس » [٧٦]

الجنازة الرابعة

الموت السرى المتدحلب

لا يا عمْ ..

كده أحسن [٧٧]

. . .

أصل الموت علنا بيخض

ولا حد يقول ، ولا حد يرُد

ولا فيه مزّيكا

.. ولا جنس يا ويكا

ولا فيه كل واشكر بالفستق

ولا كفته وكبده وحتة كيف

ولا فيه تصنيف [٧٨]

* * *

خليها كده نلعب فى السر

قال إيه عايشين

وأقول :

« أنا رأيي يا جماعة » [٧٩]

وكأنى عندى رأى صحيح .

وراح اعمل زى ما اكون باختار

أو أرفع حاجبى وانا محتار

كدا .. شبه الجد [٨٠]

* * *

يا أخينا :

لما انت عرفت انى ميت

بتقرب ليه ؟

ما تكونشى عايز تتفرج ؟

على إيه ؟

عايز تعرف : إزاى الميت بيحس ؟

إزاى بيطلع حس ؟ [٨١]

ولاّ حتاخد تفاصيل النعْى :

تكتب إعلان وْبخَط اسود وبْنُط عريض :

« إن المرحوم كان واحد بيه ،

ولا خدش نصيبه فى الدنيا . .

ويا عينى عليــــه ،

والمعزى من ستة لتسعه

بميعاد سابق »

• • •

بس ما تنساش :

ضرب الميت أكبر حُرمه [٨٢]

ازرع « صبّار » جنب التربة

والشيخ « عارف » ،

يقرا سورة « الرحمن » [٨٣]

* * *

الجنازة الخامسة

لله يا سيادى !

لله ياسيادى ..

عيل غلبان .. مسكين تعبان

يستاهل العطف والشفقه

وشوية حسب [٨٤]

. . .

نفسى اتمرجح ، وارجع تانى أرضع مالبز ،

واتلذ .، وخلاص [٨٥]

عايز ابقى معاكم

شايـلنى شيل

حتى على خشبة نعش

« هيلا بيلا

يا حلـلى !! »

خلينا مع بعض :

نتونس ، وندردش

بس ما نمشيش قدام [٨٦]

وحا نمشى ليه ؟

ما تبص يا بيه :

دالكلب بيجرى ورا ديلُه

نْهارُ وْليلُه .

وَانا مالى ! [٨٧]

الجنازة السادسه

شبه الإنسان

فى الواقع ؛ « إن الحل الأمثل . . أمثـل ، » !!

والفـكر المـادى العقلانى

والجدل الثورى الأصلانى

حيحلوا شئون الـكون :

ويجيبوا الأكل .. المضمون ؛

للشعب العامل ،

المطحون [٨٨]

. . .

. . .

إنما فيه حاجة بعدين : يا حاتحصل يا ما تحصلش

إن الإنسان الشبعان

يقدر يبق « حر » [٨٩]

وانْ ماحصلشى ؟؟

المسكن الداير حا يزيد مكنه اسمها «إنسان»

. . .

طب ليه ؟

أنا اقولك ليه :

كما إن الدنيا ناقصها أكل

الدنيا ناقصْها حب

وقلوبنا ملانه .. بالخوف ومعاه الأكل المر

وذل النفس وبيع الشرف الحلو بكلمة «حب» ،

ما فيهاشِي ريحة الحب [٩٠]

* * *

— عايز يامّه حبة هِدْوان السر ،

— . . . . سلخوه فى المدبح

ـــ . . . مين يامّه ؟

ـــ . . . « الحب » يا خبة عينى ! [٩١]

* * *

واسرح وأقول :

لو حد كده إبن امُّه ،

زى ، على الزيبق ،

يعمل نظريه اشتراكيه

ويأمم كل مصادر الطاقة العاطفية

ويعيد توزيع الحب

وحنان الأم

زى فراخ الجمعيه ؟ ! [٩٢]

[لـكن على شرط ،

يلغوا الطوابير

أحسن حد يشوفنى واقف فى الدور

يعرف إن الحـــل الأمثل . .

مش أمثل]

* * *

دا القبر رخام

والنقش عليه آخر موضه خلاّ له مقام

وصنايعى واصل من برّه ... أزميلُه «كلام»

. . . .

واللى دفنوه سَوَى من مدّه

نسيوا المرحوم كان مين

. . .

أتاريه كان شبه الإنسان [٩٣]

الجنازة السابعة

حمام الزاجل

عايزين إيه منى ؟

أنا مالى ؟

أنا عايزه أعيش ، زى بقيت الناس : [٩٤]

يبقى لى عش صغير ، وعيالْ ،

والفندى بتاعى (أيوه بتاعى ملكى) [٩٥]

رجعلى تملِّى . . . زى حمام الزاجل ،

يحضنّى أنا وعيالى

يطوينى تحت جناحُهْ ، [٩٦]

وراح اربطْ رجْلُهْ بْـفَتْلَهْ ،

لَيْطير . . [٩٧]

. . .

أنا مالى . . !

انتو اللى أخدتو كلامى جد

مانالازم اتكلم . . . . زى الباقيين

لكنى مش قد كلامى . .

دا كلام الناس ، دا كلام كده بس [٩٨]

ولا عايزَه أصلّح حد

ولا ناويه أعدّل فى الكون

ما هو كله تمام [٩٩]

أنا عايزه حد يعوزنى

وأعوز . . عوزانُه . . [١٠٠]

اشمعنى حسن ونعيمة ؟ !

اشمعنى بتوع السيما ؟!

أنا مش قد الحب الثانى [١٠١]

أنا عايزه أعيش

يعنى « أموت » فيه ويموت فيّه

وِخَلاص [١٠٢]

وانْ كان لازم نتطور ؟ نتطور ، !

ما يضرش !!! [١٠٣]

بس ارجع تانى لمشى

ولَفندى بتاعى

يطوينى تحت جناحه

وانا ماسكَه الخيط بالجامدْ

لا يْطير ! ـ

الفصل الثانى

لعبة السكات

« ستاشر عين »

« هذه مجموعة صور تمثل صعوبات ومخاوف التواصل البشرى كما يظهر فى العلاج الجمعى الذى يستعمل — أيضاً — اللغة غير اللفظية . .

واللغة المستعملة هنا هى لغة العيون بالمعنى المباشر وعلى مختلف الأعماق . . »

مقدمة

يا للا بنا نلعب يا جماعة : لعبة « هُسْ »

فتّح عينك بُصْ

إن كنت شاطر حِسْ [١٠٤]

أنا مين ؟

ما تقولش

مجنون ؟

ما تخافش [١٠٥]

جرّب تاني ، يا الأَول

• • •

... راح تتعلم تقرا وتكتب من غير ألفاظ
مش بس عنيك : تدويرة وشك
وسلام بقّك على خدّك
والهزّه ف دقنك
وكلام اللون :
اللون الباهت الميت ،
واللون الأرضى السكاحان ،
واللون اللى يطق شرار ،
واللـــون اللى مالوش لون ،
وعروق الوش ،
والرقبة ،
وخطـوط القورة ،
وطريقة بلعك ريقك

تشويحة إيدك ...
إلى آخره .

. . .   * * *

لما حانسكت حانحس
أو نعلن موتنا
وِخَلاص !
أو يمكن لما نحس ،
نقدر نبتدى ما الأول   [١٠٧]

العين الأولانية

البحر الميت

— ١ —

كان بيتكلم ، وأتكلم ، ونتكلم .. ونحلم .

لما سافر، قلنا نكتب .. قال ونتناقش.. ويمكنْ .

وشبِعنا كلام وكتابَهْ ، .. وِهرَبْ

ما تيالاّ نجرّبْ

ونقرّبْ :

سيبنا عيونّا تتكلم [١٠٨]

— ٢ —

مش يمكن الآق البذره الناشفَهْ الخايفَه الضّايعه

فْ بحر كلام [١٠٩]

مش يمكن يعرف يسمع همسِ شكوتى ،

أو يعرف ليه الحربْ وليه الضربْ [١١٠]

ودخلت أحسِّسْ

ولاقيتنى جوّا بحور ضلمهْ ، ملهاش شطآن

ولا حسّ لموجْ

ولا حركةْ نسمه تهف شراع

أو حتى تهز القشه العايمه المنسيهْ

ولا ضربة ديل سمكهْ

ولا طُحلبْ

ولا قَوقعْ

ولا أى حياهْ [١١١]

— ٣ —

يا خبر يا جدع !! كدهه ؟

لا ياعم ،. نتكلّم أحسن

ما هو أصل المعزى :

« قهوة سادة

وكلام »

[١١٢]

العين التانية

السوِيقـة

والنظرة التانية الزحمه ، [١١٣]

زى سويقة السبت .. فى بلدنا

زى القفف المليانة حاجات وحاجات

محطوطه بالذات

على قلب شريط قطر الدلتا

كل ما القطر يصفر

بتلاقى الزحمة اتفضت

والقفف السودا النسوان ، بتشيل القفف

البيضا المليانه حاجات وحاجات

ومّا القطر يعدى :

ترجع كومة القفف النسوان ، القفف النسوان

تتلخبط على بعض ...

كما دقن الشايب [١١٤]

آهى نظرة عينهْ زىّ سويقة السبت
فيها كل كلام الدنيا ، وفْ نفس الوقت [١١٥]
فيها « رغبهْ » على « دعوه »
على « إشمعنى » ، على « رعشةْ خوف »
على « صرخة طفل » ، على حلمةْ بز ،
على « عايزه اختار » ، و « انا مالى يا عم »
« مش عايزه ألم » [١١٦]
على « طلب النجدهْ » ، على « لأّهْ »
على « نفسى أعيش » ، « بس ما تمشيش »
« خلينى معاكْ » ، « خلينى بعيدْ »
وإذا قلت أنا أهه ، أنا جىْ
يسمعنى كما صفارة القطر ،
ويخافْ [١١٧]

وينط كلام العين جوّه : فى البطن
أو تحت الأرض.
وتلاقى سوادها وبياضها بيجروا ورا بعض
زى النسوان اللى بتجرى بقفقها
وانّما ابعد تانى
ترجع كل الكلمات الساكته المليانه ألم وحاجات
و « تعالى » و « روح » و « قوام » و « استنى »
« وانا نفسى تقرّب . . إلا شوية »
« طبْ حبّه كمان » [١١٨]
« يا نهار مش فايت !! ، أنا خايفَهْ »
« أنا ماشيهْ »
والقفف المليانه الغلّهْ الكوسهْ البادنجـــان ،
الحب العطف الخوف العوزان ،
تفضى من كلهْ [١١٩]

ولا يفضل غير قضبان القطر

زى التعبان الميت

مستنيه السبت الجى ،

الى ما بيجيش [١٢٠]

العين الثالثة

« القط »

والعين الخايفة اللى بتلمع فى الضلمة

عمالَه تِختبر الناس :

بتقرب من بحر حنانهم زى القط ما بيشمشم

لبن الطفل بشاربه [١٢١]

عماله بتسأل :

طب ليه ؟

بصحيح ؟

عايزنى ليه ؟

بقى حد شايفنى « أنا » ؟

طب أطلع مين ؟ [١٢٢]

. . . .

خلونى ف حالى

اخطف حتة لحمه من ستى

واجرى آكلها لوحدى ،

وأبص لكم من تحت لتحت

واستخونكم [١٢٣]

وأبويا النمر يفكركم :

زى ما هوّه بياكل الثعلب

أنا باكل الفار [١٢٤]

لكنى لما بقيت انسان ، باكل الأطفال

والنسوان الملك [١٢٥]

ما تخافو بقى منى وتنفضوا ،

مِنتِظرين إيه ؟ [١٢٦]

. . . .

. . . .

لسه عايزِنّى ؟

عايزنّى كما الوحش الـكاسر

ولاّ مكسور القلب هزيل ؟ [١٢٧]

كبَّر عقلكْ إنت وْهوّه .. دَانا حلى تقيل. [١٢٨]

. . .

. . . .

لسّه حوالىّ يا رجاله .؟!

يا حلاوَة !!

طب هِـنه : ، راحَ اسِيبْ : [١٢٩]

— ٣ —

يا حلاوةِ السكُوم اللحمَه ما لوهشِي خدُودْ

أنا جسمى اتبعزق

زى فطيره مْشلِتتَه لسّه ما دَخَلِتْشِ الفُرْن

ولا عادلى إيد ولا رجل،

ولا عارف اتلم [١٣٠]

أنا خايف من لمس أدِيكم

خايف تفعصنِى انتَ وْهوّه وتقولوا «بِنْحِبْ» [١٣١]

إيش عرفكم باللى ما كانشِى ؟

باللى ما لوهشِى ؟

باللى ما بانشِى ؟ [١٣٢]

سايح نايح ؟!

لكن باخسب ..

باحسب خُوفكُمْ ،

خوفِي منكمْ ،

نحي مصهلل ، ويتفرج ،

ولا فيش فايده [١٣٣]

. . . .

. . . .

— ٤ —

لم ، لم ، واحشر نفسك جوّا الفورمه [١٣٤]

دا العمى حيسى

فيتك يا مّنْ

نفسى اتكوم جوّاكى تانى

بطنِك يا مّهْ أأْمَن وَاشرف من حركاتُهُمْ ،
وانْ ما قدرتشْ ؛ يِبْقى مَاليّاشْ إلّا التربه ،
واللا ترابها دا أرحم واصْدق من خدعتهم [١٣٥]

. . . .

راجع « كما كنت »

قاعد ساكت تحت سرير الست
حاخطف حتّةْ نظره ، أو حبة حُب
واجرى آكلها لوحدى
تحت الكرْسِى الِمشْ بايِن [١٣٦]

العين الرابعة

البركة

— ١ —

والعين المادية النعسانه

بتقول أنا اهه

أنا مش خايفه ،

أيها واحد حايقربلى حاخده بالحضن

وكانى باحب

ميتى رايقه ، وخضرا وهاديه ،

وخلاص [١٣٧]

— ٢ —

لكن لما تقرب أكتر

تلاقيها بتقول شيء تانى :

«أنا مش خايفه.. ما انا خايفه أخاف» [١٣٨]

والميّه هادية عشان برْكَة :

مش نيل ولا بحر

وخَضارها مش زرع منعنع ،

دالرّيم اياه [١٣٩]

مشوارِي طويل

خلونى فْ حالى

البنج حلالى ،

موتى بيحلالى ، يا خالى [١٤٠]

— ٣ —

عايزِنّى أصحى ؟

وجهنم خوف تسوّينى ؟

ماانا لو حاصحى ، ماانالازم اخاف

وأموت ما الخوف

وارجع أصحى

وأغيّر جلدى لحد ما احس

وَانا خايفَه أحِس ، وخايفه أَبص ،

حتى معاكم [١٤١]

على ما اصحى واموت وارجع أصحى

حاتسكونوا نسيتوا انا مين

أو كنّا فْ إيه [١٤٢]

* * *

لا . يا عم

أيها واحد حيقرّبلِى ، حاخده بالحضن ،

وكإنى باحب .

العين الخامسة

— ١ —

وعيون بتبربش ،

قال فيها دلال ، وحنان »

بتقولّى تعـالى

بس ما تقولْلِشى لحدْ ،

ما تبصّش جوّه زياده

خليك عالقد

شوف حركة رمشى المفهافة

شوف لون الخد

[١٤٣]

— ٢ —

وِأحاولَ ابُص ،

وِمَا شُوف غير سحنهْ مقلوبه . .

زى العفاريت .

والبويَهْ ملَطَّخة وش الستْ

والطفلة تْعَافِر جوّا عنيها السود

آجى ألْمَحْهَا ،

تهرب وتكش [١٤٤]

والعفَرَة على الخِلقَه تحوشنى

ويا ريتها عفرهْ زى امّى : طالعة مالفرن

دِى كَمَا الأَراجوز فى السرك

— ٣ —

معلشّ يمكن جوّا يا ناسْ ،

حانلاقى إحساسْ . [١٤٥]

— جرى إيه يا أخينا . . !
على فينْ ؟
ما كفانا زْواق الباب
إياك تفتحنى ،
حتلاقى الهوْ
البيت دا مالوهشى اصحاب [١٤٦]
دول سافروا قبل ما ييجوا ،
من يوم ما بنينا السد ،
السد الجوانى التانى [١٤٧]
وانْ كان مش عاجبك ؛ سدِّى البرّانى
تبقى فقست اللعبهْ
وما نيش لاعبهْ
أنا ماشيهْ [١٤٨]

العين السـالله

العين الحراميه

— ١ —

والعين المهزوزة الخايفه

زى الكلب السارق عضمه ،

آجى اقرّب منها تبص لْتحتْ ،

وساعاتْ للجنبْ ،

وساعات تمشى ورا برص واقف عالسقف ،

وبتجرى بْخوفْ .. كما عامله ذنبْ ،

وارجع ابُصّ لْهـا تنطْ ،

وتنطْ ،

كما طفل عَلَى سلمٍّ تْرُمَاىْ

بيبيع كبريتْ أو باغَهْ

أو إيده خفيفه . . عالساعة والولاّعه
يخطف ويفط :
زى العين الحراميّة الخايفة المهزوزه [١٤٩]

— ٢ —

وانْ قلت يا عينى عليكى يا عين
يتقول يا أخيتا : ما فيعاش من كدب [١٥٠]
وأقول بحنان :
طب وانتى يا بتى ذنبك إيه ؟
يتقول والدمعه يا دوب حاتبان :
عايزاكُمْ .. مش عايزاكُمْ
باستخونكُمْ . . وباجيكُمْ [١٥١]
وبخاف مالعين
وكلام العين .

خلونى كويس ..

خلونى بعيد ...

لا تبْعَزَقْ [١٥٢]

— ٣ —

أنا تذكرنى بلكون

وراح اتفرّجْ للصبح ،

بفلوسى ! [١٥٣]

العين السابعة

الدمعة الحيرانة

. . والعين الواسعة الصاحيه الليانه حُزْن [١٠٤]

. . .

حركتني شفت بقره واقفه لوحديها
مربوطه فْ شجرةْ توت
جنب الساقيه
وعنيها الواسعة تحتيها دمعه ،
لا بتنزل . . ولا بتجف ،
عماله تبص للساقيه وهى بتلف
وبتحسد زميلتها الدايره المربوطه فى التاف [١٠٥]
والغُمَا محبوك عالراس
والحافر يحفر فى الأرض السكة اللى ما لهاش أول
ولا آخر [١٠٦]

والبقرة الواقفه تقول :

« أنا كنت بالِفّ ومش داريه

كان لازمته إيه ؟

بتشيل الغما من على عينى . .

وتفكّنى ليـــه ؟

علشان ارتاح ؟

هيه دى راحه إنى أشوف ده ؟! [١٥٧]

لو حتى لبست الغما تانى مانا برضه حاشوف [١٥٨]

وساعتها يا ناس :

مش حاقدر الف

.. ما هو لازم الواحد ما يشوفشى لو كان حايلف [١٥٩]

* * *

الله يساعكم !! دلوقتى :   [١٦٠]

لا انا قادره ارتاح ،

ولا قادره ألف ،

لا الدمعه بتنزل ،

ولا راضيه تجف .   [١٦١]

العين الثامنة

فركيشه !

— ١ —

والعيون التانيه دى بتقول كلامْ ،

زى تخاريف الصيـــــامْ؛

الصيام عن كل شيء فيه « الحياة »

أو فيه « أنا »

أو فيه « هنا »

أو فيه « ألم »

أو فيه « ندم » [١٦٢]

والأفندى اللى لابسها فى العسل نايم بيحلَمْ ،

مش على بالُه اللى جارى

وانْ وَصلُه ، غَضَب عنه [١٦٣]

يترى شطيحه ويطلب حقه منه :

« يا ســــلام !!

هوّا جوالك كل ده ،

أنا نفسى أبـق كده

بس حبّونى كان . . ،

حط حقه عالميزان » [١٦٤]

— ٢ —

للمـــلّ حط فى وِدانه العجين

لاجل مايفوق الغريق فى بحر طين [١٦٥]

حتى لو كان مدّ إيدُه ،

إللى بيقوله بعيده ! [١٦٦]

لسّه بيقدم طلب على عرضحال :

إنه يعيش . .

« بعد موفور السلام

نفسى حبة حب . . أو حبة حقيقه

نفسى افهم فى اللى جارى ولو دقيقه

نفسى أعرف فى اللى بتقولوا عليه

نفسى اشـوف دا إسمه إيه

مش تشوفنا يا معلم . . . ! » [١٦٧]

— ٣ —

يا معلم يا ناسينا ، اتوصّى بينا

زى أيام الكلام والطّبطبه [١٦٨]

اوعى تزعل منّى : دنا عيل يا ريّل [١٦٩]

لسه عندى كلام كتير أنا نفسى اقوله ،

إنما اللعبه دِى صعب .

بس قوللى ازاى «أقول» من «غير كلام» [١٧٠]

عايز اوصف فى مشاعرى وإحساساتى

واقعد اوصفها سنين

مش حا بَطَّـــل

خايف ابطّـــل

لو أبطّل وصف فى الاحساس حاحِسّ [١٧١]

وانا مش قد الـكلام ده

— ٤ —

والمعلم راح متربس .

أمه زنقنـه ! ! ! [١٧٢]

.. إنما بعيد عن شواربُه

مش مصاحبُه [١٧٣]

حا نزل ‌اتدبّر شئونى

وسط هيصة الناس حاضِيهم ،

لما اصيع ،

واتزنق بين النساوين والصبايا

واستخبى فى الملايا

كا الرضيع [١٧٤]

زنقة الستات ألذ

ما الحقيقه اللى تهز

بس ياخسارة مانيش راجل يسد [١٧٥]

والنسا حتاخدها جِدّ

لازم ارجعله ،

واخانقه .

— ٥ —

يا معلم ..

داهية تلعن يوم ما شفتك

يوم ما فكرت استريح جوّا خيمتك

يوم ما جيتك تانى بعد ما كنت سبتك [١٧٦]

يا معلم ..

إما انك تقبل الركاب كا همّا تمام

واللى حتى اتشعبطوا [١٧٧]

أو توقف ...

يا لأ صفّر

والعيال يتفركشوا .. ،

« هيه » ! !   [١٧٨]

العين التاسعة

نيجاتيف

— ١ —

والعيون دى رخره واضحه مصممة ؛

بالصراحة والشجاعة تقول بصدق :

راح اسيبكُمْ تحلموا

أنا من كتر الألم بطلت حلم [١٧٩]

صرت حلم

صرت نيجاتيف صورة مش متحمضه [١٨٠]

. . .

بكره حاتحمض فى أوده مظلمة

اسمها أودة العَمى

ليه بتيجوا تنوروها بالحقيقـة

حاكم النور — ما انت عارف — بوّظ التحميض ياعم [١٨١]

— ٢ —

« اقفل البابّ وانت خارج »

هوّ ادا شرط الحياه اللى احنا عايشنها النهاردة [١٨٢]

. . .

إما تحلم وانت قاعد فى المصارى

أو حوالين الشـــوالى

وسط ناس مغمى عليها .. من حلاوة الحـلم أوْ مِنْ

ظَبطْ معيارْ المزاج [١٨٣]

إما تحلم من هنا للصبح أوْ . . .

أو تصير الحـلم نفسه [١٨٤]

— ٣ —

ما هو مش ممـكن يا عالم غير كده !

لَمّا قالو « الحلم د كهه » مستحيل يبقى حقيقة

يبقى لازم الحقيقة تبقى حلم
زى نيجاتيف صورة مش متحمضه ،
حتى لو حمّضتها آهى برضه صورة
مش حقيقه !   [١٨٥]

— ٤ —

صبحك بالخير يا عمى أفلاطون
لمّا قلت إن السرير ، هوّا أصلُه مش سرير ،
دا بس صوره   [١٨٦]
والبنى آدم كان لتّام دهه
برضه صوره !!
بس وكفايه كده . .
هيّه سـوره ؟

العين العاشرة

الترعة سابت فى الغيطان !

— ١ —

والنظره دى رخزَه مجب

ماباشوفشى فيها إلا شىء كا الحنان [١٨٧]

لا لُه شروط ولا سبب .

وأقول لنفسى يا ترى :

هوّا حنان الدنيا ,كله اتجمّع الليه هنا ؟

عمال بيغمرنا كده من حساب

كا ترعه سابت فى الغيطانْ ،

إللى بطونها اتشققت

والميه بالراحة بتطفى فى « الشراق » [١٨٨]

من دون ولا ساقيه تنوح

ولا قادوس ولا شادوف .

الميه تغمر والحنان بيبشبش القلب الحزين

والقلب إللى مالوش حبيب

والقلب إللى من عمايل الناس بقى حتة خشب [١٨٩]

والقلب إللى اتهمطت دقاته أصبح مثل كوره (

مْنِ الشراب ،

تضربها رجلين العيال طول النهار

وانْ جت على أزاز ام هاشم يبقى يوم أزرق وطين

يالكوره تتشرمط ياإما إن العيال يتفركشوا

حتى إذا ازاز « ام هاشم » ما اتكسرشْ

مش صحت « الأسطى إمام » من غفلته

« واللى يصحى الناس ياناس أكبر غلط » ! [١٩٠]

— ٢ —

وارجع أشوف نهر الحنان

القاه بيطق فى الشراق بدون «أوان» [١٩١]

. . .

لكين الشراقى مهما شققها الجفاف ؛

الميه راح ترويها صُحْ ،

بس ياولدى خلّى بالكْ :

إن صابت الميّه على العمّال على البطّال حاتغرق أرضنا ،

حتى لو الأرض شراقى مشققه ،

ولاّ الزراعة بدون أصول ؟

مش لازم الأرض تجف وتتمزق

أو ضربة المحرات تشق الأرض تقلب تبرها [١٩٢]

والنظره إلى بتنُشر السكونْ بالحنانْ من غير حساب بتقول :

« حرام . »

ياناس حرام : أرض الشراق مشققة ـ

— جاهزه بلاش نجرح شعورها بالسلاح ... »

يا ناس يا هُوه

بقى دا كلام

بقى دا حنان ؟ [١٩٣]

« الزرع لازم يتروى » ؟!

أيوه صحيح ،

بس كان .. الزرع لازم يتزرع أوّل ،

ماذَا وإلا البذرة حاتنبِّتْ وبس . [١٩٤]

— ٣ —

يا ست ياصاحبةْ بُحور الحب والخير والحنان

إوعى يكون حبك دا خوف

إوعى يكون حبك دهه .« قلة مافيش »

إوعى يكون حبك طريقة للهرب من ماسكة المحرات

وصُحْيانك بطول الليل لَيِغْرق زرعنا [١٩٥]

. . .

. . .

من كُتْر ما انا عطشـــان با خاف أشرب كده

من غير حساب !

لـكن كمان :

مش قادرْ أقول لأَّه وانا نفسى فى ندْعِةْ مَيّه

من بحر الحنان !

يا هلْـترى :

أحسن أموت من العطش؟

ولاّ أموت من الغَرق ؟! [١٩٦]

العين الحداشر

فانوس ألوان ..

— ١ —

والنظره دى صادقـة ، ومحتاره ، وخايفه !

خايفه مالصدق وكتر الشوف المر

خايفه من بكره

عـاله بتقول :

« نفسى آجى معاكو . . . حتى ماشيه حافيه ،

بس شوك الأرض بيخرق عِنَيّه

نفسى اغمض

نفسى أعمى

بس برضه الشوك فى قلبى ،

حتى لو قلت الضلام ستر وغطا

أبـقى شايفه . . إنى عاميه » . [١٩٧]

والشك الشوك بيشــكشك :

« مش يمكن كل كلامكو الصح : مش صح ؟

مش يمكن أنا باعملّــكوا فخ ؟

مش يمــكن با كْدب

لاجْلَ أهْرب والعبْ . . ؟ » [١٩٨]

والحيره تلمع فى النظره ، والصدق يطل

الناس بتحاول تخفى الــكذب

إنمــا صاحبتنا بتخفى الصدق [١٩٩]

والــكذب حباله طويله

والصــدق مصيبته تقيله

وتلخبط كدبهْ على صدْقهْ عشان نتلْخبط ،

وتبلط [٢٠٠]

وانْ جهْ وَاحد شاوِرْ عقله يقرّبْ :

تحــرَن وترَفَّص

تضرب تِتمْلص

وتعاند زى العيِّل لما يزق البزْ ،

مع إنه جعان

وتمشّى كلامها عالقاضى وعالمليان

وتقول أنا مخّى مافيش زيُّه [٢٠١]

وتبص على اللى مافيش زيه :

وتلاق « يسقُط شر الناس

ويعيش الحب ،

وخلاص »

— إزاى ؟

— مش شغلى ! [٢٠٢]

والمركب عملت ألواحه من شجر العند

وبحور المرّ بتروى الشوك الصبر

ولا فيش مقداف ولا دفّه

والبُكْرَه بعيد [٢٠٣]

— ٣ —

والطفل الحلم يقول : [٢٠٤]

رمضان اهُوجىْ ، وحا قول وَحَوِى

واستَنّى الفجر

وليالِ عشر

وراح افتح طاقة القـدر

وأطَلّع منها فانوس ألوان

بس كبير خالص

قـد الدنيا بحالها [٢٠٥]

والآقينى قاعده ف وسط عيالى

وعيالى كتار ، وكبار

يبقى حلِّيتْها يا حَلُـلِّى

لا انا سبت عيالى ،

ولا سبت الناس [٢٠٦]

— ٤ —

وأبص بشكْ ، وأحاول أصدّق

وتبص بعند ، وتقول أنا قدك . [٢٠٧]

الطفل اللى جواىَ يقول « أنا مالى ،

مش يمـكن ! »

والشيخ اللى ب‍اىَ يقول : « لا ياعم

مش ممـكن » [٢٠٨]

وتبص

وأبص

وأشوف طاقة القدر فْ عينها

من غير فوانيس

ولا ناس [٢٠٩]

وبدال ما النور بينور طاقة القدر ،

النـــار بتلهلب [٢١٠]

إنمـــا جواها :

فيـــه بكره

أو يمـــكن .

— . . . مش يمـــكن ؟ [٢١١]

العين الثالثة

البيت المسحور

والعيون دى بحورها تحيَّر

طبقات طبقات ،

زى البيت المْهجور ، إلمْسحور [٢١٢]

كل ما تِفْتح باب وتقول دا خلاص ،

يظهر لك باب سحرى تانى

ونْتُوه . [٢١٣]

والباب الأَخرانى ما حدش عارف جواه إيه

حانلاقى قلب نضيف ومزهز وصغير وبرئ ،

زى قلب الحسه

ولاّحنلاقى نقاية مشمش مافيهاش ريحة الروح

واذا حتى اتكسرت

مرارتها صعب ؟ [٢١٤]

— ١ —

ولقيت فى الأول صورة البومة

بتبصْ ، وتبحلقْ :

وتقول جرى إيه ؟

بتبصولى ليه ؟

أنا مالى ؟ حوَالىّ خراب ؟

دا خرابكُمْ إنتم [٢١٥]

دانا كتَّر خيرى ؛

عماله بازَعق وأقول :

« فيه لسه حياة .. حتى فى خرابه » [٢١٦]

وبدال ما تفوقوا وتِتّعظُوا

تتشـــاوموا

تسكونوش عايزينْها ؛ تخرب فى السر ؟ [٢١٧]
وعشان كِدَهُهْ ،
رايحين جايين تتلهوا :
إشِى سيما ، واشِى مرسح ،
واشى شاشه بتطفى لوحديها زى البنآدمين لِيَّامْ دى ؛
توموتيكى ! [٢١٨]
وِأقرّبْ أكتر مِالصُّوره ،
وأبص فْ عين البومه
واستغرَبْ !
يا خـــــرابى !!!
يِتهيأ لى عينها أزاز [٢١٩]
آجى أتأكـد وأحسس :
وألاقى العين مش عين ، دِى زْرَارْ ،

وأجرّب أزقّه : تتحرك كُلّ الصوره

والباب السحرى ينبان

وأخُشّ الأُوده التانيـه [٢٢٠]

— ٢ —

ودى صورة مين ؟

عمره كام دهـــر ؟

مركون على عصا بيفكر

والجان تُبّاعُه ، والإنس كان ،

وعنيه بتشع الحكمة [٢٢١]

فاكرين القصة : ؟

« مين أنقذ طفل الأم

من طمع الست التانيه ؟ [٢٢٢]

— سيدنا سليمان !

أهو هوّ بعينه

وعيال ليّام دى غلابه

لا فى عصا ترحمهم ولا حكمة

من مس الجان - [٢٢٣]

والجان أيامنا

لابسين جلد الإنسان [٢٢٤]

ولا عاد يهم الواحد منهم سورة « الكرسى »

ولا سورة « الناس » [٢٢٥]

والحكمة ما ماتت من مدّه

ما فاضلشى إلا الحكمة المودَهْ ،

تِلقَاهَا مَلفُوفهْ ، حوالين حِتّةْ شكولاتهْ ،

جوّا الصالونات [٢٢٦]

— إلحقنا يا سيدنا سليمان

— ألحقكو ازاىْ ؟ انت اهبلْ ؟ ولاّ بتستهبِل ؟

دانا صوره [٢٢٧]

وأبُص كويس جوّا عنين الصوره

وألاقى نملة بتزحف فى بياضها

والنمل اصْحابُه من مدّه ،

بيِتحَكوا لْبعض ، ويقولوا أسرار [٢٢٨]

إنما كات عينه المرّادى مليانه ألم :

— إعمل معروف شيل النملة دى بتقرصنى

دْاا صورهْ ، دَانَا ميِّتْ [٢٢٩]

وِعَصاتى السوسْ بهدلها

حانكِفِى على وشّى تَوْمَا تبقى دقيق [٢٣٠]

والجان الإنسانَ حيقيم أفراحه

في الحمارة وف حارة السدّ [٢٣١]

إعمل معروف شيل النملة . . . .

وِأقرّبْ . .

وِأحاول اشِيلها

أتاريها التانية زرار [٢٣٢]

والبـــاب السحرى يزيّق ، وأخش ،

على فـين ؟

مش عارف !

— ٣ —

هوّا انــتِ ؟

بالبسمة الماديه المسحورهْ ،

والعين اللى بتجرى وراك بحنانها

وبتندهلك ماطرح ماتروح

هوّا انتى

موناليزا الطاهرة الفاجره ؟ [٢٣٣]

وأبص لْهـا :

يتهيأ لى إن الواحد حصّل بحر الأمن ،

والخير ، ورِضَا الرحمـان !

الواحد عايز إيه غير بسمة حبْ ،

وِحَنانْ ،

والصدق الدافِى وْكُلّ الطيبَهْ يْلِفّونى

وكإن الشر عمرُه ما كان

وكإن البسمه الصادقة تْدَوِّبْ أيها حقد

وأيُّها خوف [٢٣٤]

لـكن بالذمة ؟ دا كفايه ؟

هوا احنا حنمشى بالبركة وكإن الصوره حقيقه ؟

يا أخيفـــا : [٢٣٥]

مين المسئول عن بعضينا ؟

عن أكل العيش ؟

عن قتيل الغـــــدر ؟

عن طفل عايزْ يِترَبّى وِسْط الْمَكَن ،

القِرْشْ الدّوْشَه الدّمْ الْمُوْتْ ؟

عن جوع الناس ؟ [٢٣٦]

عن بيع الشرف الأَمل الْبُكْرَه :

امبارح [٢٣٧]

وأبص لها تانى واقول :

بالذمه بتضحكى على إيه ؟

دى البسمة الحلوة الرايقة المليانه حنان . . وخلاص ،

يمكن تبقى مصيبه الأيام دى !

حا تخلى الواحد يتهيأ له إن الدنيا بخير ،

وينامْ ، يحلم بالجنهْ ... ،

وِخَلاص !

وعشان أبعد تأثيرها :

قهقهت كما بتوع الحتّه ،

فى المولد

بصيت للصـــورهْ ،

طَلّعت لسانى :

تـكشيره امّال ..

.. كدهه !

تبويزه امّال ..

.. كدهه ! »

وتغيظنى ولا تبوزش

وأنا أعمل عقلى بعقليها من كتر الغيظ

وأمِدّ أدِىَّ على خدودها وأزق لفوق :

« بلا نيلاَ بتِضحكى على إيه ؟ »

وأزق خدُودْها كمان مرّه .. [٢٣٨]

يا خـــرابى !!

الصوره دى رخرَه بتتحرك ، وبيفتح باب

— ٤ —

الشاب وسيم وحليوَه ..

واقف منطور

وفْ إيده عصاته

والوش برئ ربانى

[٢٣٩] واسمه « دوريان »

هوّا انتى الصوره اياها

ودا صاحبك إللى اتمنى ف يوم يخدعنا ؟

قال نِفسِى أفضل زى مَا انَا . .

ما يبانش علىّ آثار السن

ولا ختم الشر

ولا صوت لضمير

وان كان لازم تتسجل كل حياتى

أنا حاعمل صورة يبان فيها التغيير

وكإنها صورة الحق الجوّانى البشِع العريان [٢٤٠]

إنما دى الصورة حليوه

أنا لازمَ اقْلبها وَأشُوف السر

ومسكت بطرف البرواز ، وحاولت أشيله

يا خــــبر !!

الباب اتحرك ،

جرى إيه ؟

دا مفيش ورا آخر بابْ ،

ولا أوده ولا بواب

أنا دُخت [٢٤١]

— ٥ —

الاَقيلك بحر التيه ، من تحت البحر الميت ،

والطفلة الغلبانة تشَقّلْ ، ولاَ حد شايفها [٢٤٢]

والمية ميــــة نار

والجلد صدَفْ ومحار

لا هِيّ قادره تحس [٢٤٣]

ولا راضيَةْ تموت [٢٤٤]

يا ترى يا جماعه الطفله دهِْ صورة دوريان

ولا أنا غلطان ؟ [٢٤٥]

أنا نفسى أطلع غلطانْ ،

أحسن ما أشوفْ :

طفل بْيتشوّهْ ،

من كتر الخوفْ ،

وسط العميانْ . [٢٤٦]

العين التلاتاشر

الزيـــــــر

— ١ —

وعيونه الرايقه الهـــاديه ،

بتطّـــمّن ؟ !

بس أنا مش قادر اتطمّن ، [٢٤٧]

أصله بعيد عن بعضه قوى ! ! [٢٤٨]

شايف حاجتين بقليـله

إشى جوّه قوى .. قوى خالص

واشى بره قوى .. قوى خالص

والهو بناتهم بيخوف

طب بس ازاى أنا أتطمن ؟ [٢٤٩]

— ٢ —

نظراته تمدّ

وشكاتُه يخض

وخسابُه يعد [٢٥٠]

ويبَقلل لما بيضحك

وبيضحك لما يسكت

وبيسكت لما بيحس [٢٥١]

راكن على سور التراسينه

كما زير نخار شكله مزوّق

والعطشان منا يروح جنبه

يمكن يشرب [٢٥٢]

وارجع وأشُك ف تشهينته

ما يكونشى الزير دا منحّس ؟
وَلاَ هَوَا يلْطُشُه ولا يِبْرد
ولا بِيطْرَّى عالْقَلْب [٢٥٣]
ما نا كلّ ما اجرّب أميِّلُه حبه يسكور ،
وينْقلـــل
والميّه لمّا بتنزلْ ـ إذا نزلتْ ـ بتطرطشْ ،
وتغرّق وشِّى قبل ما توصل زورى ،
إذا وصلت خالص . [٢٥٤]
وأحاول أخـــرُم حلقُه
أوَا صَنْفَر جـــلْدُهْ [٢٥٥]
وصاحبنا يِزَرْجن ويقوللى :
أنا حا تصنفر من جوّه
ينفتخ نفسه ويبعجر

وأخاف يِتفجّـــر

ربك يســـتر [٢٥٦]

ويحـــاول ..

وأحـــاول ..

وأبحلق جوّا عْنِيه

وألاَقى الهوّ بِيْصفر

ويقرب حبه من نفسه

ويقرب بعضه على بعضه [٢٥٧]

واسمع لك قَرْشْ سنانه

وعنيه بتطق شَرار

وِصْداغه بتُنْفخ نار

. . .

لا يا عـــم

مالعاش غير إننا نمشي ، ونمشي ، ونمشي

وما دام ما احنَاش حا نبطّــل

يبقى لم بُدّْ حا نوصل [٢٥٨]

* *

أمو كده يمكن أتطمّن

وصاحبنا كان يتطمّن ! !

. . .

ياحلاوة المشى الجد !

حتى لو معناش حد ! ! [٢٥٩]

. . .

العين الأربعتاشر

دراكيولا

وعيون جوّا عيون بتقول :

حاسب عندك . [٢٦١]

إوعى كمّنك عطشان تعمى وتاخد منى ،

أنا مش عندى إلا الموت

باشترى بيه الناس وباسميه « حب »

والناس عايزه تحب تموت

أيوه تموت

جوّا بطن الحوت [٢٦٢]

والبوسة بتشاب دم

والحضن مغاره ملانه البنج السحر السم

وبدال ما الزهره الطفل تنبت جوّه الوردة القلب

بنْبيع بعضينا لبعْض ،

والقبضْ عدَمْ ، [٢٦٣]

ولا فيشْ معجزه حا تْطَلّع يونس زمان ،

ولا فيش برهان ،

ولا فيش رحمان ، [٢٦٤]

. . .

. . .

إوعَـك منى ..

. . . لو بتحب صحيح ما تصحصح

لو تتأمل حبه حا تعرف ،

لو ما تخافش الموت حا تشوفنى إنى الموت

وِبا مُصّ الدّمْ [٢٦٥]

لـكنِ الدم المالح ينزل يهرى فْ جوفى

ويخليني أعطش أكتر

ولا يرويني إلا الدم

ولا يرويني الدم [٢٦٦]

ولا يرويني إلا أشوفك ميّت زيّ

وارمى مصاصتك [٢٦٧]

وارجع أشكى وأبكى وأحكى ،

« نفس القصة » [٢٦٨]

• • •

لو ما تخافشي الموت : موتني ،

موت موتي

لو بتحب الدنيا صحيح ، إوعى تسيبنى لنفسى [٢٦٩]

بس الموت جوّاك بيقوللى : إوعك تصحى [٢٧٠]

— ٢ —

أيوه صحيح أنا جيتكو لوحدى !

جيتكم ليه ؟

أخفى جريمتى ؟

جيت أتعلم : لمّا أمص الدم ما بانشى ؟

ما يطرطشّى ؟

جيتكو أموت وسطيكم يعنى . .

وِانْسِى با حاول ؟

ولا اسلِّشى ؟ [٢٧١]

— ٣ —

إنما باظت منى اللعبه ، [٢٧٢]

ولا كنت اعرف . .

ولا كنت اعرف إن الناس الحلوه كتار [٢٧٣]

ولا كنت اعرف إن ضباع الرِّجْل الْحَىّ

أقوى كتير من مليون ميت [٢٧٤]

آه يا خساره فقستوا اللعبه

وانا فرحانه ،

وْخايفــه ،

وْعايزه ،

وْرافضــهْ ،

نوركم جامد يعمى عنيَّه

زى فراشه تحب النـور ،

تجرى عليهْ ، وتحوم حواليـهْ

وتموت فيـهْ ،

ترقص قبل ما تطلع روحها ،

«آه يا حلاوه النور موِّتنى» [٢٧٥]

. . . .

هوّا النور بيموِّت برضه إلا الضلمه ؟ [٢٧٦]

بعدَهَا نور الفجر بْيِشْرِقْ من جوَّاى

. . . .

— ٤ —

بس أنا خايفه

أصلى ضعيفة وطفلة وحدى وباجى ف حجر

الناس واتلخبط [٢٧٧]

لأ حاسنى .. أصل انا خايفـه

لأ مش طالعه [٢٧٨]

يمكن دِكهه تمثل دورى :
تختفى تحت الجلد
أوْ وَرَا ضحكه
أو بتتصرف زى الناصحة
تعرض فكره [٢٧٩]
يمكن تنســـوا
وانت تعوزها تانى « فى السر » [٢٨٠]

— ٥ —

دِكهَهْ تقول : [٢٨١]
بكره حتحتـاج موتى يا موت
ونموت جَمَعاً !
بكره تحا تِحْتاج تخفى جريمتك
جــوّا جريمتى [٢٨٢]

آه فين بكره

آه من بكره [٢٨٣]

بكره بتاع الناس بينـوَّر

بكره بتاعى وحش يعوَّر

عمرُه قصير [٢٨٤]

شمس الحق اللى فى عنيـكم تقتل ليلى اللى اسمه بكره

قبل ما يطلع [٢٨٥]

حالحق نفسى واخطف روحك

قبل ما تصحى

حاكِم الجوع بيخليك تسهى . [٢٨٦]

. . .

ـكن استنَّى :

هوّا انا ممكن أقتل إلا اللى اختار قتله ؟

تبقى جريمة عاملها اتنين

كل جريمة عاملها اتنين

ذنب المقتول زى القاتل ،

أصله استسلم [٢٨٧]

. . . .

وَانا حذّرْتُه وقلتلُهْ حاسب ،

إوعك تِعمَى

إوعى تعوزنى زى مَا انا ،

إوعَى لاموتك يِخْليلِى موتى

أنا نَبِّهْتَكْ . . إوْعَكْ تِنسى [٢٨٨]

لو مالاقيش الموت حوالىَّ

حاموّت موتى [٢٨٩]

أصل هناك جوّاى بعيد طفله تقول :

— أنا صاحيالك

إنتى تموتى تروحى ف داهيه، أناما باموتشى [٢٩٠]

أنا باستنى اللحظة دهيّه ، علشان أطلع

أنا جايبا كى هنا برجليكى.. علشان أشبع

من ورا ضهرك [٢٩١]

بعد شويه أجرى وابرطع

غصـــــــبن عنك

غصـــــــبن عنّه [٢٩٢]

أنا طول عمرى واقفة استنى اللحظه دهيّه

لحظة كل شواهد القبر تزرّع خضره [٢٩٣]

لحظة كل الناس الحلوَه تموِّت موتى

لحظْ طفلَه صَغَيَّرَهْ ثايْرَهْ

تقدر تقتل .

تقتل وحشِ يمص الدمْ

لحظة لما الله جوّاىَ يقول للشىء :

كُنْ . . فيكون !! [٢٩٤]

. . .

اللحن الخمستاشر

يا تــــــرى !

أنا مانسيتكيش

أنا خليتك للآخر

* * *

أصل عيونها صعب

أصلها يا خوْ انّا ساعات وساعات

ساعه تعرف سر الدنيا فْ كنكة قهوه

وساعةْ ما تخاف ، تعمى وتموت [٢٩٥]

والعدسة بتاعتى اللى بتكبّر

تيجى لحدّيها وتصغّر

وتدغْوِش [٢٩٦]

اشمعنى ؟

لكنى باشوفها لنفسى ، مش ليّها ، [٢٩٧]

لأ والأدهى

مش بس باشوفها زى ما عايز

.. دى بتبقى تمام زى الشوفان : [٢٩٨]

لو اشوفها تخاف ، . . . أتلخبط

إ كنِّى نفسى أخاف على حس راحتها

حضرتها تخـبِّى خُوفْها

وتْخاف ما الخوف [٢٩٩]

واذا شفت عيونها تبص بصدق جوَّاىَ ،

أتهــز

علشان راح تعرف ضعفى ؛

راح تتصعّب أو تتفرج !

ودا يبقى لزومُه إيه ؟ ؟ [٣٠٠]

على طول أرفض شوفانها

بعــديها :

تِمِى بنواضيرها [٣٠١]

وانا أعمل إيه ؟

أنا قلت أشوفها فْ عين الناس

وأتارى الناس بتشوفها بعيونى ، [٣٠٢]

يا خــــــبر !!

واقعد فى الآخر واحتار

وابص فْ عينها من تانى :

يا ترى دا الخير اللى يطمن

يا ترى دالخوف اللى يجنن

يا ترى دالحب اللى يوَزْوِن [٣٠٣]

. . .

يا ترى حانكمل ؟

ما هولازم . .

كلنا حانْكمل [٣٠٤]

العين العاشر

المعلم

— ١ —

طب والمعـــلم ؟

له عيون كما العيون ؟

بِتقول كلام هوّا الـكلام ؟

ولاّ كلام غير الـكلام ؟ [٣٠٥]

* * *

شيخ الطريقة قاعدْ لى كما قاضى الزمانْ

بِيقسّم الأرزاق ويمنح صك غفران الذنوب

وكان مشـكلة الوجود

ما لْمــاش وجود

إلا حَـــــدَاه [٣٠٦]

عامل سبيل اسمه « الحيـــاه » :

« قال دا يعيش ،

ودى تمـوت ،

ودا مالوش إلا كده »

قاعد يصنف فى البشر حسب المزاج : [٣٠٧]

لازم تعدى عالصراط

واللى بيشبه حضرته يديه قيراط ،

فى جنته [٣٠٨]

واللى يخالف هوه حر

يكتب على قبره ما شاء

ميت صحيح ،

لكنه حر فى تربته [٣٠٩]

وان قلنا ليه يا عمنا ؟

بيقول كما قاضى الزمان :

ما قْدِرشى يمشى عالصراط ويكون « كَمَثل »

ونقوله : مثلك يعنى إيه ؟

يسكت . . . يِتوه

يِسرح . . . يِقف !

وعنيه تِقول . . كلام كتير !! [٣١٠]

— ٢ —

بتقول عنيه :

يا هلترى عمال باشوف الناس عشان أهرب

ما شوفشى مين أنا ؟ [٣١١]

ولا باشوفنى الناس ؟ [٣١٢]

نفسى أشوفنى من بعيد [٣١٣]

من تحت جلدِى [٣١٤]

من وسط قضبان الحديد [٣١٥]

من غير كلام ولا سلام [٣١٦]

نِفسى أشـــوفنى :

أقلب عيونى ولاّ ابص فى المرايه ؟

. . .

أنا لَوْ أبص فى المرايه حَاشُوف « خيال »

إيدُه اليمين إيدى الشمال

وَاقِف بِعيد وَرَا الإزاز [٣١٧]

وَاجِى أقرب للمراية التقى برْد الجمادْ [٣١٨]

وِشِّى يِبطط ، والنفس بِيغطى تقاسيمه

كا جبل السحاب قُدام قمر مظلم حزين [٣١٩]

. . .

وَامّا قلبت عيونى جوّه عميت

وحاولتَ ابُص

حاولتْ أقْرا فى الضَّلام ،

ما لَقيت كلام [٣٢٠]

. . . .

ورْجعت أبصلكم هناك

فى عيونكم انتم [٣٢١]

أنا أبقى مين ؟

وألاقى صورتى زى ما انتم محتاجين : [٣٢٢]

اللى شايفنى كما النبى [٣٢٣]

واللى شايفنى ربنا [٣٢٤]

واللى شايفنى وَادْ مرقّع أو حدق [٣٢٥]

واللى شايفنى قِفل مقفول من سنين [٣٢٦]

واللى شايفنى حرامى أصلى مُعتبر [٣٢٧]

يمكن أكون أنا كل ده

لكنى أبداً مش كده [٣٢٨]

شوفوا كويس يا جماعه : [٣٢٩]

واحد يقول : خايف أشوفك لسه حبّه

والتانية بتقول : يا حرام !! طب حبّه حبّه

والتالت المسطول لوالكُرْباج يطرقع جوّا مُخُّه

يشوف دقيقة ،

بس فينُه مِنِ الحقيقة

والرابع اللى خوفه عازله جوّا سجن المزّه

أو جبل الجيوشى

الودْ دِه يشوف ضلام القبر ،

ولا إنه يدوق الصبر ،
الصبر مرّ ، والشوف يضر
دَانا مين يشوفنى ؟
ا أبقى مين؟ [٣٣٠]

— ٣ —

... وساعات أبص لإيدي وانا بالعب ببيضتين والحجر
أو لما باقلب فى التِلات ورقات واخبّى فى الولد
وأقول يا ناس .
بقى دول إيدَىَّ اللى بصحيح ؟
بقى ده أنا ؟ [٣٣١]

. . .

. . .

وساعات أشوفنى حكيم وعمرى ألف ،
شايف تمام عارف تمام .
كل اللى راح ، واللى احنا فيه ، واللى حايجى
بدون أوان [٣٣٢]

. . . .

. . . .

وساعات أشوفنى أبويا صُح
بس الزيادة إنى لابس بدلَه وارطُن باللِّسان
وأقول كلام :
قال إيه اصالح البشر وللتاريخ
لكنه الله يرحمه ،
كان يعبد اللوزة وطين الأرض والوزد الطويل ،

مزيكته كانت مكنة الرى تغنى تحت جمّيزه كبيرة مْضلِّلة ،
واسأل فى نفسى
أنهو اللى أصلح للتساريخ ؟
الكلمه ، والحب السعيد فى أوده ضلمة متعسكشه ؟
أو لوزه حلوه مفتحه ؟ ؟ [٣٣٣]

. . . .

. . . .

وساعات أشوفنى طفل .. طفل ..
إنتو نسيتوه
وَاهْلُهْ سابوه
ولاَ هُوَّا قادر يبقى أبوه
ولا انتو قادرين تلحقوه
يا ناس يا هُــــوه
يا تلحقوه ... ، يا تموّتوه [٣٣٤]

وساعات أشوفنى وحش كاسرْ

إللِّى يخالف أدبحُهْ من غير فصال

ولا أقبل المنطق ولا أقبل جدال

وأشك فى النسمه ، وفى الورده ، وفِى

الطِّفْــل الرضيـعْ ،

لو ميّلوا كِـده أو كِـده ،

أحسن يكونوا بيعملوا خطة متينة محـكمة ضد « الحياه » !!

قال يعنى ضدى ..

مايْـكونشى انا هوّا «الحياه» ؟! [٣٣٥]

. . .

وكتير أشوفنى كل ده ! [٣٣٦]

. . .

لـكن هناك جوّا قوى فرق بسيط

يفرق كتير

يمكن يكون سر الوجود [٣٣٧]

واتمنى يوم قبل ما اموت

ييجى حد منكم

— بس بيحب الحياة أكتر ما انا باحبها —

وِيبُصّ فْ عيونى قوى :

ويقُولِّى « مين »

أَنا أبقى مين ؟

• • •

والفرق دَه .. فرق بصحيح ..

ولاّ كلام ؟!!؟ [٣٣٨]

* * *

الفصل الثالث

لعبة الحيـاة

« غِنِّيـــــــوْتين »

« أغنية الحياة كما تظهر فى محـاولة
التـكامل النفسى رغم الصعـوبات
والألم والوحـدة واحتمال المرض ؛
هى نغم التلقائية والمسئولية والعمل
المتصل بالنـاس للناس » .

مقدمة

الحياة غنوةْ عمل حى يا ناس

لا هى كلام

ولا حلم ليلة صيف ،

ولا إحساس بكركم متل قُلّهْ مايله تِدْلَقْ

ميّةْ الحاياة فى صحرا مولّعة . .

لا الزرع يِطلع فيها ولا نارها فى يوم راح تنطِفِى [٣٣٩]

• • •

الحياة الحلوة . . . حلوه

حتى لو مُرّه وتتأمل شويه ،

راح تشوف مرارتها حلوه !

هيّه صعبَهْ .. لو لِوَحْدك

بس تسهل لو معانا النـاس يا ناس

صدقُونى [٣٤٠]

الغنيـوة الأولانية

جمل المحامل [٣٤١]

— ١ —

— لأ .. عندك !!

= ليـــــه ؟

— ممنـوع دَهْ

= إيـه ؟

— ممنوع كُلُّهْ !

= طب واعمل إيه ؟

— زى ما دايماً كنت بتعمل ..

قرنك جامِدْ : خلّيك شايِلْ [٣٤٢]

= لأ مش لاعب .. جرى إيه ؟ .. الله !!

— إعْقل يابا .. قلنا ممنوع

ممنوع تغضب ، تزعل ، تهمد ، تسكت ،

تحلم ، تسرح ، .. ممنوع كله .

= وِلإمتى يا ناس ؟

— بكرَه انشا الله ..

= بقى كدا ؟ .. « بكره » ؟

ما هو بكرهْ ، لُه بعدِ بكره ..

فيــه إيه بكره ؟ [٣٤٣]

— بكره حانسمح لك تِتْــكلم

بكره حانسمح لك تتــألم

بكره حا تجنى ثمرة كدّك

لما نِــكبر نِبقى قدّك !

= وانا مالى قد .. ومالى حد

خايف لاتكون الحاره سد [٣٤٤]

والصبر مَرار !

وانا مش رافض أشرب كاسه

على شرط يكون للكاس دَا قرار

واستحمل طول الليل غُلْبِي

على شرط الليل ييجى بعدُه نهار

والصحرا بنِزْرع فيها الصبر

تطرح حرمان

نِسْقِيه من طولةِ البال

وبنِخْدى كلام ونقول موال :

« جمل المحامل بِزِك شِنْنِتْ لاَعادى فيه »

— جمل المحامل لابنِشْكى .. ولا بيقول آه

= ليه يعنى ؟   ما هو نفسه يعيش زى العايشين

— ما هو عايش . .

بيشيل ويشيل ويشيل ويشيل .. ،

وِخلاص !

إيش يفهم في الغنوه الأطرش

إيش يفهم فى الصوره الأعمى

إيش يفهم محروم من يومه

فى الحنّيه .. والذى منه

قالوا فى الأمثال :

« إطعم مطعوم ، أنا المحروم :

يستحمـــــــــــل » [٣٤٥]

= يستحمل تانى يا ناس ؟

دَا حـرام !

— ما خلاص هانت

= لأ ماهانيش .. إيش عرّفني ؟

مش يمكن لعبةْ « إستني » تفضل على طول ؟

عَلَى مَا يِحَصّلني الدور حاخلَصْ ، [٣٤٦]

القلب مقدد

والجرح ممدد

في الأرض الشوك

والميّهْ عصير صبّار

— ما تسكركبهاش ؛ على مهلَك

و « سعيده » وحابْـقَى انْدَهْلَكْ !!!

— ٢ —

وشهور ويّامْ وانا باستنى

شلتها على قرني وباتمنى

وبنيت قَصْرِي .. سكّنْتُه الناس [٣٤٧]

وراح اعملها :

لو حتى الليل طال ست شهور

والتاج اتجمع فوق قلبى

والطفل اتجمد ما السقعه [٣٤٨]

والدم اتوقف فى عروقى

والنهر بقى صخر بْيلمع

والوادى بقى صحرا بتلسع

والبنى آدمين بقوا مش هم

انا حاعملها ..

بوحـــدى ؟ ..

وَحدى .. وِفْ وِسط الناس [٣٤٩]

والحب حيرجع من تانى
يزرع فى قلوب المحرومين
بذرة حاترعرع من تانى
تطرح شجره لما ضل كبير
والبقره حا تحلب من تانى
والشمس حا تطلع يوم تانى
والمطره حتنزل تروينا
والدنيا حتتملى حب ونور
— إبقى قابلنى !!
= وطلعت أدب ، قابلت الدب
سرقت الرد ، قتلت الغول .

. . .

دى العيشة حلوه !!
يا حلاوة الناس ،
يا حلاوتى . . .

الغفوة الثانية

الخـــلاص

— ١ —

— ليه يامّـه ؟ كان ليه ؟

لما انتى ما « نتيش » كان ليه ؟ [٣٥٠]

أنا ذنبي إيه ؟

أنا مين ؟ أنا فين ؟ أنا كام يامّه ؟

أنا إيـــه ؟

= جرى إيه يا ابنى يا حبة عينى ،

طب ما انت أهه !

بقى دا اسمه كلام

ما هو كله تمـــام

جرى إيه !

يا جــــدع يا أمير يا اللي بتدِّى
أوعى تْهَدِّى
تَنَّــكْ إدِّى
بكره تْعَدِّى
يا ســلام يا ولَدْ
ما فى زيك حـد
ماتفــكَّرشى ، دا الفــكر مرار
ودا بــير يا بى وما لوهشى قــرار
— بسّ يامّــه لو قلتى ليــــه ؟
كان ليه ؟
= جرى إيه ؟ فيه إيه ؟ (كان ليه ؟
كان لية ؟) دِهْدِى !
هيّادى « عامْلَهْ » !

ولاّ أنا قصدى ؟

دِهْــــدِىْ !!

— ٢ —

— علشان يامّه مش على بالِكْ

أنا حاحـكيلِكْ :

أنا زرع شـطانى

ولا حدّ فْ يوم جه ورّانى

ولا شفت ازاى أو كام أو مين

ولا حد عرف أنا باعمل إيه

أو ليـه أو فين

لـكنى لما بقيت « هـوّه »

قالوا : يا ســـــلام

دا شبهه تمام

ما احنا عارفين كِده مِا لأْول

وبنخزى العين [٣٥١]

= دا صحيح يا بنى :

أنا كنت خايفه عليك مالعين

الناس دُول شر

ما وَرَاهم يا بنى إلا القرّ

هوّا انا كان قصدى يا ضناىَ

يا حبة عينى ؟! [٣٥٢]

ماتفكرشى دا الفكر مرار

ودا يبرّ يا بنى وما لوهشى قرار

— يا ريت يامّه كان فكر وبس

دى حاجات من جوّه وبتتحسّ

ياما نفسى يامّه اصرخ واتفَش

« جوّا يا » يامّا ما بيرحمش

ولا ليّه يامه فيها ذنب [٣٥٣]

ولا قادر اختار :

ياتليّس يامه ولاشوفشى [٣٥٤]

يارجع مالأول وأدوّر

واحبل واولد

نَفْسِى مالأول وجديد [٣٥٥]

وابدى وأعيد

واتألم واصرخ من تانى لو حَدّ سِمِع

واشرب من شهد الحِنِّيه

من وش سمح [٣٥٦]

= وانْ ماحصلشى [٣٥٧]

– حايكون أهون من دا اللى حصل ،

يعنى عاجْبِك؟ [٣٥٨]

= والله يا ابنى مانى فاهمه

يمكن عاميه ،

دى الدنيا ضلام

والناس الشر . .

لم يبطل يوم فى لسانهم قر ،

ياكلوك يا ابنى لحمه طريه

ويقولوا « يا روحى عليه كان زين »

ليه يا ابنى كده ؟

بتعرض نفسك لِنيابهم

ياكلوك يا ابنى

ويغمسوا بىّ ورحمة ابوك [٣٠٩]

— ٤ —

— لأ . . ياختى مانيش خايف منهم

أنا مِسْتَبيَـع

الدنيا بخير ، وَانا مستبيع

أنا حابقى أبويا وأمى كمان

أنا حابقى كتير

أنا حابقى الناس

أنا حابقى الحب

أنا حابقى « أنا » [٣٦٠]

إزاى ؟

ما اعرفْشْ [٣٦١]

أنا لازم « أكون » و « أعيش »

غصبن عنهم

غصبِن عنى

غصبِن عنِّك [٣٦٢]

= غصبِنْ عنى ؟!

وانا بدّى أشوفك سيد الكل ،

بس . .

— ما بتّش ، . . . ولا سيد الكل ولا ديلهم

أنا حاخد حقى من عينهم [٣٦٣]

من بسمة طفل

أَو حنّيّةْ خالتى أُم الخير بياعة الفجل

أُو عم على واقف يضحك وَرَا قدرة فول

أو حتى نِهيق جحش العمده

أو من همسة ورقةْ ورده

من أيُّها حاجة اسمها عايشه

بِتقُول أنا اهُـهْ

أنا فيَّـه حياه

حاشعر بالنبضة وبالرعشة من أى كلام ،

وحاعيش ! [٣٦٤]

= والله يا بنى محتاره معاك .

ما تعيش

مين حايشَكْ بس ؟

— ٥ —

وضحكت عليكو وعشت أهه

أنا اهه . . أنا اهه

أنا اهه دلوقتى الآن حالا

أنا اهه [٣٦٥]

إزاى دا حصل ؟

أنا ما اعرفشى

أنا اهه وخلاص

وباغَنّي مع نفسي بنفسي

ولاَقِيتْلِي خلاص

ولاقيت الحب وكل الناس [٣٦٦]

— ٦ —

ما تصدقشي إن الواحد لازم يعرف أصله وفصله

ما تصدقِشي [٣٦٧]

ما تصدقِشي إن الدنيا راح منها الخير

ما تصدقِشي

ولا إن الناس دول شر

ولا إن كلامهم قر

ولا إن البير دا ما لوهشِي قرار

ما تصدقشي [٣٦٨]

ما تقولشى « لو » .. وما تندمشى [٣٦٩]

ما تقولشى « بكره » ما ينفعشى [٣٧٠]

ما تقولشى « همّ » ما تهربشى [٣٧١]

ما تقولشى « ما خدتش » إدونى [٣٧٢]

ما تقـولشى « ما شفتش » وَرُّونى [٣٧٣]

عايــــــز ؟

دوَّرْ وِاتْخـانق

وساعتها حاتلقى الحب

وحا تعرف معنى لأى كلام [٣٧٤]

و « تــكون »

و « تعيش »

وتغنى الغنوة الحلوه

« إيه ؟! »

ما انت عارفها ،

طب بص :

تلقاها جواك [٣٧٥]

خاتمة

توتا .. توتا

— ١ —

يا طير يا طاير فى السما . . .

رايح بلاد الغُرب ليه ؟

إوعك يكون زهقك عماك

عن مصرنا

عن عصرنا [٣٧٦]

تفضل تلف تلف .. كما نورس حزين

حتحط فين .. والوَجْد بيشدك لفوق

الفوق فضا

الفوق قضا

وِعنيك تشعلق كل مَادَى وتنسى طين الأرض مصر

دانا لما بابص جوّا عيون الناس

الناس من أيها جنس

بالاَقيها فْ كل بلاد الله لخلق الله

وِفْ كل كلام .. وف كل سكات

واذا شفت الألم، الحب ، الرفض ، الحزن الفرحه

في عيونهم ..

يبقى باشوف مصر

وباشوفها أكتر لمّا بابص جُوّاىَ

والناس الحلوين اللى عملوا حاجات للناس

كانوا مصريين !!

موسى مصرى

عيسى مصرى وْ بوذا وغاندى وكونفوشيوس

ونبينا محمدْ ، كانوا مصريين

وانْ قلتوا بلاش تخريف . .

مش حاسمع

مصر أم الدنيا

مصر البنى آدم

مصرِى مش حتِة أرضْ [٣٧٦]

* *

— ٣ —

توتا . . توتا . .

واهى خلصت منى الحدوته

لو حلوه . . حاتقول غنوه

« واللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى »

لو ملتوته . . حاتقول حدُوته :

« كان فيه واحده ست

ماتت ، صحيت ، شافت ، عرفت.

إن البنى آدم :

ممكن يبقى « بنى آدم » صُحْ ».

شرح على المتن

[١] هنا إشارة عامة وخاصة :

عامة : أردت بها أن أشير إلى أنى فى مرحلتى هذه — سواء وأنا أتكلم بلغة العلم أو الفن — قد وضعت نفسى فى موقف يحتم علىّ أن يكون جوهر وجودى هو أن أبلغ ما رأيت وأرى من أسرار فى مجالى لأصحابه (الناس) . ومجالى هو النفس الإنسانية بكل ما تحمل من غموض وتعدد وتآلف وتشتت ، وبكل ما تعنى وتمثل من حقيقة كيميائية أو كيانية أو كونية ، محددة الأصل أو ممتدة إلى خلود بلا نهاية .

وهى إشارة خاصة : تشير إلى دراستى فى علم السيكوباثولوجى التى نشرتها تحت عنوان « سر اللعبة » وكتبتها نظماً بالعربية ، وحاولت من خلالها أن أكشف

طبقات النفس . كما شاهدتها وعرفتها من داخلى وخارجى ، وقد تصورت بعدها أنى « بطلت الغنا » ، وأظن أن هذا الشعور ينتاب أغلب من يعانى مكابدة الفن .. وخاصة إذا كان من غير أهله .. ولكنه سرعان ما يجد نفسه بعد فترة أمام تحدٍّ آخر وولادة أخرى . . والتزام آخر وخلق جديد .

[٢] ولم يكن تراجعى أو خوفى من الخارج « فحسب » ، بل إن خوفى إزاء هذه التعريات يأتى غالباً من داخلى ، وكأنى أتقمص المجتمع العلمى خاصة ، وهو مجتمع ناقد متحفظ بالضرورة ، وعنده بعض الحق ليحمى نفسه من شطحات غير مسئولة ، إلا أن المبالغة فى الخوف لا شك معوق شديد .

[٣] ولكن هذا الخوف هل هو خوف من رأى الناس (العلماء وغيرهم من النقاد والفنانين وحتى الجمهور :

« الطوب والطماطم ») أو أنه حجة أبرر بها خوفا أعمق ، هو الخوف من كشف الحقيقة التى نعرض لها فى خبرة وجودنا ؟ لقد أشرت فى هذه الفقرة بوجه خاص إلى أن الرفض (العيون اللاّ ه) هو فى حقيقته خوف من الحقيقة ذاتها وهولها ومسئوليتها أكثر منه خوف من رأى أو حساب لعواقب .

[٤] هذا المهرب العظيم الخبيث من أخفى مآزق عالمنا المعاصر ، فنحن نعيش وسط فيضان من الكتب يكاد يصل إلى حد الطوفان ، وبقدر ما يمكن أن يثرينا هذا الطوفان إذ يروى ظمأنا للمعرفة ، بقدر ما يمكن أن يغرقنا حين يلهينا عن الحرث والزرع والحياة ، والحد الفاصل بين الثقافة بالمعنى الحضارى المغامر المجدد ، وبين الثقافة بالمعنى الاغترابى المضلل الهارب ، هو حد دقيق قد لا يُرى بأعلى درجة من البصيرة ، والاحتباء هنا كان فى هذا النوع الأخير ولم يفدح طبعاً .

[٥] وحتى مهنتى ، كان يمكن أن تكون مهربا هائلا من نفسى ، وأذكر أحد الشبان الأذكياء حين حضر معى جلسة للعلاج الجمعى فى مستشفى دار المقطم (كمتفرج وناقد معا) وهو طالب فى كلية الطب ، أن عقب فى النهاية: « إنها لعبة جيدة : إذا لم تستطيع أن تعيش فعالج الناس واختبىء فيهم» ودهشت من تعليقه وانزعجت وأعجبت ، فإن علاج الناس قد يكون مهربا من مواجهة الذات . . وأرجو أن ينتبه الزملاء الصغار إلى هذه الحقيقة رحمة بمرضاهم .. وحرصا على استكمال نموهم وتأكيداً لاختيارهم .

[٦] قضية فى الطب النفسى ، تثار بحدة فى كثير من الأحيان « خاصة من رواد الحركة المناهضة للطب النفسى » وهى قضية «مَن المريض، ومَن الطبيب؟» وقد تتردد على لسان العامة على أنها فكاهة أو ملحه (ذات مغزى بلا أدنى شك)، وقد تثار على مستوى فنى يطرح القضية للجماهير مباشرة مثل

محاولة فيلم « طار فوق عش الوقواق . . » ،وقد تواجه الطبيب بعنف حين يكتشف أن رؤية المريض وصدق حدسه (رغم وقفته المهزومة مرحليا) هى إثراء لوجوده شخصياً كطبيب وكإنسان ، وهى عون له على مواجهة الحياة . .

كل هذه الصور تؤكد الدور الذى يقوم به المريض فى مواجهة المجتمع . . إنذاراً بالانهيار ، وعرضا للجانب الآخر من الحياة وإثارة للمواجهة فى طريق الولاف الأعلى بين العقل المنطقى الخائف ، والجنون الحر الحى . . فى سبيل التكامل . ولكنها ليست تبريراً للجنون فى ذاته بصورته كهزيمة متناثرة .

[٧] إشارة إلى علاقة الجنون ، بالتعرى بالحقيقة ، وأنا استعمل هنا كلمة الحقيقة أكثر من اللازم ، وهى كلمة نجدها أكثر تواترا فى قاموس الفلاسفة عنها عند العلماء أو الفنانين ، وإذا كانت قضية الفيلسوف من بعض نواحيها هى البحث عن الحقيقة ، فإن مصيبة المجنون (إن صح التعبير)

هى مواجهتها فجــأة دون استعداد ، وورطة الطبيب فى اضطراره إلى أن يشهـد هـذه المفاجأة غير السارة رضى أم لم يرضَ ، ولو أمعنا النظر فى مدارس الطب النفسى لوجدناها تختلف بقدر اختلافها فى تقييم هذه الخبرة الإنسانية؛ « مواجهة الحقيقة الداخلية والمطلقة » .

١ — ففريق يدمغها بالأسماء والأوصاف المرضية السلبية معلنا بذلك أنه ينبغى ألا نحسن استقبال رؤية المجنون حيث أنهـا رؤية لم يستعد لها بـكامل مسئوليته ، ولم يقدم عليها بعمق وعيه ، إذاً فالهزيمة التى اجتاحته من هــذه المواجهة هى هزيمة نـكراء ، تضعه حيث وضع نفسه « مريضا شاذاً فحسب » ، وهــذا الفريق يختبىء تحت رؤية عضوية سلوكيـة عادة .

٢ — وفريق يعلى من شأنها ، ويتـكلم عنها بألفاظ الاحتجاج والحرية والثورة ، ويعزو الهزيمة التى منى بهـا

المريض، إذ رآها ، إلى قسوة المجتمع وغباءة ، ويفترض أن هذا الموقف رغم سلبيته هو أفضل من « الانضباط الأعمى » ، والنجاح الأجوف ، وهو يتصور بهذا أن هذا التقبل فى ذاته خليق بأن يجعلها خطوة للامام وليست ضربة قاضية تنهى الجولات ، وهذا الفريق ذو رؤية فنية حرة ، ويندرج تحته الحركة المناهضة للطب النفسى . . ولكن هـذا لا يتعدى الموقف الفنى المثير إلى الموقف العلمى البناء ، ولا إلى الموقف الثائر الملتزم .

٣ — وفريق ثالث يرى هذه المواجهة فى حجمها القاسى والمؤلم ، ولكنه لا يعلى من شأنها بقدر ما يتخذ موقفاً إزاءها فهو معها للنهاية شريطة أن يتحمل صاحبها مسئوليتها آخر الأمر ، فوظيفة الطبيب هنا أن يقلب الهزيمة نصراً ، (لا أن يوقف إطلاق نيران الحقيقة فحسب) وهو فى هـذه الرحلة لا بد أن يرى المريض من زاويتين؛ مرة من خلال رؤية

إيجابية بمعنى أنه رفض العمى والرتابة ، ثم يراه مرة ثانية رؤية لوم بمعنى أنه لم يقدر على الإبصار ونهض الحس الأعمق، ويحاول من خلال هذا وذاك أن ينتصر بهما معاً في ولاف أرقى ، ويا ليته يفعل ! أما عن ماهية الحقيقة التى أكثر من الكلام عنها هنا فهو أمر خارج عن نطاق هذه الحاشية ، وإن كان يمكن أن نشير إليها بأنها « درجة من الوعى بالوجود تمتد إلى داخل النفس لتكشف تاريخنا الضارب فى ما وراء الحياة ، وتمتد إلى مستقبل التطور لترى روعة التكامل والخلود ، وتتصل بالناس عرضا لترى امتداد الفرد فى المجموع وتواضع رحلته الذاتية وضرورة الاتصال المثمر بالناس » فإذا تمت هذه الرؤية فى لحظة أو ساعات أو العمر كله . . كانت المواجهة . . أما نتاجها فهو الجنون والفن والإبداع العلمى والتصوف حسب الاستعداد لها وتحمل مسئوليتها ،

وهذه الصــورة الموجزة جـدا هى عمق ما أعنى بالحقيقة ؟
أما كيف يعبر عنها كل من هذه الفئات فهذا حديث آخر .

[٨] إشارة إلى النموذج الطبى العـدوانى الذى يرى المرض حريقا لا بد من الاسراع فى إطفائه بالعقاقير حتى لو لم يتبق بعد ذلك إلا الرماد ، ووظيفته المبالغة فى استعمال العقاقير ، واعتبار المرض النفسى مجرد تغير كيميائى فى المخ وظيفة تحجب الرؤية عن الطبيب النفسى ، وترحمه بالتالى من التعرض لتعمق الوعى ومواجهة حقيقة وجوده ذاته كما ذكرت ، أما «الذى منه» فهو إشارة إلى سوء استعمال بقية الأساليب السطحية مثل العلاج السلوكى وأحيانا العـلاج بالـكهرباء والجراحة ، وأقول إن كل هذه الأساليب لها فاعليتها وروعتها ووظيفتها إذا كانت جزءاً من كل متكامل على مسيرة التطبيب النفسى ، أما إذا كانت بديلا عن العلاقة

الانسانية أو كانت مجرد خفض للطاقة وتهدئة للثورة فإنها قد تعمل فى عكس الاتجاه الخلاق .

[٩] إن أخطر ما يصادف الطبيب النفسى هو أن يرى نفسه فى المريض ويرى المريض فى نفسه ، فاذا كان مستعدا للمغامرة الصادقة فى رحلته المعرفية ، فإنه سوف يحسن اصطحاب المريض .. وإلا... ، وهذا التقمص إنما يأتى حين يحس الطبيب أن نفسه مثل كل النفوس لها نفس الأعماق والمستويات ، وأن المريض لا يختلف نوعيا عنه وإنما الفرق فى ترجيح هذا المستوى أو ذاك حتى يغلب على نوعية الوجود مستوى دون اخر ، فاذا ما أدرك الطبيب هذا التماثل بينه وبين المريض . . فان إنكاره والتغافل عنه بعد ذلك يصبح عبثا حقيقيا (لم قدرت اعمى بنواضرى) .

[١٠] «السيم» لفظ يعنى عادة اللغة الخاصة التى تستعمل بين المعلم وصبيه ، أو بين التاجر ومساعده ، يتكلمون بها

أمام الزبون دون أن يدرك كنهها حتى يستغفلونه ، والمعنى هنا أن قصور رؤية الطبيب عن عمق مشكلة الجنون بالاختفاء وراء الفكر العضوى ، والتطبيب الكيميائى ، قد يساعد فى اختصار الطريق إلى النجاح التطبيبى الظاهرى بقدر ما يطفىء من حرائق ، ولكن هذا النجاح ، رغم أهميته ودوره ، إلا أنه سلاح ذو حدين ، فأحيانا — كما ذكرنا — لا ينتج عن إطفاء الحريق إلا الرماد « والجميع بخير وعمل لم اللازم !! »

[١١] إشارة إلى أن« إعادة الولادة » التى هى تجربة الجنون من ناحية ، وتجربة أزمات التطور من ناحية أخرى وكذلك إرهاصات الخلق من ناحية ثالثة ، إنما تجعل الفرد والد نفسه ، وفى هذا ما فيه من روعة ومسئولية معا ، والخطاب هنا « يابن نفسى » يشير إلى أن من تعرض لمصاحبة الجنون فى رحلته المرعبة هذه ، فهو لا بد والد نفسه من

جديد وعليه أن يتحمل مشاق الرحلة فعلا .. وأن يقلبها إبداعاً حقيقيا .. فهى فرصة .. وهى مصيبة فى نفس الوقت إذا لم تتم بأمان .

[١٢] أحيانا تكون الرؤية عارمة ولا رجعة فيها حتى لو اقتصرت على لحظة أو لحظات ، « ولم تنيتّها » تعبير عامى يشير إلى أنها نظرة واحدة لم تلحقها نظرة ثانية ، ولكنها كانت كافية للإنارة .. والمواجهة معاً .

[١٣] تقديس القديم والتوقف عنده يصبح بشعا من خلال الرؤية الجديدة ، سواء كانت رؤية المجنون أم الفنان أم الثائر ، والقديم هنا لا يقتصر على تجمد السلف بقدر ما يصور الجمود الفكرى بصفة عامة ، وكثير من المبادىء الحديثة أخذت قالباً جامدا حتى أصبحت لها نفس قدسية القديم المعطل ، فالمشكلة هنا ليست مشكلة السلف والخلف ، ولا القديم والجديد ، ولكنها مشكلة الجمود ضد الحركة ،

واحترام القديم عندى رائع وضرورى ، لأنه الأب الشرعى للجديد ولا جديد ذا أصالة يولد سفاحا ، ولكن التوقف عند أى شيء - جديداً كان أو قديما - هو الخطر المدمر الذى يهدد مسيرة الإنسان .

[١٤] إشارة ثانية إلى رفضى لموقف الطب النفسى إذا ما اعتبر العقل البشرى نموذجا هندسيا ، وجعله مماثلا بشكل أو بآخر لما يسمى « الكمبيوتر » أو العقل الالكترونى ، وهو اتجاه حديث رائع وخطير كذلك ، يجعل من الانسان آلة متقنة ولكنه يفقده بعدا كليا هو فى رأيى من أميز ما يميز الوجود البشرى .

[١٥] هـــذا استطراد واجب ، فكل الأدوار التى انتقدت فيها دور الطبيب النفسى هى أدوار تصورت أنى قمت بها شخصيا فى مرحلة من مراحل ممارستى لمهنتى ، فهو نقد ذاتى صرف ، لا أعنى به المهنة ذاتها ولا أى من الزملاء،

وهو تحفظ عاقل يؤكد مسئوليتى فيما عانيت ، ويعفى الزملاء
من أى دفاع قد يخطر على بالهم ، فالقضية فى تصورى ليست
قضية تجريح لبعض الاتجاهات ، ولكنها خبرة شخصية
أساساً ، قد توقظ الجوانب « الأخرى » فى نفوس البعض ،
والحكم فى ذلك أولا وأخيرا هو الضمير الخاص والمناجاة
الذاتية ، أما أنا ففى تصورى أنه مادام الناس مختلفون فى
كل شىء ، فالحاجة إلى جميع أنواع التطبيب قائمة ، ومادامت
مسيرة التطور الفردى ليست قانونا ملزما لكل الناس
فليتوقف من يشاء حيثما شاء، وليساعده فى ذلك الطبيب أو
غيره ، ولكن الفرد، وهو المسئول أولا وقبل كل شىء عن
اختياره،لا بدسيرجع إلى المجتمع يمارس هذا الاختيار فيقبل أو
يرفض حسب درجة تناسب تطور المجتمع مع نموه الذاتى ،
والذى أفادنى فى هذا أنى مارست كل أنواع الطب النفسى
عبر عشرين عاما بحماس وإيمان فى كل مرحلة ، فأصابنى من

كل ذلك ما أصابنى . . وخرجت فى النهاية بما أقول حالا ، وما قد أغيره مستقبلا . . وهذا هو التطور فى رأيى .

[١٦] إشارة إلى دور الطبيب حين يغلب على فكره التفكير الاحصائى ، وتقنين وسائله .. حتى ليختفى حدسه الأكلينيكى وراء الأرقام ،وتصبح الجداول أصدق من رؤيته العميقة وتسجنة المعادلات فى قيودها على حساب نمو حاسته البشرية الموضوعية .

[١٧] إشارة إلى دور الطبيب حين يتصدى للفتوى عبر وسائل الإعلام المختلفة ، وكأنه قد عرف الجواب لكل سؤال ، والحل لكل مشكل ، والدواء لكل جرح فى القلوب . . وهذه الصورة شاعت فى الصحافة والإعلام مؤخرا بشكل مهدد فعلاً ، وشاركت فيها بما تيسر ورأيت نفسى من بعيد مالى وما علىّ . . والله يجزى ويغفر (١) ، فلكل خطوة ثمنها .. وعليها وزرها، لها نفعها..ومنها ضررها والذى

يهرب من التصدى للمكلمة ليس بطلا ، والذى يا لى بها بلاحساب أو مسئولية ليس شجاعاً ،.. فهو المشى على الصراط!

[١٨] مرة أخرى قد يقوم الطبيب بالدور الاصلى له المشتق من الكلمة ذاتها [« طب الشيء » رفق به وتلطف، و « طب طب » بالعامية ، تأكيد لذلك] وتكون وظيفته هى الترفق بالناس والتلطف وهى وسيلة تسكينية مطلوبة ، وذات دور هام فى الحياة بعد أن جفت موارد التعاطف ، إلا أنها مجرد دور واحداً إذا قتصر عليه الطبيب — فى رأيى — لكان دوره ناقصا بلا أدنى شك .

[١٩] من أقبح الأدوار التى قد يضطر اليها الطبيب — أو قد يتمتع بها إن شاء — هو ما تصورت نفسى فيه أحيانا بالنسبة للمرفهات من بنات الذوات (القدامى ، والمحدثين معا) حين يحضرون للفرجة علىّ ، أو للدردشة ، أو «للونس» ، أو لقضاء وقت ما مع وجه تلفزيونجى أو اسم

معين (أنا) ، وحين كنت اضطر من منطق العقل والذوق والمجاملة « والتكيف » وأدب المهنة أن أجارى مثل هذه النوازع فإنى كنت أتذكر دور « الأغا » لحريم القصور ، وهو دور يتحدد أكثر فأكثر كلما كان المريض شخصية مهمة بالمقياس إياه واستعيذ بالله من التدهور ، وأتمنى اليوم الذى ينقرض فيه هـذا الصنف من البشر (حتى لو كنت أنا منهم) ، ويصبح من عز العقل أن يرسل بهم وبهن إلى معسكرات التأهيل الإنسانية لإيقاظ أعلى المشاعر فيهم وفيهن وهو الألم الخلاق ... ولـكنى أعود فأرفض أى حماس لاستعجال التطور على حساب الحرية ومخاطر تخطيها .

[٢٠] يسمى الطب النفسى — أو العـلاج النفسى — أحيانا : صداقة للبيـع ، رأس مالها « صناعة الـكلام » سواء قام الطبيب باستثارة الـكلام عند المريض وتشجيـع استرساله أم بتفسيره وتأويله .

[٢١] ومن البضائع الرائجة فى هذه الصفقة الملاجية :
العواطف البشرية الحنون ، وأحيانا ما كنت أتصور أن
نظرة العطف ثمنها كذا ، ورقة النبرة ثمنها كذا ، وأحيانا
تختلف جرعة العطف ورقة الحديث باختلاف مركز المريض
أو طبقته أو ماهيته أو ماليته أو موطنه الأصلى ! ! وكان
المنظر يتجسد عنـدى هزليا وكأن كل من المرضى يمسك
سلطانية « صاج » ،أويشترى من عواطفى على قدر ما يملك ،
وأنا أصب له حسب قدرته كما يصب البقال فى بلدنا العسل
الأسود من الزلعة : شوية بقرش ، شوية بخمسة ،وهذهالصورة
أيضا خاصـة بى ، فإذا انطبقت على أحد سواى من واقع
صدقه مع نفسه فهو حر ، وإلا فهى ملـكى وحدى يغفر الله
لى ولـكم .

[٢٢] فى هـذه الإشارة تـكثيف لعدة خواطر برموز
مباشرة : أولا : الموت النفسى بمعنى توقف التطور وتجميد

العواطف (الجنازة) وثانيا : الجنس الحيوانى كوسيلة هروبية تؤكد هذا النوع من الموت حين يكون بديلاً عن التقارب الجنسى والعاطفى الانسانى الأعلى وثالثا : اختلاف النفاق الاجتماعى عن الحقيقة البشعة داخل البيوت ، ثم داخل النفوس وقد تكشف هذا المعنى صارخا هكذا للتنبيه على خطورة التوقف والعمى والهرب معاً تحت أوهام الستر ، إعلانا بأن « الناس مستخبية فى هدومها » كما يقول العامة . .

[٢٣] أحيانا تكون المخاوف الشخصية النابعة من الداخل أكبر من القيود القائمة فعلا ، وهذا ماأسميته أحيانا الخوف مقدما ، أو الخوف احتياطيا ، فكثيرا ماوجدت عند بعض المسئولين الصغار مبالغة فى تصور القيود والرقابة ، فيصبح السجن الشخصى الذى يحبسون فيه أنفسهم أقسى من السجن الحقيقى خارجها .

[٢٤] حين يصبح النجاح « ضربة حظ » والتطور هو « رضا القدر » ، بلا إسهام انسانى فردى مباشر ، فإن العمل يتوارى بشكل معطل ، وفى رؤية مثل هذه التى أقدمها من واقع المواجهة النفسية . . كانت تنمية هذه القيم السلبية فى تصورى جريمة . . لأنها تحرم الإنسان من المساهمة الإرادية الواعية فى مصيره .

[٢٥] إشارة إلى الشكل المصرى لصكوك « الغفران » سواء التى يوزعها الطبيب النفسى أثنـــاء الاعترافات الاسترسالية ، أم رجل الدين حـين يـكتفى بظاهر ألفاظ الاستغفار دون إثارة جوهر الإيمان والنقاء الروحى .

[٢٦] إشارة إلى دور الصحافة والنشر عامة حين يغلب عليها تدفق الألفاظ على حساب نبض المعانى ، وحين تمتلىء أعمدتها ، وصفحاتها بالـكلام المرصوص المعاد دون إبداع أو تجديد .

[٢٧] حين يكرس هذا كله ـ وخاصة صفوف الكلام ـ لتقديس القديم والتوقف عند قيم ثابتة معطلة ، فإنها لا شك خدمة للجمود ضد التطور وفى النهاية فهى خدمة للبطالة ضد العرق النقى الطاهر .

[٢٨] لحظة إفاقة من هـــول الرؤية ، واستغاثة ، والاستغاثة قد تأخذ شكل الاستشارة النفسية ، أو أى سبيل مواز حسب نوع المجتمع ودرجة تطوره .

[٢٩] محاولة جديدة للتراجع ، وهذا ما عنيته قبلا «بهول الرؤية» ، ولو لنظرة واحدة ، وحتى لو أغمضت العينين بعدها فالصورة أصبحت ماثلة متحدية .

[٣٠] إذا اعتبرت الرؤية — مهما صدقت — هى نهاية المطاف ، أصبحت خطرا معجزا فعلا ، وحين يتبين صاحب الرؤية ضخامتها وعجزه ، فان له كل الحق أن يتراجع لو استطاع . . وهيهات .

[٣١] « صاحبك » هنا قد تعود على المريض صاحب الرؤية الأولى .. (راجع حاشية ٧) ، أو إلى الإنسان الفطرى الذى يستيقظ فى هذه التجربة داخلنا ، ويصبح عائقاً ضد التنويم والتراجع والعمى من جديد .

[٣٢] إشارة إلى أنى لم أفلح فى وقف هـذا السيل من المشاعر ، الصادر بهذه الصورة رغم محاولاتى المترددة .

[٣٣] من أكبر « الألعاب » (James على حـد تعبير إريك بيرن) التى تضيّع جوهر الحياة ، لعبة « الدردشة » حين تصبح المناقشات وتبـــادل الآراء ، والانتقادات ، والنكت هى غاية المطاف ونهـــاية الوجود : . تفرغ شحنتنا العاطفية ، وتفرق طاقتنا، وتغنينا عن حمل مسئولية المشاعر ، وعن اتخاذ المواقف . . والالتزام بتحقيقها .

[٣٤] بديل آخر معطل ، نقابله فى بعض أنواع العلاج

النفسى (الجزء الثانى من هـذا العمل) كما نقابله فى بعض الوسائل الهروبية لإعلاء قيمة الاحساس والمتعة كسبيل إلى الحرية أو بديل عن المواجهة التطورية البناءة ، وهو هو الدعوة إلى ايقاظ الاحاسيس الفطرية بديلا عن المنطق والواقـع ، ثم ممارسـتها فى الخيال المخـدر فى انتظار اليوتوبيا يوما ما فى مكان ما :

[٣٥] إشارة إلى الاغتراب عن اللحظة الراهنـة ، وتأكيد لضرورة المواجهة فى « هنا » و « الآن » ، هـذه الطريقة العنيفة التى يلجـأ اليها أغلب أنواع العلاج النفسى الجمعى ، حتى يقضى على الاغتراب فى تهاويم المستقبل أو الهرب فى ذكريات الماضى دون مواجهة الحاضر الذى هو فى واقـع الحال حقيقة الوجود .

[٣٦] أحيانا يكون وراء الهرب بأنواعه ، وخاصة من « هنا » و « الآن » ، رغبة فى عدم التحديد وبالتالى فى تجنب

المواجهة، وهذا تنبيه آخر إلى أن مسيرة الحياة بالصدفة فى جو غامض اتكالى هى غرق فى اللا إحساس وفى التنويم ، وفى الموت النفس (تكسى الجلود بالدهنة) .

[٣٧] صور الهرب المختلفة التى تمنع التساؤل .. حتى لتمنع الرؤية أصلاً . إذ تخاف . .

[٣٨] كل هذه الصور المزعجة تحميها «سلطة الأمر الواقع» ويدعمها الخوف من المغامرة بخوض الجديد .

[٣٩] أعنى اديبى على مرضاى الذين عرّفونى طبيعة النفس . . . وضرورة أن أنقل هذه المعرفة للناس .

[٤٠] هذه الصورة المشتقة من لعبة البصرة (أو الولد يقش) إنما أردت بها أن يعقب مجرد الرفض وإعلان الرؤية (رايح أقول كل اللى عارفه) أن يتحدى الحقُّ الباطلَ بالمواجهة (كشف الورق) ، ويقينى أن الحق سوف يزهق الباطل لا محالة . . وأن العمى هنا لا يفيد فى معركة شريفة (اللعب عالمكشوف) ، فالبقاء للأصلح بلا شك .

[٤١] إشارة مكررة إلى أن ما يسميه صاحب الرؤية (والجنون أحيانا) : «موتا» . . يصف به الناس المنومين، فى الحياة العادية يدافع عنه أصحابه بأن هذه هى الحياة بلا زيادة ولا نقصان ، وهنا التحدى . . حيث ينبغى أن يكون الرفض لهذا التنويم (الموت) مصاحب بخوض معركة الحياة الحقيقية لامكتف بمجرد إعلان الهرب فى المرض أو الاعتذار بالجنون أى أنه حين تصبح الرؤية مصحوبة بالقدرة : فحدِّث ولا حرج : فهو التطور . . والحياة الحقة .

[٤٢] موجة جديدة من المواجهة والنقد الذاتى . . بما يحمل من الام وتجريح .

[٤٣] تأكيد لما أشرت إليه فى المقدمة من أن إحساسى بأن دورى كطبيب نفسى لا يكفينى ولا يستوعب طاقتى ولا يحقق تواصلى مع الناس ولا يرضى حاجتى إلى إبلاغهم ما أرى ، فأتخطى الحواجز إليهم ، لا أنتظرهم حتى تسحقهم

الرؤية بالهزيمة إذا لم يستعدوا لها ، وهذه الفقرة بالذات هى تفسير لهذا العمل برمته — وغيره من أعمال مشابهة —

[٤٤] « السبوبة » هنا تعنى العيادة ، وما قد يجره نشر أوراقى الخاصة ومشاعرى الخاصة ومواقفى الخاصة على تعطيل الاسترزاق منها .

[٤٥] كان — ومازال — من أخوف ما أخافه هجوم الزملاء ونقد العلماء ، ليس فقط لاعترافى بضعفى وحرصى على رأيهم ، ولكن أيضا لعزوفى عن دخول معارك جانبية تصرفنى عن هدفى الأول (وهو إبلاغ الناس ما أرى ، وكذلك لواقع احترامى لدورهم الهام فى المجتمع (الأمر الذى لا يعجب الشباب الرافض لكل شيء) ، وهذا — كما ذكرت — هو السبب الحقيقى وراء تأخير النشر ، ووراء كثرة الاعتذارات ، ووراء الحرص على توجيه النقد للنفس ليس إلا ، ووراء حرصى على كتابة هذه الحواشى النفسية أو

التخفيفية (Diluting) كما يحب أن يسميها البعض ، فمن موقع خبرتى هـذه ، وسنى وهدفى ، أجد أنى أقرب إلى ممارسة البناء العنيد المؤلم وليس التباهى بالمفرقعات الرافضة والأصوات العالية المنتشية بغرورها فحسب . ، أو أنى بمعنى آخر أميل إلى الاسهام فى البناء الحضارى الممتد . . تكملة للمد الثورى المتذاوب . . حتى لا أتوقف على مجرد السخط الغبى ، ولكنى أعترف أن رفضهم لى كان ومازال له وظيفة رائعة دائما إذ يشعرنى بغربتى ، وهنا لابد أن أرجع بعض الفضل فى إقدامى على نشر هذا العمل بعد حفظه أربع سنوات إلى أن بعض العلماء الذين كنت أعمل حسابهم قد رفضونى باجراء فعلى أعطانى مزيدا من الحرية دفعتنى إلى أن أعلن موقفى جزئياً بهذا النشر .

[٤٦] إشارة إلى ديوانى « سر اللعبـة » وكتابى « عندما يتعرى الإنسان » ، وروايتى «المشى على الصراط».

[٤٧] إشارة إلى مسرحيـة ليلى والمجنون لصـلاح عبد الصبور وكذلك ثلاثية نجيب سرور .

[٤٨] إشارة إلى اللغـة العربية الفصحى ، فهى حبيبتى رغم عدم وفائى لها بحقها علىّ وقصورى عن الاتقان الواجب إزاء المحبوب ، وقد كان من أصعب الأمور على نفسى أن أنشر بالعامية المصرية وأنا أعلم قدرة اللغة العربية وثراءها ، ولولا أنى آمنت أن للفن الشعبي دوره فى نمو الإنسان وتبصرته ، ولولا أنى أحسست أن حق رجـل الشارع على يتطلب أن أن أقدم له علمنا مباشرة . . بدرجة لا تقـل عن حق المثقف أو العالم ، ولولا أن المرضى يمرضون : بالعامية المصرية (بمعنى أن أعراضهم تحـكى بالعامية أساساً ، بل إن الانسان إذا تأمل داخله وإحساسه فإنه سيكتشف أنه يحس بالعامية . . بمعنى أنه إذا أراد وصف مشاعره أو ترجمة نبض وجدانه فان اللفظ الذى سيقفز إلى فـكره هـو بالعامية أساساً ،

ولا ذلك كله . . لأخفيت هذه المحاولة بصورة نهائية ، وهذه الحواشي أكتبها لأسباب متعددة . . من بينها أن تكون الفصحى هي مفتاح الشرح لتلقائية العامية في النص ، ومع كل هذا فما زلت لا أرضى عن الفصحى بديلا .

[٤٩] إنما تصبح العامية لغة تعبير — كضرورة عابرة — حين تكون الخبرة المعاشة ذات انفعال مباشر طاغ . . وخبرتي هذه . . كانت كذلك ، وكانت العامية أقرب إلى تفاصيل حسي ، وحس من تقمصت ، وكنت سوف اضطر إلى الابتعاد قليلا عن قلب الخبرة ونبضها لو أردت أن أترجمها إلى الفصحى لما كان بها من تفاصيل وتفاصيل وقد، تجنبت الابتعاد عن هذه التفاصيل حتى يكون نقلي للخبرة أمينا فعلا ، ولو على حساب إيماني بضرورة الالتزام بالفصحى ما أمكن . . . (إلا أنه هنا وهذه المرة فقط ، لم يمكن).

الفصل الأول

سبع جنازات

[٥٠] حين تفقد الألفاظ معناها (وهى التى نشأت لترتقى بالانسان وتجعل عقله جهازا اقتصاديا من الدرجة الأولى حيث يقوم الرمز مقام مايرمز اليه) تصبح عبئا على الوجود ، وتهيىء للمرض النفسى والاغتراب، ويصبح الوجود البشرى إطارا خاويا (نعشا) تتردد فيه أصوات وتؤدى وظيفتها سواء فى إثراء الوجود أو التواصل بين البشر ، والمتأمل للالفاظ اليومية المتبادلة بين الناس قد ينزعج لعدم ترابطها الأعمق ، أو لخلوها من المعنى ، أو لخروجها من معناها الأصلى إلى معنى آخر قد يكون نقيض الأول

(لاحظ من يستعمل الفاظ : السلام (السلام عليكم) ، والخير (صباح الخير) ولا يعنى بهما شيئاً . . . إلخ) ، وأسباب تفريغ الألفاظ من معانيها هو الخوف بكل صوره ، الخوف من التصريح بمكنون النفس (الخطير بداهة) أو من القهر أو من الرفض ، وفى كل هذه الأحوال تختفى الالفاظ ذات المعنى ثم تصدأ وتفرغ من وظيفتها ولا يتبقى إلا أصوات لها شكل الألفاظ وقد تعرف هـذه الظاهرة التى شاعت أخيرا باسم « اللفظنة » Verbalism وهى قضيـة اغترابية ضخمة ليس هنا مجال الإفاضة فيها .

[٥١] وحين يصل الأمر إلى هـذا الحد يصبح الحديث بنفس الألفاظ الخاوية، لمن يريد أن يعنى بها معناها الأصلى ، عبثا رهيبا ، إذ سوف تصل الى الغـير بالمعنى المميهن ، أو بتعبير أقسى بالمعنى الداعر الـكاذب ، وهنا تصبح مسئولية الـكاتب رهيبة ومعاناته عميقة ، ويتعذر عليه أحيانا أن

يحترم ما يكتب . . أو أن يكتب أصلا (القلم سنه اتقصف)
إذ أنه قد يدرك أن هذه الكتابة لا معنى لها . . ومع ذلك
فهو يحاول بالألفاظ الخاوية (على المستوى العام) وبالقلم
العاجز أن ينفخ فى هذا الرمز الإنسانى الغالى نسيم الحياة . .
وهنا تبدأ وظيفه الفن والشعر خاصة فى إعادة الحياة إلى
اللفظ المهمل المتهن .

[٥٢] هــذه الصورة . . هى بداية رسم الوجه الآخر
للعــلاج النفسى ، فما زال أغلب الناس يتصورون العلاج
النفسى هو التحليل النفسى حيث يرقـد المريض على حشيه
ووجهه ونظراته بعيدة عن المحلل الذى يجلس وراءه ، وكما
قلت فى المقدمة أن للتحليل النفسى — وغيره من الوسائل
الأخرى — دورا ما فى مسيرتنا لتبرير الحياة والتخفيف من
عنف المواجهة ، ولـكن الجانب الذي أقدمه هوأن الكلام
قد يكون منفصلا — فى هذا الموقف — تماماً عن الوجود

وأن المريض قد يكون (بوعى أو بغيره) فى موقف المتفرج على ما يقول مثلما يتفرج على نقوش السقف تماما (كرمز لابتعاد اللفظ عن الذات) وهنا يصبح العلاج النفسى التحليلى بهذه الصورة أقرب إلى تأكيد الاغتراب لااختراقه وتحديه ، وموقف المحلل (فى هذه الصورة فحسب) موقف حيادى غير متحيز ، [هـذا ما يتصوره المحللون وما يحبون أن يؤكدوه وما أعتقد أنه مستحيل واقعاً إنسانيا] وأغلب من عرفت من المحللين على جانب كبير من الرقة والطيبة والتسامح ، يعيشون فى أحلام أهمية الرمز الكلامى فى حل مشاكل الانسان ، ولهم صبر على خطو الحياة (العلاج) المتأنى [ما أظنش أيوب مات] أحسدهم حقيقة عليه ، وهم يؤدون دورهم بشكل ما . الأمر الذى لم يستطع أن يثرى تجربتى العلاجيـة بدرجة كافية ، وبالتالى لم أستطع أن أستمر فيه .

[٥٣] وكما قلت فى الحاشية [٥١] أن فن الشعر هو القادر على إحياء الألفاظ وهى رميم ، فانى هنا أتمنى تحقيق هذا الأمل ، وإذ ينبض اللفظ بمعناه تدب الحياة فى الكيان البشرى الخاوى ، وفى خبرتى العلاجية كنت أقف فى مواجهة بعض المرضى لأطلب منهم ومنى فى «هنا» والآن أن يذكروا كلمة واحدة أو اثنين بمعناهما الحقيقى مثل « إزيك » أو « صباح الخير » ... إلخ ، وبعد مقاومة شديدة ، قد يحاول أحدهم هذه المغامرة ، وإذا بالمشاعر تدب فى كيانه كله ويكاد يعبر عن هذه الخبرة البسيطة المركزة فيما بعد أنها خبرة انفعالية هائلة تكاد تقترب من خبرة الجنون ، وفى موقف آخر أشد عنفاً كانت إحدى الصديقات المريضات تقول مستضيئة «يارب» ورد عليها مساعدى (وهو شاب يحاول جاهداً أن يعيش ويستمر محتفظاً بالمعنى) أنها لاتعنى ما تقول وأنها لو كانت تعنيه لأحسّت بذبذباتها تخرج من تحت إظفر إصبع قدمها ، وهذا التعبير التلقائى الذى ساعد المريضة

على أن تقترب من معانى ألفاظها كان فاتحة تحول فى وجودها، وكان دليلا لى على ما أعنى حين أتكلم عن نبض الألفاظ ، وكان وراء هذه الأمنية بأن تكون كلمة «يارب» (مثلا) لها هذه الاهتزازه الغنية شريطة ألا تكون فتحاً لباب الإغتراب إلى أعلى ، ولذلك فقد أسرعت فأردفت بعدها أن مصدر الاستجابة هو داخل الوجود البشرى حيث سبحانه أقرب من حبل الوريد .

[٥٤] ورغم كل ماسبق من تشكيك فى قيمة «الكلام» وتعرية ما وصل إليه من امتهان ودعارة ، فإنه متى دبت فيه الروح أصبح سلاح الإنسان الرابع للتواصل ، والخلود ، وتحطيم الجحود ، واعلان الإلتزام ، وفى هذه الفقرة هجوم على أدعياء الحكمة بالصمت ، وإذاً أن السكوت ليس دائما من ذهب (إلا إذا كان المقصود هو أنه أربح بالمعنى التجارى) .

سارى الخوف

[٥٥] أول خدعة فى العلاج النفسى « الكلامى » هى الإشاعة التى روج لها بعض من أساء فهم التحليل النفسى ، وهى أنه « إذا عرف السبب بطل العجب » ، أو باستعمال جديد « إذا فسر العرض بطل المرض » ، وهى ما يمكن أن يسمى خدعة « الاستبصار العقلانى Intellectual introspection »
حيث يصبح تصور العلاج النفسى أنه مجرد رحلة استبصار لماهية النفس ، وأسباب « العقد » ، وتاريخ الطفولة . . الخ ، وقد يخدع المريض (وربما المعالج) نفسه فى أنها مجرد مرحلة انتظار يعقبها التزام وانطلاق وعمل . . ولكن فى خبرتى وجدت أنها مرحلة غير مضمونة النهاية - إن كان لها نهاية أصلا - ، وكل الآراء التى انتهت لخطوره هذه الوقفة الاستبصارية اعتبرتها أخطر من العمى الأصلى ، لأن شكلها جميل وتبريراتها جاهزة ، ولا يمكن تسميتها باسم مرض

معين ، وهنا تحل المعرفة (أعرف نفسى من جوه) محل الرؤية والمواجهة (علي شرط ما اشوفش) ، وحتى المتاح فى الرؤية هو طبقات بعضها فوق بعض ، وقد تغنى رؤية طبقة ما والاستغراق فيها عن رؤية الطبقات الأعمق والأهم (وقد توقف فرويد فى رؤيته عند طبقة اللاشعور الفردى المختزن رغم تصوره أنه غاص إلى أغوار النفس فى حين تعمق يونج إلى مناطق أعمق وأشمل) .

[٥٦] حتى إذا انتقلت «المعرفة» إلى «رؤية» ومواجهة وانتقلت الرؤية إلى كل ما يمكن من أعماق ، فإنها وحدها لا تكفى للنمو النفسى والتطور ، وهنا مهرب جديد حين يصبح التغيير (وهو الهدف الحقيقى من مسيرة الحياة) مطلباً مرعباً . . وبالتالى يؤجل تماماً . . ثم يلغى كلية ، إلا أن التمسك بما هو قائم « بعد أن يطلى طلاء آخر » هو النهاية السعيدة لكثير من محاولات العلاج وأوهام الشفاء .

[٥٧] وأكبر مايحول دون التغيير الفعلى (ذلك التغيير الذى أعلنت ضرورته بظهور الأعراض أنه(مغامرة محفوفة بالمخاطر لامحالة ؛ وهذا مصداق للمثل الشعبي السلبى القائل «اللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش» إلا أنه فى الموقف العلاجى تخرج المسألة عن مجرد « عرض » للتغيير ، لأنه موقف نابع من «أعراض المرض» التى لا تختفى فعلا بمعنى اللارجعة إلا إذا تم تغيراً أصيل ، أما اختباؤها تحت تهديد التغيير (وإن بدا مفيداً مرحلياً) فإنه عادة مؤقت أو مشوه، إذاً فاختفاء الأعراض فى حد ذاته ليس دليلا على التغير ، فقد يكون تراجعا عن المحاولة (وهذا نوع طيب من العلاج لاينبغى رفضه إذ أنه الأغلب على كل حال) .

[٥٨] موقف جديد ، هروبى أيضا فى العلاج النفسى (وفى الحياة) ، وهو موقف الاستسهال والاعتماد ، فالشائع عن العلاج النفسى أنه نزهة عقلية تفريغية لذيذة ، وغير ذلك مرفوض ابتداء ، ولكن واقع العلاج النفسى أنه مغامرة

محسوبة رائعة ، وهذه الفقرة تشرح تصور المريض — وأغلب الناس — أن ثمة تطوراً أو تغييراً يمكن أن يتم دون مشقة (من غير ما أعوم) . . الأمر الذى يخالف الواقع وطبيعة الأشياء ، وعلى المعالج أن يدرك ذلك ، حتى أنى أصبحت أشك فى كل تحسن أو تغير أو شفاء أو نمو أو غير ذلك من أسماء مماثلة إذا لم يصاحبها جميعاً درجة حقيقية من المعاناة الكافية والمخاطرة الكافية ، وفى نفس الوقت فإن هذه ليست دعوة لضرورة المعاناة ، فضبط « جرعة » الألم والمعاناة لازم . وهو وظيفة من وظائف المعالج الأساسية ، وعليه أن يحسب حساب كل هذه المقاومة بأشكالها المتعددة .

[٥٩] مناورة أخرى تتم فى العلاج النفسى وهى التى تسميها « التغيير الكاذب » بمعنى أن نوع الوجود لا يختلف ولكن يتغير لونه فحسب ، فيحل عرض محل عرض ، أو تحل بصيرة مرضية معوقة محل المرض أو تحل اللامبالاة محل

الانفعال الطفلى الفج ، كل هذا مجرد إحلال وإبدال وليس تغييراً ، وأغلب المرضى حين يمرون بالمأزق Impasse يصطنعون (لأنفسهم وللمعالج وللآخرين) موقفاً كأنه التغيير ذاته ، ولكنه فى الحقيقة خدعة تكشفها ضعف المعاناة ، ووضوح البصيرة دون فاعلية ، واستعمال الآخرين لإخفاء الأعراض (العلاقة التكافلية المخدّرة وسيأتى ذكرها بعد) وكأن التغيير قد تم فى دائرة مغلقة (من شطى لشطى) دون محاولة العبور الحقيقى .

[٦٠] كل هذه المهارب والمناورات إنما تنبع من الخوف الأزلى : خوف من الوجود ذاته راجع إلى صدمة الميلاد ، وخوف من الآخرين راجع إلى موقف التشكك من الأم (فى الطور البارنوى للنمو) وخوف من المجهول والجديد وخوف من الحرية (إريك فروم) وخوف من الإيمان* ،

---

* أشرت فى كتابى « مقدمة فى العلاج الجمعى » إلى هذا الخوف العميق الذى يظهر فى هذا النوع من العلاج خاصة وهو أشد أنواع الخوف .

ويقوم العلاج النفسى بوجهه السلبي أحيانا بأن يبرر هذا الخوف دون أن يكسره ، ويصبح ملطفا له وبالتالى مؤكداً لوجوده (وكأنه عوامة النجاه ولكنها مرتبطة ارتباطا وثيقاً بكيان الخوف الراسخ) ، ومن حق المريض بداهة أن يقل خوفه ، ولكن العلاج الحق هو الذى يهدف إلى مواجهة الخوف للانتصار عليه وليس مجرد التقليل منه .

[٦١] ووسط هذا الإعصار من التهديد بالتغيير ، والتحايل على تجنبه تمر الجلسات تلو الجلسات فى البحث عن الأسباب وكيفية حدوث ماحدث وتوقيت فترات التوقف والتعجب من كل ذلك سواء بالإنبهار أم بالتفسير المعقد . . وتقوم كل هذه المحاولات بدور تأجل التغيير إلى أجل غير مسمى ، وتصبح حكاية النمو خدعة حقيقية لايمكن الوصول إليها بهذا الأسلوب .

[٦٢] موقف تبريرى آخر . . يقوم به العلاج النفسى

تحت أوهام الشائع عن التحليل ، ويطلبه المريض بإلحاح مجيب (بطريق مباشر أو غير مباشر) وهو أن يلتمس له الطبيب العذر (يبقى أنا مظلوم) فى حين أن الاتجاه الإنسانى والنموى يحمّل المريض — روعة اتهام — مسئولية مرضـــه .. على الأقل فى مرحلة العلاج بمعنى أنه إذا كان المرض قد حدث فى ظروف قاهرة وضاغطة فإن وظيفة العلاج أن يعرض اختياراً بديلا بعد استنهاض إيجابيات المريض ، فالتماس العذر للمريض طول الوقت هو تثبيت لنوع قديم فاشـل من الوجود .. وهـذا ما عنيته فى البـداية والنهاية من أنها « جنازة » .

(شـكر الله سعيك) :

القرداتى

[٦٣] مسيرة الحياة عموما (إذا لم يتم التكامل ، وهو أمر شديد الندرة) هى مسيرة إلى رجعة ، وهذا ما عبر عنه الفكر التحليلى الحديث (المدرسة الإنجليزية: فيربرن وجانترب)

بالأنا الناكص دائم الجذب إلى وراء ، وما عرضته أيضاً المدارس الأخرى (التحليلية أيضاً) فى دراسة الرغبة الملحة للعودة للرحم ومظاهرها فى الأعراض النكوصية ، وكذلك فى رحلة الخارج والداخل أثناء النمو In and out program وأحياناً فى الإجازات الإيجابية من واقع الحياة (النكوص فى خدمة الأنا أو النكوص للتكيف الأعلى) ، كل هذه الاتجاهات تؤكد أهمية أن يكون لكل فرد «مرفأ» خاص (نفسى طبعاً) يركن إليه بين الحين والحين ليعاود منه الرحلة من جديد .

إلا أنه فى المرض النفسى يصبح هذا «المرفأ الخاص» شديد الإغراء دائم الجذب ، يمنع الفرد من أى مشاركة حقيقية أو تواصل بناء أو تبادل عاطفى ثرى فى مغامرة العلاقات البشرية بمخاطرها ، فإذا زاد هذا الجذب وعوق المسيرة إلى أمام، وظهر المرض، فلا بد أن ينتبه المعالج النفسى إلى خطورة

هذه المبادرة الملحة إذ قد يتقدم المريض نحو الشفاء (ظاهرياً) فيبدى تفهماً ، ويحاول تواصلا ، ويقترب من الواقع بشروط معوقة أهمها هنـــا أنه قادر على الهرب الشيزويدى بمجرد التهديد بعلاقة صادقة أو مسؤلية واقعية .

[٦٤] ويمكن المعالج أن يدرك أن التقدم خادع ، وأنها لعبة اليويو التى لا تنتهى حين يلاحظ الرجوع إلى نفس المستوى الوجودى السابق تحت أى تهديد بالاقتراب أو بالتواصل فإذا تكرر ذلك مراراً وتكراراً فإن المسألة لا تصبح علاجاً تطورياً بقدر ما تصبح تأجيلا وتسكيناً (وهذا طيب شريطة أن تعرف ذلك) وكل معالج يعرف هذه الخـــبرة : خبرة التحسن الخادع الرائع مظهرياً .... على شرط ألا يصبح ثابتا لا رجعة فيه ، ويلاحظ تكرار ذلك باستمرار ، وهذه من أعنف أنواع مقاومة الشخصيات الشيزويدية بوجه خاص ، إذ أنها سريعة الاستبصار ، يمكن أن تتجاوب لمـا ترى

على مستوى الأمل والرؤية ، ولكنها أشد الشخصيات عرضة للتراجع تماما إلى خط البداية وباستمرار .

[٦٥] ذكرت فى حاشية «٦٠» بعض أسباب هذا الخوف وطبيعته ، وهنا (وفى أماكن أخرى كثيرة تالية) سنواجه هذه المشكلة شديدة العمق فى وجودنا ، وأول ما تشير إليه هذه الفقرة هو أن هذا التراجع إلى الموقف المنعزل تماما إنما يحدث بسبب الخوف من العالم الخارجى ، وهذا الخوف يصل فى عالمنا أحيانا إلى درجة القتل ، قتل المشاعر وإلغاء محاولة التواصل ويصبح التعبير « خايف موت » تعبيراً شديد الدقة والحساسية ، ولكن التعبير الجديد الذى أكمل به هذا التعبير الشائع هو « أنا ميت خايف » ، وإنما عنيت به أنه حتى الإنسان الهارب من أحاسيسه الذى نكاد نطلق عليه لفظ ميت الإحساس أو المتبلد (سواء كان إنسانا عاديا ذا أحاسيس زائفة سفيهة ، أم كان مريضا متدهوراً بلا مشاعر ظاهرة

إطلاقا Apathetic) ،هذا الإنسان يحمل وراء موته الظاهرى هذا جرعة من الخوف هائلة تبرر هـذا الموت السطحى وتفسره . . ، وفى العلاج النفسى المكثف Intensive Psychotherapy فى حالات الفصام نخترق ستائر هذا الموت ونفاجأ بكمٍّ هائل من الرعب والتوجس فى عمق هـذه اللامبالاة وأحيانا ما يظهر فى صورة مفاجئة تأخذ شكل الملع Apprehension ، وأحيانا ما يدفع بالمريض إلى العدوان تخلصا منه وتفريغا ، وهنا أحب أن أنبه على أن الأحكام الظاهرية على تبلد شخص ما ، أو مريض ما ، أو موته ، أو عدوانيته ينبغى أن تكون أحكاما موقوتة وجزئية وخاصة إذا صدرت من الطبيب النفسى ، وإلا فإنها سوف تعوق رحلته مع المريض ، أما أنها موقوتة . . فلأن هذه مرحلة مهما طالت قابلة للتغير ومن مسئوليات الطبيب النفسى ، أن يساهم فى هذا التغير من خلال الموقف العلاجى ، أما أنها جزئية

فلأن وراء هذه اللامبلاة أو هذا الموت خوف عميق وخطير والعلاج يهدف أساساً إلى التخفيف منه كمرحلة أولى ثم مواجهته واختراقه كمرحلة ثانية أصعب وأخطر .

[٦٦] إشارة إلى أن هذا الخوف المختبي وراء الموت النفسى ، هو خوف من إعادة التجربة التى أدت إليه ، وهذا ما عنيته بأنه (بيخاف يصحى) أى أن أخشى ما يخشاه المريض هو أن يتعرض لخبرة إحياء المشاعر مما قد تحمله من أهوال المواجهة بالواقع مع الشعور القاسى بالعجز إزاءه ، وإذا أدرك الطبيب النفسى حقيقة هذا الموقف فإنه سوف يستفيد عدة فوائد علاجية فى توجيه أسلوبه :

(١) فهو سيحترم اللامبالاة والموت النفسى بالنظر إلى ما وراءهما ووظيفتهما (٢) وهو سيشعر بالمسئولية تجاه محاولة الانتصار عليهما (٣) وهو سوف يدرك صعوبة اختلافهما لما يحمل

ذلك وراءه من رعب حقيقى (٤) وهو سيتأنى فى هذه المغامرة إذاً .. ويهيىء لها أفضل الظروف لإعادة الخبرة دون هذا الكم الهائل من الرعب ..

وإذا كان هذا هو موقف الطبيب النفسى إذا أراد الخوض فى تجربة العلاج المكثف ، فإن معالمه قد تفيد غير الطبيب ممن يتصدى للإسهام فى مسيرة التطور فى مجالات التربية والفن والسياسة على حد سواء .

[٦٧] وإذا ما أغفل تقدير صعوبة هذا الموقف ، فإن العلاج قد يأخذ صوراً سلبية لمجرد إضاعة الوقت (نقعد مع بعض) سواء كان هذا إشارة إلى جلسة العلاج الفردى بين الطبيب والمريض، أم جلسة العلاج الجمعى ، أم إهلاك الوقت بالمناقشات والمقابلات الاجتماعية التفريغية .

[٦٨] إشارة إلى الدعوة المعلنة بشكل ما من أن بعض أنواع العلاج النفسى هو دعوة لإحياء الأحاسيس ، غير أن

هذه الدعوة ذاتها لو اقتصرت على معنى الإحساس المجرد ، تصبح نكتة ، وأهم مدرسة تنادى بذلك (ولكن بشروط إيجابية بعض الشيء) هي مدرسة العلاج الجشتالطى ، وأهم حركة تشير إلى المظهر الاجتماعى المقابل هى حركة الشباب الهيبى وما يشابهها من دعوات العودة إلى الطبيعة و إيقاظ الإحساس وتنبيه الوعى إلى أدنى ، وإن كان كل ذلك لازم على مسيرة النمو، فهو خطير إذا توقفنا عنده بديلا عن الرمز حتى لو كان فاشلاً ، أو عن العمل حتى ولو كان قهراً .

[٦٩] عودة إلى الإشارة إلى لا جدوى الكلام .. مهما طال . راجع أيضاً حاشية [٢٠] .

[٧٠] دعوى أخرى خطيرة إذا لم تأخذ حقها فى العمق وأبعادها فى المعنى ، فكثيراً ما تُتبادل مثل كلمات الحب الإنسانى فى موقف العلاج الجمعى تأكيداً للتواصل الإنسانى البناء ، والتى غالباً ما يساء فهمها ويساء استعمالها ، فيقف مثل هذا

المريض الشيزويدى (صاحب هـذه الصورة) موقف الناقد الرافض الحذر وكثيراً ما سألنى بعض المرضى عن ما هو الحب الذى يعلن عن احتمال وجوده بين البشر (بين الحين والحين) والذى يبدو العـلاج النفسى وكأنه دعوة إليه ، وذات مرة أجبت أحدهم (وعادة ما لا أجيب ..) « هو أن يراك آخر بحجمك الحقيقى بخيرك وشرك، بقوتك وضعفك، ويستمر معك يصاحبك فى رحلتك ،لا تختلط عليه أمورك ، ومن ثمّ يدعك تنمو من خـلال صحبته واحتكاكه الواعى ؛ إذ يقل ضعفك وبالتالى شرك ؛ ويزيد خيرك من خلال قوتك .. وتستطيع أن تنفصلا دائماً بعد حين بلا مشقة لتعود فى هدوء باختيار واع أو لا تعود » فأين هذه الصورة من استعمال هذه الألفاظ بمعنى «الاعتماد» و«الرغبة» و«الاحتياج» و«الذوبان».. الخ، إذاً لابد أن يعلن هنا أن الرفض العميق لمثل هـذا الموقف من جانب هـــذا المريض الشيزويدي الحذر هو رفض ـ فى الأغلب ـ له ما يبرره .

[٧١] رغم الرفض لهذه الخدعة فى عمق أعماق وجود مثل هذا المريض، فإنه قد يستمر فى العلاج ومظاهر التقدم الكاذب والتواصل (مع وقف التنفيذ) وقد يخدع بذلك الطبيب وخاصة إذا كان متحمساً مثالياً آملا ، وكأن المريض بإرضاء حماس الطبيب وآماله ظاهرياً ، يعفى نفسه من مخاطر التغيير وفى نفس الوقت يخدع الطبيب ، وكثير من الأطباء من يقرر ويتصور أنه أحرز تقدماً ونجاحا مع هـذا المريض أو ذاك دون انتباه إلى مثل هذه الخدع والمهارب مما يثير قضية خطيرة تتعلق بتقييم التقدم فى العلاج، الأمر الذى يعلن أن الأبحاث فى هذا الصدد لم تنته إلى أى طريقة ناجعة أمينة لتقويم العلاج ، وفُتح بذلك باب التفاخر والادعاء بين المدارس المختلفة .

ريحة بنى آدم

[٧٢] موقف أكثر تفصيلا لخـدعة التفريغ الظاهرى فى العلاج النفسى على لسان الجزء الأعمق من النفس، وهو تصوير

لسطحية المحتوى التحليلى الغالب على الفكر الفرويدى ، لأننا لو تعمقنا هذا الجزء الأعمق من الوجود البشرى لرأينا هذه التفاصيل السطحية التى تملأ جلسات التحليل النفسى مجرد مظاهر جزئية لمشكلة الوجود الأعمق ، والوحدة القاسية البشعة، وعلى لسان هذا الجزء تصبح صورة المريض التى فى متناول العلاج ليست هى حقيقته وإنما غطاؤه ، فما يضيره أن يعيد المعالج تركيبها وترتيبها وهى مجرد قشره ، بل إنه ليسخر من هذه المحاولة السطحية المبسطة (وهذا الموقف يعرفه الذهانيون خاصة سواء المرضى منهم أم ذوى الرؤية الذهانية وأحيانا ما يمارسونه بوعى جزئى على الأقل) ، ومن موقف السخرية هذا تبدو قصص الشعور بالذنب ، وعقد النقص والفشل فى الحب مجرد تفريغ كلامى، قد يخفف الضغط عن الجزء الأعلى من الشخصية ولكنه لا يغوص إلى جوهر مشكلة الوجود .

[٧٣] تأكيد للمعنى السابق [٧٢] من أن ما يتصوره الطبيب أحيانا نهاية التعرى البناء ما هو إلا غطاء سميك لما بعده .

[٧٤] أما لماذا يحجب المريض الجزء الأعمق والأهم من نفسه فى هذا الموقف العلاجى ، فلأن الطبيب — حقيقة أو على حد تصور المريض — لا يعرف عنه شيئاً ، وهو غير معد لاستقباله أو صحبته أو العمل على إظهاره ، وبالتالى فهو بعيد عن استكمال الوجود بالتحامه مع باقى الأجزاء ، وهذا الجزء الأعمق يسخر من السؤال الطبى التقليدى « بتحس بإيه ؟ » إذ أنه يصور — أحياناً — أن هذا السؤال على هذا المستوى الأعمق لا معنى له ، فمشكلة الوجود صارخة ومشتركة وعامة ، ولعل هذا مايميز بعض أنواع العلاج الجمعى ذا الطابع الوجودى الأعمق حين تذوب هذه التفاصيل الظاهرية فى نار مشاكل الوجود والوحدة والاغتراب والعجز عن التواصل ، حتى أن صديقاً مريضاً قال لى مرة « إذاً فأنت تضحك علينا حين نأتى لك بهذه الأعراض أو تلك ، فترمينا فى هذه النار الأعمق وننسى فى وهج لهيبها ما جئنا من أجله » وأجبته بالإيجاب مع

بعض التحفظات التى تتعلق باختياره للاستمرار بعد اختفاء الأعراض والاكتفاء بلهيب مشكلة الوجود ، إذاً فهذا هو مطلبه ضمنا بدليل استمراره .. أو بألفاظ أخرى : أنا لا ألقى به فى النار ولكنى أريه إياها داخله،ثم هو يحضر بعد ذلك... ليمشى على الصراط محفوفا بها .

[٧٥] موقف بشع آخر ، حين يطلب الطبيب من المريض أن يوقظ إحساسه ليتغلب على اللامبالاة مثلا ، وهو لا يدرى عبء ما يطلب ولا خطورته وكثيراً ما سمعت بعض مساعدىّ الشباب فى أول طريقهم وهم يطلبون هذا الطلب مباشرة من المريض «حسْ ، .. حس يا أخى ... ! » وكثيراً ما كنت أرى الرفض فى عمق أعماقه والنظرة العاتبة إلَىّ من طرف عينىْ المريض تقول (لماذا تدعنى هكذا فى أيديهم وأنت تعرف الحكاية ؟) أو أرى استجابته الساخرة المنهكة ، والهاتف من داخله يقول للمعالج : «يعنى انت اللى بتحس »

وفى هذه الفقرة تنبيه لخطورة مثل هذه الألفاظ ومثل هذه المواقف حين يتصور الطبيب فى أول خبرته خاصة أنه هو صاحب الإحساس الحى ، وأن المريض فاقد الإحساس وعليه أن يتشبه به و بتفاعله ، فشتان بين الإحساس لإنسان ماتت مشاعره رعبا ، و بين الطبيب وأحاسيسه السهلة من موقفه القادر الهادى المستريح .

[٧٦] إهانة أخرى قد تلحق المريض بحسن نية ، حين يكون مادة « للدرس » ، وهذه المشكلة الأخلاقية الإنسانية الصعبة تثير جدلا خطيراً فى المجالات الطبية حول : إلى أى مدى يحق للأطباء أن يتعلموا «على المرضى » ويحق للأساتذة أن يعلموا طلبتهم باستعراض المرضى ، والمبرر الأخلاقى لذلك هو أن هذا التعليم سوف يعد أساسا وأجيالا قادرة على تخفيف آلام أعداد متزايدة من المرضى و بذلك فهى ضريبة يدفعها بعض المرضى لزملائهم فيما بعد ، فإن صح ذلك من

وجهة نظر معينة ، فإن المريض الفرد لا يعنيه هذا أصلا . . . ومن هنا وجب التحذير . .

فوجود المريض للتدريس ينبغى أن يقتصر على الجزء من الدرس الذى سيشارك فيه بالحوار فقط ، أما شرح حالته وتفسير أعراضه والكلام عنه فينبغى أن يسبق ويلحق المقابلة، أو بتعبير آخر أنه ينبغى أن يكون الحديث فى وجود المريض؛ « معه » وليس « عنه » ، هذه واحدة ، أما الثانية فينبغى استئذانه (مهما كان ذهانيا) وشرح أبعاد الموقف له ، أما الثالثة : فيستحسن أخذ رأيه فيما يقال بنفس الدرجة التى قد نطلب فيها رأى الأساتذة والمتعلمين ، فمثل ما نسأل طالبا « إيه رأيك فى المريض؟ » قد نسأل المريض إيه رأيك فى هذا الطالب أو ذاك أو فى الأستاذ نفسه ، كل هذه عوامل ليست مخففة فحسب ، ولكنها لا تلغى الألم المغنى الذى يعتمل بداخل المريض من مثل هذه الخبرة حتى ولو لم تبد عليه أية بادرة اعتراض أو احتجاج .

[٧٧] يلاحظ فى هـذه المقطوعة — مثل مقطوعات أخرى البداية بـ « لا » ، وهـذا هو الطابع الأغلب لكل الجنازات ، يعلن أن التغيير صعب ، وأن ما هو قائم أضمن وأكثر راحة (لاحظ مثلا الجنازة الأولى التى تبدأ : لأمش لاعب .. الخ) وهنا تهدد الرؤية بإعلان الوفاة النفسية ، بمعنى أن يرى الإنسان لا جـدوى وجوده إن استمر يلتحف بهذا الزيف . ويلف فى هذه الدوائر المغلقة ، وبديهى أن الحديث هنا أيضا على لسان الجزء الأعمق من النفس يترجم أعماق المقاومة فى ألفاظ .

[٧٨] لو أدرك أى منا أن ما يؤديه فى الحياة من لذة موقوتة ، وإشباع مجهض ، ونهم وقتى . . . وخدر فاتر . . . لو أدرك أن هذا كله ما هو إلا وسائل تدهورية ما لم تلتحم

بالوجود الإنسانى الأكمل، إذاً فهذا الإدراك ذاته هو إعلان الموت النفسى .. الأمر الذى قد يُفقد كل هذه الوسائل لذتها ويحرق لعبتها، ولهذا فإن «عدم الرؤية» هى ضرورة لاستمرار هذه الوسائل بشكل أو بآخر ، وكثيراً ما يكون « إعلان ما يجرى « مصيبة حقيقيـة » تسمى « الاكتئاب » الذى لا يعدو أن يكون فى صورة ما من صوره مجرد تسمية الأشياء بأسمائها (الموت علنا) .

(٧٩) ومن الخدع الكبرى التى تختبىء فيها أوهام الذاتية السطحية وتبرير الوجود الزائف خدعة « الاعتداد بالرأى » ـ أى رأى ـ دون محاولة البحث الهادف عن الاحتمال الآخر فى كل مرحلة ، بحيث يصل «الثبات على المبدأ» إلى التعصب، ومن ثم إلى توقف النمو والإبداع .

[٨٠] وخدعة أكبر هى وهم «الاختيار» ، إذ كيف يكون الاختيار حقاً وصدقا والوعى ناقص مبتور، وبديهى أن كلا

منا لابد أن يختار فى حدود وعيه ولكن عليه أن يكون متواضعاً فعلا حين يدرك أن كل اختيار لا يمثل إلا مرحلة وجود ما ، وأنه لا يعنى الحرية بقدر ما يعنى ضيق الأفق ، ورؤية المكتئب (أو المتيقظ) لهذه الحقيقة هى رؤية مزعجة .. والجزء الأعمق من النفس يشير فى سخريته اللاذعة إلى خدعة الاختيار .. ويعرّى السطحية التافهة بالمقارنة بخبرة الوجود الأعمق .

[٨١] هجوم آخر على محاولة إيقاظ الإحساس من طبيب (أو معالج) لا يدرك أبعاد الهول المنتظر ، وهى تكملة لما أشرت إليه فى الحاشية (٧٥) من أن محاولة إيقاظ الإحساس والمخاطرة بإعادة خوض تجربة المواجهة الحية لابد وأن يهيّأ لها الجو المناسب والصاحب المناسب فى الوقت المناسب ، وإلا أصبحت عبثاً خطيراً يحمل مخاطر التمايز المجنون ، أو أصبحت مجرد فرجة علمية أو مهنية .

وهذا رمز لما يمكن أن يصير إليه العلاج النفسى من أن يصبح مجرد شرح لما هو كائن ، أو إعلان فساد حياة قائمة تجمدت ، وتصبح حكاية العلاج والتشخيصات مجرد إعلان للعجز والتوقف مع شرح الأسباب و كفى .

[٨٢] وحين يكون الأمر كذلك.. فالأولى ألا يتضمن العلاج أى درجة من قسوة المواجهة (ضرب الميت) .. وأن يكتفى بالعزاء والإعلام . . دون أى محاولة تغيير جاد .

لله يا سيادى

[٨٤] إشارة أخرى إلى سوء استعمال العلاج النفسى حين يصبح مجرد مجال لاستدرار العطف والشفقة واستجداء التقبل بلا شروط .

[٨٥] وفى نفس الاتجاه ، قد يقوم العلاج النفسى بتهيئة الجو للنكوص لمجرد الاستمتاع بلذة اللا مسئولية .

[٨٦] تسمى نفس هذه الظاهرة فى العلاج الجمعى (على حد تعبير بيون Bion عن الموقات الأساسية) ، تسمى ظاهرة « الاعتماد » Dependency وهى ظاهرة توقف النمو ، وهنا إعلان أن مثل هذا التوقف هو الموت ذاته (على خشبة نعش)

[٨٧] أحيانا يحكى المريض عن مشاكله ، وكأنها لا تخصه ، وأحيانا يعلن مقاومة التغيير بشكل يوحى أن قضية التطور التى أعلنت بظهور الأعراض لا تعنيه ، وهـــذا الموقف «وانا مالى» ترجمة ساخرة لهذا التناقض الذى يجمع بين طلب النصح والمعونة مع رفض الرؤية والتمسك بالتوقف تماما عن أى محاولة تغيير ، وهذا الموقف السلبى قد ينميه الاعتماد على قدرات الطبيب وكأن المفروض أن يقوم هو عن المريض بكل العمل .. بنفس الشروط : لا تغيير .

شبه الإنسان

[٨٨] من أصعب ما يوجه الطبيب النفسى أن يعالج « أصحاب المبادئ الثابتة » وقد شغلتنى هذه القضية فى مهنتى أيما انشغال ، وهى أن تحل المناداة بالمبادئ المثالية : سماوية كانت أم إنسانية ، محل الحياة الواقعيـــة اليومية، وتبدو المبادئ التقدمية المـادية أكثر إغراء للشباب من غيرها ، إلا أنى فى خبرتى الخاصـة عانيت تماما من مواجهة حقيقة مزعجة وهى : أن المناداة بهذه المبـادئ قد تغنى عن محاولة تحقيقها فى الحياة اليومية كما لاحظت كذلك أن بعض أصحابها يجدون رداً جاهزاً لكل سؤال دون محاولة اختباره بالتجربة والممارسة ، ورغم أن هذه قضية تبدو عامة أو سياسية إلا أنه فى موقف العلاج النفسى تقفز مثل هذه المبادئ باستمرار .. لتشل كل محاولة استكشاف فردية . . أو مواجهة حقيقية ، وفى العلاج الجمعى لاحظت أن أكثر أفراد العلاج اغترابا

عن « هنا » و « الآن » هم الجاهزون بهذه الأفيشات البراقة، وحين كنت أصر أن أجذب بعضهم إلى اللحظة الراهنة ، كان الواحد منهم يكاد يطلق عدوانه بلا هوادة احتجاجا على « رجعيتى وخداعى ومحاولة غسيلى لمخـه ... الخ » أو « احتجاجا على بعدى عن التعاليم المقدسة التى يؤمن هو بها » .. وهما احتجاجان متكافئان فى وظيفتهما الهروبية .

[٨٩] وكما يستغرق الشخص الرأسمالى جمع المال، ويكتمل اغترابه حين ينسى أن هذا المال ليس إلا وسيلة لتحقيق قدرته وإطلاق حيويته وتأمين وجوده .. ومن ثم اكتساب حرية داخلية تعقبها فاعلية الخلق والعطاء ، كذلك فإن مثـل هذا الشخص « المبادئى » فى هذه الصورة يستغرق جمع الأفـكار والمبادئ وتسلسـل المنطق والدفاع النظرى والانتصار « النقاشى » ، ويكتمل اغترابه بالابتعاد المنظم عن ذاته وعن أرض الواقع الفردى وعن مواجهة مشاكل الوجود فى نطاقها الحى ، وينسى إذ ذاك أن التفسـير المادى والعدل

الاقتصادى هما أفضل وسيلة لتحرر الإنسان وإطلاق قدراته،
وبغير تحقيق هـذا الهدف على أرض الواقع فإن النتيجة
فى التطبيق هى « ميكنة الإنسان » والقضاء على طاقاته
المبدعة ، ورغم أن السابقين فى هذا المضمار قد أدركوا ذلك
ويحاولون ألا ينسوا الهـدف الأصلى من كل هذه الوسائل
وهو تحقيق درجة أعمق من الوعى ودرجة أشمل من الحرية
لأكبر عدد من البشر ، بالرغم من ذلك فإنى فى ممارستى
«المحلية» عانيت وأعانى من هـذا الدفاع الهروبى وهو
الاكتفاء بحفظ قواعد اللعبة بديلا عن ممارسة اللعب فعلاً
ولو فى أضيق مجال فردى . ، ويتصـور البعض أن إرضاء
الحاجات المادية والغرائز الأولى كفيل تلقائيا بأن يطلق
الحاجات الإنسانية الأعلى ومنها الحرية الداخلية والوعى ،
إلا أنه فى التطبيق لا يجرى المسيرة تسلسـلا هادئا ولـكنها
معركة تطورية عنيفة ليست أقل من كل المعارك المهولة التى
يتطلبها طريق التطور البشرى ولابد للاستعداد لها (والإعداد

لها) منذ البداية سواء كانت الوسيلة نظام دولة اقتصادى عادل فعلا ، أم كانت الوسيلة رفاهية شعب حتى لو اختلفت درجات رفاهية طبقاته .ا دام كل (أو أغلب) إمكانيات أفراده المادية تعمل فى التنمية والإنتاج لإعطاء الفرصة فى النهاية لأكبر عدد من الأفراد للانطلاق فى التطور البشرى. أقول إن القضية فى رأيى لم تعد « أى نظام اقتصادى أفضل » بقدر ما هى « كم نسبة عدد الأفراد الذين تتاح لهم فرصة التطور البشرى فى أمان نسبى فى أى نظام من النظم » ، أما معيار هذا التطور فهو معيار صعب لا يقاس بالحرية المزعومة فى الدول الديمقراطية حتى العريق منها ، ولا يقاس بالعدل النسبى فى الدول الاشتراكية أو الشيوعية فى المأكل والمسكن والملبس ، وإنما يقاس باستمرار التغير والتغيير فى أكبر عدد من الأفراد ، الأمر الذى يدعيه كل من الفريقين تحت أسماء مختلفة والذى يشكك فيه كل من الفريقين تحت دعاوى مختلفة ، وعندى أن المسألة الآن أكبر

من الاختلاف بين النظم ، حيث أتصور أن المسعى ينبغي أن يتركز في أن تسود قيمتان أساسيتان (نسبيتين بالضرورة) وهما العدل والعمل وفي مهنتي لا بد وأن أقيس العـــدل في أعمق درجاته اليومية (في العلاقات الغراميـة والزواجية والأسرية مثلا) ، أما العمـل فهو ما يحفظ الأود أولا ثم ما يطلق القدرات . . ، وكثيرا ما كانت هذه المحفوظات من المبادئ تغني عن اختبار ممارسة هاتين القيمتين الضروريتين [لذلك لزم التنويه . !!]

[٩٠] وقد قابلت ـ في خبرتي الفردية العيادية الضيقة ـ من يتخذ دعاوى رفع الظلم عن الكادحين ، والحديث عن الجياع والرعاع والاستغلال مهربا صريحا لقلقه الداخلي المنبع أساسا ، وهو سرعان ما يهدأ إذ يُسقط هذا القلق على مشكلة عامة حتى ولو لم يلحق هذا الإسقاط مشغولية فعلية وألم حي ، وأصبح الإرهاب الفكري يتربص بكل من يتكلم عن تمييز بشري حتى لو كان هذا التمييز على سلم التطور الطبيعي ، وقد

حاولت أن أسائل نفسى عن هذه السكينة الظاهرية التى يتحلى بها بعض أصحاب هـــذه الآراء ووجدتها أحيانا أقرب إلى اللا مبالاة بعـد « تصور » حل كل شىء بمجرد الحديث عنه . . ، ولـكن حين تظهر أعراض المرض تبدأ المراجعة . . وما يكاد التغيير يفرض نفسه من خلال الاختبار اليومى ، والمواجهة العلاجية حتى تبدأ وظيفة هذه الأفـكار الدفاعية فى التجسد . ثم نـكتشف ســويا من خلال المحاولة الجادة فى العلاج أو فى الحياة أن الافتقار إلى الحب (الحب بالمعنى الوارد فى حاشـية (٧٠) وليس بالمعنى الداعر المبتذل ، ينبغى أن ننتبه إليه بنفس القدر الذى يناله انتباهنا إلى الافتقار إلى لقمة العيش ، ولا أكاد أعلن هذا للمريض أو غيره حتى تصوب إلىّ فوهات الأفـكار الحامية . . . حينئذ لا أملك إلا أن ألوى ذراع حامل بندقية المساواة المزعومة ، أو الجنة الموعودة ، بأن أذكره بأعراضه ومعناها ومدى علاقتها باختياره إما أن تختفى « هنا » و « الآن » وأن يكون على مستوى

صياحه فى وجوده الذاتى وعلاقاته الخاصة فالعامة ، وإما أن يراجع نفسه ويواصل الجهادين الأكبر والأصغر معا، الأكبر فى الداخل والأصغر فى الخارج ، وتبدأ المعركة وقد لا تنتهى .

وتثار قضية جديدة وهى أنه لا سبيل إلى الحديث عن الحب والعطاء والتطور البشرى ما دامت البطون جائعة ، وأكاد أصدقها بعض الوقت ولكنى أتلفت فأجد أن امتلاء البطن وحده ليس ضمانا بحال لأن تنطلق قدرات التطور ، بل إن البطن وهى تمتلىء حتى فى مجتمع يحاول أن يمارس العدل الاقتصادى . . قد يمتلىء معها كياننا أيضا بالخوف ، والذل ، والحاجة إلى الحب الذى قد تضطر الإنسان أن يدفع فى مقابله كل شىء . . ثم فى الحقيقة لا يحصل على شىء إلا « الرضا » أو « القبول الظاهرى »

ووظيفتى تتعلق بتقويم الوجود الفردى وتعديل مساره ، والخروج بها إلى مناقشة المشاكل الجماعية مهرب خطير ، فهى لا تحل محل العمل السياسى ولكنها تكمله ،

وهنا استطراد جديد وهو أن من رأيى أن خطين متوازيين لا بد أن يسيرا جنبا إلى جنب فى المجتمع وهما العمل السياسى (ويشمل النظام الاقتصادى بشكل ما) والعمل الحضارى ؛ وأعنى به تنمية القيمة الداخلية عند الإنسان الفرد التى تؤكد امتداد وجوده فى الآخرين طولا (عبر التاريخ) وعرضا (مسئوليته نحو الآخرين) وهذا العمل الحضارى هو الذى يجعل النتائج السياسية للثورات ذات معنى .. وهو الضمان الوحيد للتطبيق الأقرب إلى النظرية ، أما ماهية هذه « القيمة الداخلية » فهى تكمن فى جوهر الأديان (وما لم يشوه من مناسكها) كما تستمد من حقيقة المبادئ (وما لم يستغل من نظمها) ..

فإذا كان العدل والعمل هما الوسيلة ، فالعدل هنا يشمل القانون الخارجى ودعاوى إمكان تطبيقه دائما مشتركة مُدّعاه ، وحقيقة إمكان تطبيقه دائما مشكوك فيها ، ولا ضمان لعدل أشمل إلا بقانون داخلى بالاضافة إلى القانون الخارجى ،

وتعريف « القانون » عندى هو توحيد القاعدة التى تسرى على الفرد وعلى كل الناس بمقاييس داخليه محددة ، وينبغى أن يكمل القانون الداخلى (قواعد الإنسان الخاصة بحياته الخاصة) القانون الخارجى . . وهنا يسقط أغلب من قابلت فى اختبار التميز العائلي والشخصى .. وتصبح الأمور نسبية ..ولا بأس عندى من « التفويت » ما دامت هذه هى مرحلة تطورنا . . على ألا يكون الاعتراف بالواقع هو مبرر للتسليم المطلق له .

[٩١] ديالوج اعتراضى يؤكد أن صاحب هذه الدعاوى المبدئيـة يفتقر فى كثير من الأحيان إلى الأمان الأولى ، والحب الحقيقى الذى يتيح له نمواً مستمراً ، وأن القيم المادية التى بولغ فى تقديسها سطحيا (رغم أن الحب فى جوهره قيمة مادية) قد شوهت القيم الإنسانية الأعمق بغباء يضرها هى ذاتها فى النهاية .

[٩٢] وهذا التصوير الساخر الذى يعترض على تصور إمكان المساواة بمجرد العدل الممكن ظاهريا ، ينبه إلى حاجة الإنسان الأعمق إلى حقه فى التقبل والأمان ، الأمر الذى لا يمكن أن يتم إلا فرديا مع عمل دائب متصاعد يوسع الدائرة الفردية لتشمل دائما الأدنى فالأدنى، حتى تصل إلى كل الناس ولو على المدى الطويل ، كما أنه يشير بطريقة أخرى إلى أن هذا الشخص « المكتفى بالكلام المبدئى » إنما يدارى حاجته الشديدة الداخلية إلى هذا الأمان بالترديد المستمر لألفاظ المبادئ البراقة .

[٩٣] يحلو لبعض أصحاب المبادئ الجديدة أن يهاجموا عبادة الأصنام ، والتسليم للخرافة ، وتقديس القديم ، فى الوقت الذى قد يقعون فيه دون وعى كامل فى نفس المحاذير ، وكل الفرق هو أنهم يعيدون كلاما جديداً ربما يكون مستورداً .. ، ولكنه أيضا قد يكون نقشا مقدسا فى مقام مادى مقدس ، وللأسف فإن كل ذلك هو توقف بالتطور لا محالة . وهو إنما يتم على حساب

الجوهر الإنسانى الإنسانى الأصيل . . ولا يبقى إلا هيكل يشبه الإنسان وليس بإنسان ، وأحذر من استقبال هــذه الصورة على أنها إنقاص لقدر المبادئ ذاتها ، بل هى تنبيه إلى خطورة ســوء استعمالها والاكتفاء بالاختباء فيها من المواجهة الذاتية .

حمام الزاجل

[٩٤] معاناة أخرى يلقاها الطبيب النفسى — إن صدق مع نفسه وحاول أن يصدق فى الممارسة — وهى التعرض لمشكلة الحب الثنائى المخــدر ، ورغم أن الطبيب لا يملك — وليس من طبيعة عمله أن يفعل ـ التصدى لهذه القيمة التى تعلن نقص الإنسان باحتياجه لآخر لدرجة بعده عن الحل الأمثل بعداً حقيقياً . والتى تعلن فى نفس الوقت صعوبة العــدل المطلق والحرية المطلقة ، أقول أنه لا يتصدى لهذه القيمة ابتداء ، إلا أنها هى التى تتصدى له حين تفشل (وهو نفس القياس

بالنسبة للجنازة السابقة فهو لا يتصدى لأصحاب المبادئ
فى ممارسته لمهنته ولـكن بعضهم هم الذين يأتون بأعراضهم
ومعاناتهم . .)وقد يفرح البعض بهذا التحديد ليشهر الدعوى
بأن رؤية الطبيب النفسى ليست سوى رؤية الأمثلة الفاشلة
والمريضة . . أما حقيقة المجتمع الأوسع فهى غير ذلك وأنا
معهم . . فى هذا الاعتراض مبدئياً لأحافظ على أملى فى عينة
أفضل ثم أرجع إلى التصدى لعلاقات« الحب الثنائى» التى من
أهم صورها « الزواج » :

يأتى المريض ضائقاً ضجراً ، عنده من الأعراض ما عنده
نتيجة فشل نوع معين من السلوك أو نوع معين من العلاقة
(هنا : الحب الثنائى كالزواج .. الخ) ، فإذا اكتشف من
واقع العلاج حلولا بديلة (ليست بديلة فى الشـكل بالضرورة
ولـكن فى المحتوى وطبيعة العلاقة مثـل أن يحب كل الناس
سواسية وأن يكون الشريك شريك بالأصالة عن نفسه

والنيابة عن الجنس الآخر — فى نفس الوقت) إذاا كتشف ذلك قد يرعب ويتراجع ، وقد تختفى الأعراض مؤقتاً وكثيراً ما لا تختفى ، ولكنه — مثلما هو الحال فى صعوبات العلاج النفسى المعروضة هنا ـ لا يقبل التغيير بسهولة أبداً ، والمقاومة هنا تبدأ بإعلان التمسك بالقيم السائدة (زى بقيت الناس) حتى ولو فشلت هذه القيم بظهور الأعراض ! !

[٩٥] إشارة إلى أن أهم ما يُفشل هذه العلاقة الثنائية هو هذا الامتلاك الذى يدل على عدم الأمان أساساً .

[٩٦] وثانى ما يُفشل هذه العلاقة هو الاعتمادية المطلقة ، والمصيبة أن الحب الشائع حالياً ينمى هذه القيم بشكل مبالغ فيه ، دون إدراك أنها أصبحت قيم غير قادرة على استيعاب آمال الإنسان فى الحرية والانطلاق وليس هنا

مجال ذكر بعض الأمثلة المترددة فى الأغانى الشائعة مثلا (احنا من غيرك ولا حاجة . .)

والمصيبة الثانية أن هذا الذوبان والاعتماد وتبادل الانجذاب يكثر فى الأوساط التى تتصور نفسها تقدمية وثقافية أكبر من الأوساط الطبيعية والتلقائية مثل مجتمع الفلاحين ، ولا أذيع سراً إذا أنا أشرت إلى أنى كتبت هذه المجموعة من واقع مقاومة اثنين من الأصدقاء على أعلى درجة من الثقافة وتصور التحرر ، وقد حدث التلاقى بينهما أثناء العلاج الجمعى (ويدرج هذا التلاقى تحت معوقات العلاج الجمعى الذى أشار إليها بيون ويسميه الثنائية Pairing) وحين حاولت أن أعلن طبيعة هذه العلاقة ومخاطرها فى مرحلة النمو هذه ، ثارت ضدى المقاومة كأعنف ما تكون .. وكانت هذه المقطوعة نتاج هذه الرؤية .

[٩٧] إشارة إلى أنه لا الامتلاك ولا الاعتماد المطلق

بكافيين لإعطاء الأمان من خلال هذه العلاقة الثنائية ، فيضاف إليهما القيود المتزايدة نتيجة للخوف من الهجر والضياع .

[٩٨] يتصور البعض أن العلاج النفسى (وبدائله فى المجتمع من مقابلات ومناقشات وفتاوى ومقالات .. الخ) يبدأ وينتهى بالكلام ، وأن النوايا الطيبة تكفى عن المحاولة الفردية الجادة ، وكانت صاحبتنا هنا شديدة الحماس للكلام عن الناس والمطلق والحرية ، وحين دخلت الاختبار الحقيقى هربت بكل ما عندها من قوة ، وكان لسان حالها يردد هذا المنطق .. أن الكلام شيء لابد أن يساير به الشائع وندعى اهتمام الكل بالكل .. والتخلى عن الامتلاك والخصوصية .. الخ ولا يهم بعد ذلك أن نحقق شيئاً من هذا أبداً ، وكان لدى دائما فى مجال العلاج — وفى الحياة أحيانا — ثلاث قياسات أختبر بهما أصحاب المبادئ الكلامية وهم : الجنس (الثنائى بوجه خاص والزواج بوجه أخص) والمال ، والسلطة ، فمن لم

يخض بحورها جميعا وينجح أثناء استمراره فيها فى التمسك بقمتى العدل والعمل ، شككت فى أمره ووضعت مبادئه وأفكاره

بين قوسين انتظاراً للاختبار العملى ، وكثير منهم يتجنبون دخول هذه الامتحانات أساساً فلا هم يتزوجون ، ولا هم يجرؤون على امتلاك المال وحسن استعماله ،ولا هم يتصدون لسلطة تضعهم — ولو أمام أنفسهم — موضع المساءلة ، وكانت هذه المقاييس الثلاث تؤكد لى خوفى من أن ينتصر أصحاب الكلام فى موجة حماس كاذب، ثم يدفع عامة الناس ثمن نقصهم حين يصبح الاختبار ، الذى كان ينبغى أن يتم قبلا ، يصبح مجاله عاما ، وبالتالى يصبح فشله مضاعفاً لأنه فشل يشمل عدد من يتحكمون فيهم . . . وهذا مجرد تخوف أذكره هنا أمانة ، ولكنى لا أعلم له بديلا حقيقياً إلا الإصرار عَلَى أن يوا كب المناداة بالمبادئ ؛ تكوين الأفراد الذين يمثلونها لحماً ودما فى مختلف الظروف .

[٩٩] ويبلغ التراجع أحياناً مبلغ التسليم بالأمر الواقع والعدول عن « كل محاولة » عامة (ربما إلا ترديد الكلام في مجال ليس فيه اختبار حقيقي).

[١٠٠] وأهم ما يُفشل العلاقة الثنائية المغلقة (بلا ناس داخلها ومن خلالها) هي أنها ليست حبا بالمعنى البناء (راجع ثانية حاشية ٧٠) ولكنها احتياج لأن « يرغبني أحد هكذا .. أو حتى يرضى بظاهري » ، فما يحتاج هذا الإنسان من الآخر إلا احتياجه له ، وكأنها علاقة ذاتية لا يحكمها إلا حاجتي أنا لأن يحتاجني أحد ، وفيها بالتالي إلغاء لسائر الجوانب الأخرى في الشريكين ، وبمرور الزمن ، وأمام الأزمات العابرة تتصادم هذه الأجزاء المهملة داخل نفوسهما وتبدأ المشاكل .

[١٠١] ذكرت تعريفا لهذا الحب « الثاني » في حاشية (٧٠) ثم جانبا آخر له في حاشية (٩٤) والمقصود هنا — وهو تكرار مفيد في رأيي — أن الحب الجمعي الذي

يتمثل فى القدرة على الحب الشامل (مركزاً فى أفراد من لحم ودم) ثم فى ممارسة هذا الحب الشامل مع من تتعامل معهم فى الحياة اليومية (ممثلين لسائر البشر) وفيه من المسئولية والرفض بقدر ما فيه من الود والعطف ، كما أنه حب معلن مستمر ، استمرار المحاولة والالتزام . . وهو صعب صعب إلى أبعد الحدود ، ومن أصدق خبراتى فى العلاج النفسى أن يعلن أحدهم انسحابه من هذه المحاولة لأنهـا أكبر منه (مثل صديقنا هنا) . ولكنه وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ ، فهو هدف ممكن فى المـدى الطويل على الأقل شريطة ألا يكون تأجيله مهربا ، وعموما فإن العمل له ومن أجله والتقدم نحوه يقاس بعلامات يومية . من أهمها : القدرة على الابتعاد عن الشريك للاقتراب منه على مستوى إنسانى أرقى باستمرار . . ووجود الناس دائما داخل هذه العلاقة الثنائية . . يستفيدون منها إن نجحت . . ويصلحون مسارها

إن انحرفت . ، وهنا تفسير ضرورة «العلانية» فى العلاقات الخاصة لتصبح زواجا بالمعنى المسئول .

[١٠٢] لم أجد أصدق من هذا التعبير الشائع «أموت فيه ويموت فيّه» دليلا على فساد هذا الالتحام الثنائى المنعزل الذى نتاجه الموت النفسى بشكل أو بآخر .

[١٠٣] فى العلاج النفسى (الجمعى خاصة) ، وفى الروايات وفى الأفلام ، وفى النظريات الباهرة ، يكثر الحديث عن التطور — كما أفعل فى هذه الحواشى تماما — حتى يبدو وكأنه شىء ممكن بمجرد الرغبة أو النية التى كنا نعبر عنها سخرية فى بعض جلسات العلاج الجمعى قائلين « ادينى واحد تطور وصلحه . . مثلا » وهذه اللقطة هنا تسخر من هذا التطور السهل الذى يبدو مثل حلق فى الإذن أو رباط عنق.

وحين تتعمق مرحلة النمو فى العلاج الجمعى وتبدو صعوبة التطور وما يصاحبه من مخاطر مرعبة ، أعلن وأكتشف أنه

لن يتطور إنسان باختياره . . وإنما بإلزام داخلى . . حين تصبح الأعراض والمعاناة (والمجتمع العلاجى التطورى يثيرهما) أكثر قسوة وإزعاجا من مغامرة التطور وصعوباتها، وفى كل مأزق مثل هذا كنت أواجه المريض بأن عليه أن يراجع نفسه ولا يسير فى الزحمة والسلام، فإما أن يتحمل العرض أو يخبئه بمعرفته (بالتسكين أو بالتنازل عن أية آمال إنسانية أو باليأس . . . الخ) وإما أن يضطر للمحاولة لأن المسألة ليست عرضا (أو عزومة) . . وأنه «لا مانع» أو كما أقول « ما يضرش » . بل هى مسألة حياة أو موت .

الفصل الثانى

لعبة السكات

(١٠٤) تبين لبعض المشتغلين بالعلاج النفسى أن العلاج الكلامى قد يكون خادعة شبه علمية ، وأنه قد يكون تبريراً للاغتراب وتشريعا له ، حتى قال بعضهم عن التداعى الحر (هو فردريك بيرلز صاحب مدرسة العلاج الجشتالى) أنه « الخلط الفصامى » Schizophrenic Incoherence بمعنى أن مجرد الكلام - وخاصة المُرسل - هو ضرب من التناثر غير ذى الفائدة ولا الفاعلية ولا الوظيفة التكاملية - الأمر الذى حاولت أن أؤكده — تقريبا — فى الفصل الأول « لعبة الكلام » ، ولما تبين ذلك نشأت مدارس تؤكد أهمية التواصل دون كلام، أحيانا بالأيدى وأحيانا بالعيون،

ونتجت مخاطر متعددة من استعمال الأيدى من بينها العدو ان وربما المشاكل الجنسية، واختلط الأمر على أحد عظماء التفكير فى حقيقة النفس وهو ويلهلم رايخ حتى جن تماما (بالمعنى السلبى) وسجن قبل أن يقضى ، وقد كان مبالغا فى ضرورة الالتحام الجسدى والتحرر الجنسى فى العلاج وغيره ..، ورغم كل هذه المخاطر فلابد للتطور من أن يفرض نفسه ، فليس معنى أن تظهر مضاعفات عنيفة، أو يجن أحد أصحاب الأفكار الخلاقة فى نهاية حياته ، أن نرفض جوهر الفكرة أو ننكر على المفكر إيجابياته قبل أن يجن (وإلا ـ لرفضنا فكر نيتشه برمته مثلا ـ) وليس أمامنا إلا أن نأخذ إيجابيات كل فكرة إذا كنا حريصين على التطور الملائم فعلا ..،

وإذا كنا قد أدركنا عجز الكلام (بعد فراغه من المعنى وانفصاله عن العقل) عن أن يؤدى وظيفته الأصلية..فى التواصل والتطور فإنى سوف أعرض فى هذا الفصل إحدى اللغات البديلة:

وهى لغة العيون ، متقمصا أعمق أجزاء النفس متحدثا بلسانها فى كل حالة .

وهذا الفصل بوجه خاص هو أقرب الفصول إلى خبرتى الشخصية التى ألمحت إليها فى المقدمة ، والشخوص فيه هم من أقرب الناس إلىّ ، وإن كانت التفاصيل لا تنطبق على أى حالة بذاتها أمانة وعهداً . .

[١٠٥] ولغة العيون فى عمقها وثباتها لغة خطيرة ومهددة، وهناك عرض عند الفصاميين (تزيد أهميته عن الأطفال الفصاميين) اسمه تجنب النظرة Gaze avoidance يدل على أن العيون تتواصل بدرجة أعمق مما يؤدى إليه التواصل اللفظى، وهى تكشف أغوار النفس حتى لتصل إلى الجنون الكامن فيها ، وكثيراً ما يرفض المريض فى العلاج الجمعى هذه اللغة خوفا ومقاومة .. ولا مفر من المحاولة تلو المحاولة .

[١٠٦] واللغة هنا لا تقتصر على غور العيون ، وإنما

تؤكد أهمية لغة الجسد بصفة عامة ، وتعطى أهمية لكل تفاصيل التعبير واللون والوضع.، وكثيراً ما يستنتج الطبيب تناقضا داخليا من خلال تأمله العميق للتناقض بين الكلمة والتعبير الجسدى أو بين تعبير جزء من الجسد (الوجه مثلا) وتعبير جزء آخر (اليدين أو العينين ... الخ) .

[١٠٧] إذا بلغت وظيفة «الكلام» الهروبية أن يغترب الإنسان عن إحساسه ، يصبح التوقف عن الكلام مخاطرة ذات وجهين : إما أن يدرك الإنسان حقيقة اغترابه (وموته النفسى) وهى رؤية مؤلمة عنيفة دافعة للتمسك بالهرب المستمر فى الكلام .. مهما كان خاويا عاجزاً ، وإما أن تتاح فرصة إعادة البناء أو إعادة الولادة فى أزمة تطور جديد على طريق النمو البشرى (طبعا فى جو علاجى خاص.. أو فى صحبة مسئولة تعطى درجة معقولة من الأمان) .

البحر الميت

[١٠٨] قد تطول المناقشات إلى ما لا نهاية، وقد يبرق الكلام فى سماء الأمل حتى تغطى سحب الأحلام كل فكر واقعى ، وصديقى هذا من أعز من عرفت ، ولكلامنا معاً — المنطوق والمكتوب — دورا خطيرا فى حياتى ، ولكن للكلام نهاية ، ولابد أن ندخل مرحلة اختبار آخر، إلا أن مخاطرة الاقتراب تحمل معها مفاجآت غير سارة فى العادة ، فما بالك إذا صاحبتها مخاطرة الصمت وحديث العيون الأصدق !!

[١٠٩] وتكشّف لى أن وراء هذا الكلام إنسان وحيد خائف كاد يجف من الرقة وحسابات الوحدة ولكنى لم أستطع أن أبلغه — صمتا — شيئا يطمئن ، وما زلت أتساءل هل هى خطيئتى أم أن جفاف البذرة بلغ حد موت الجنين ؟

[١١٠] وتمنيت أن يسمعنى صامتا ، بعد أن عجزنا عن

أن نسمع بعضنا البعض على كثرة الألفاظ التى تبادلناها والآراء والشروح التى تناقشنا فيها ، وتمنيت أن يعرف حقيقة المعركة بيننا وطبيعة دفاعه عن وحدته وذاتيته وطبيعة دفاعى كذلك . . ولكن ..

[١١١] كان الخوف أكبر من كل احتمال .. ولم أر أى حركة حياة ، ورعبت بدورى وانتهت علاقتنا الحقيقية، ولم نستطع حتى أن نستمر فى الحوار: حوار من .. مع من..، والسكون الميت ضارب أطنابه .. فى كل الطبقات .

[١١٢] ما دخل هذه القصة الخاصة بالوجه الآخر للعلاج النفسى ، فى الحقيقة أن كل هذه الخبرة الشخصية لها علاقة بما أريد أن أقدمه للناس من ناحيتين : أولا : تطور الطبيب النفسى وخبراته ومحاولات اقترابه ، وثانيا : انعكاس هذا على مهنته من حيث أنى تعلمت من هذه الخبرة مثلا أن « مسافة ما » ضرورية للحفاظ على العلاقات ، ورغم أنها

ستكون بذلك علاقات سطحية نوعاً ما ، إلى أنى أيقنت بشكل ما أن هذا « الممكن » ضرورى لاستمرار الحياة .. ولكن الحاجة الأعمق إلى التواصل صوّرت هـذا الممكن (نتكلم أحسن) أنه « معزى » ، [وكأنى بالرغم من انتقالى إلى لغة العيون بعد السبع جنازات ما زلت متأثراً بالعزاء على المرحوم « أمل الإنسان فى التواصل »] . . وموجز القول فى العلاج النفسى بالنسبة لهذه الخبرة أولا : أن درجة من الكلام صالحة لاستمرار الحياة بشكل ما ، وثانيا : أن الاقتراب الشديد غير المحسوب قد يفسد العلاقة ولا يحقق التواصل . .

السويقة

[١١٣] هذا التعبير « النظرة الزحمة » وهذه المقطوعة أريد أن أقدم بهما معنى محدداً : هو أن الطبيب النفسى لن يتقدم فى ممارسته مهنته ـ على حد تصوري ـ إلا إذا علم أن وظيفته

بالذات تتطلب رؤية الناس المتعـــددين داخل الفرد الواحد (حالات الأنا) وإذا أحسن النظر فى الأعراض وفى الـكلام .. والأهم ، فى أغوار العين وتعبير الوجه فإنه قادر بعد تنمية حدسه الفنى الإكلينيكى ومرانه على مخاطبة هذا التعدد أن يدرك ماهية التركيب البشرى وأن يساهم فى تـكامله ، أما إذا اقتصر على الاكتفاء بالتسطيح وأن الإنسان — مثـلا — إما حزين أو فرحان فى لحظة ما فإنه سيحرم نفسه من سلاح من أهم أسلحته ، غير أنى أحذر فى نفس الوقت أن تـكون المسألة مجرد إسقاط ، على أن هذه القدرة الاكلينيكية بالذات هى النقيض العنيف لتوصية التحليل النفسى أن يجلس المحلل بعيداً عن مدى رؤية المريض على الحشحية ! !

[١١٤] قطار الدلتا له شخصيته الخاصة ومواقيته المتباعدة غير المنتظمة وآثاره فى كل من عايشـــه طفلا ، وهو يمثل لطفولتى علامة شخصية جداً لم أستطع أن أنساها وأنا أكتب

روايتى الطويلة « المشى على الصراط » ، وهذا المنظر الذى أصفه هنا كان يثير دهشتى طفلا حين تصر نسوة البلد أن يكون اجتماعهن لتسويق حاجياتهن على شريط القطر ذاته وهن يعلمن تمام العلم أن القطار قادم (ولكنهن متأكدات أنه لن يدهسهن من ناحية ، وفى نفس الوقت فإنه ليس له ميعاد فلا داعى لوضعه فى الحساب) . . ومع ذلك فقد كان يداخلنى خوف من أن تخيب حساباتهن مرة ويدهمهن القطار على حين بغتة رغم أنه لا يعرف المباغتة .

وكان القطار يأتى ويصفر فيتفرقن فى مرح وخوف مصطنع ، ولا يلبثن أن يعدن كما سبق بعد مروره .

[١١٥] إن أعماق العين التى أقدمها هنا يمكن أن ترى « فى نفس الوقت » وليس فقط بالتبادل . . وكم تمنيت فنانا ملهماً يرسم لى هذه العين كما رأيتها وكما أراها . . إنه وحده

القادر على تصديق ومؤازرة رؤيتى . . ومعه صاحب العين نفسه ويا ليت سؤاله ممكن ..

[١١٦] لو حاولت شرح هذه المشاعر المضطربة فى هذه العين لاضطررت أن أشرح الطب النفسى كله وعلم السيكوباثولوجى والعلاج النفسى معاً غير أنى أكتفى هنا بالإشارة إلى التردد الهائل الذى يتناوب فى الموقف العلاجى ما بين الخوف والاحتجاج العدوانى وما بين الصرخة النافرة أو الداعية أو الرغبة ، وما بين محاولة خوض التجربة والتراجع عنها لما تحمله من ألم.. وما بين الاستغاثة ورفض العون..،وما بين محاولة الحياة والاعتمادية ، وما بين الاقتراب والبعد .

[١١٧] من مشاكل العلاج النفسى الصعبة : تحديد المسافة التى ينبغى أن يحتفظ بها المعالج بينه وبين المريض فى فترات تطوره المختلفة وقد ارتاح التحليل النفسى فوضع حداً

ماديا لهذه المسافة ، فهو فى تقديرى لا يسمح بأى علاقة
إلا علاقة خيالية اعتمادية فى نفس الوقت ، فالبعد المادى الذى
يصر عليه المحلل فى جلسته بعيداً عن مجال الرؤية باستمرار ،
خليق بأن يدفع المريض أن يبنى علاقته مع خيال له عن المعالج
وليس مع المعالج ذاته لحماً ودائماً ، وإن صح ذلك فى المرضى
العصابين (الذين يعالجون — فى رأيى — للحصول على بديل
اغترابى حديث اسمه التحليل النفسى أو التأويل النفسى) ،
فهو لا يساعد الذهانيين والحالات البينية Boder-line
بحال من الأحوال .

وهنا إشارة إلى أن أكثر ما يرعب الإنسان عامة —
والمريض فى رحلة تطوره بوجه خاص هو الاقتراب الحقيقى
كإنسان من لحم ودم من إنسان آخر من لحم ودم ، حتى
أنى أسميه أحيانا « خطر الحب » ، فالخوف من الحب (مثل

الخوف من الحرية) هو أعمق خوف يمكن أن نقابله فى أعماق النفس وبالتالى فى المريض الذهانى (المبتدئ خاصة) وكذلك فى خبرة التطور أثناء العلاج الجمعى (وهى خبرة شبه ذهانية) فهى تحمل مخاطر الحياة بمعناها الحقيقى ... ، حين لا يكون « الآخر » عدوًّا ولا منافسا . . بل رفيق طريق . . مما يفتح باب البناء بديلا عن لعبة الكر والفر تحت أوهام المطاردة . . هذا الرعب من الحب هو الخوف من التخلى عن دفاع الكر والفر ، الذى يوهمنا أنه هو وحده الذى يحافظ على الحياة والبقاء وبما أن هذا الخوف من الحب له ما يبرره فى الواقع حيث المجتمع التنافسى ما زال يحافظ على بقاء الأفراد فيه بالكر والفر ، فعلى المعالج أن يضع ذلك دائما فى الاعتبار قبل أن يحاول أن يكسر هذا الحاجز .

[٨١١] تأكيد لأهمية « المسافة » وضبطها فى رحلة التواصل ، فالمشاعر لا تعود للظهور بكل ثرائها وتضاربها

إلا إذا ابتعد خطر الاقتراب الحقيقى . . . أى خطر الحب وكسر دفاع « السكر والفر » .

[١١٩] تكملة لرحلة الهرب بالفراغ واللا مبالاة إذا أصبح التهديد بالاقتراب ماثلا حتى لو تم بدعوة صريحة ، وهذه القضية تظهر فى شكلها الاجتماعى فى خبرات الحب المشتعل الذى يموت دائما بعد الزواج أو التواصل إما لاكتشاف الوهم المحيط به ، وإما كما أوردت هنا نتيجة للخوف من أن يكون حبا حقيقيا يهدد « دفاع السكر والفر » وفى الحالة الأخيرة يكون الإلحاح بالانفصال أكيداً ومهدداً ، ويكون الانفصال الفعلى محتمل دائما .

[١٢٠] إشارة إلى أنه بالرغم من كل هذه المحاولات وثراء هذه المشاعر ، والتردد المتحفز ، إلا أن النهاية

ـ ما لم يحـدث تغيير جذري ـ هى الانتظار المستمر اليائس بديلا عن المغامرة الآنية .

القط

[١٣١] فى هـذه المقطوعة حاولت أن أقدم « التركيب البارنوى » كما هو وليس كما يستنتج من « الخوف من الاقتراب » فى المقطوعة السابقة، ومحاولة عمل علاقة مع صاحب هذا التركيب مغامرة تحتاج إلى مهارة علاجية فائقة — إذا كنا نعنى علاقة حقيقية تبطل أوهام المطاردة — وفى خبرتى وجدت أنها تحتاج إلى ظروف أكبر بكثير من التردد على العيادة أو الألفاظ والتفسير فالدفاع عند مثل هؤلاء الناس عقلانى بالدرجة الأولى ، وهو بالتالى يفسد أى تفسير حتى لو وافق عليه ظاهرياً .

وأول صفة لهذا التركيب البارنوى التى تتعلق بهذه الحاسة

هى التوجس الدائم « واختبار الناس » باستمرار لا يكل ..
وهو ليس اختباراً أميناً إذ أن نتيجته دائما هى ترجيح الشك.

[١٢٢] ومن ضمن « اختبار النــاس » طرح الأسئلة المتصاعدة المعجزة المتشككة ، والتى تظهر فى عمقها الحاجة إلى أن يُرى .. ليتأكد من وجوده ، ويؤكد وجوده ، وهو دائم الإصرار على أن ذلك مستحيل (أن يُرى) ، ومن أهم الأسئلة والمناورات المستحيلة هى أن يطالب هذا الإنسان من الآخرين أن يروا داخله دون أن يفصح عنه ، فى الوقت الذى يبذل فيه كل جهده لأن يخفى هــذا الداخل الذى هو فى العادة ضعيف هش منزو (بعكس الخارج تماما)، وقد وصل الأمر بأحد المرضى لدىّ أنه كان يطلب من زوجته أن تجيب على سؤال ما .. (عادة غير مطروق) بنفس الإجابة التى فى ذهنه فى هذه اللحظة فإذا عجزت أعطاها فرصــة أخرى وأخرى حتى إذا عجزت تماما ثار واعتدى عليها باليد فعلا ،

وحتى إذا نجحت فإنه يطرح سؤالا آخر وهكذا حتى تعجز فيبرر لنفسه أن أحداً لا يراه .. وبالرغم من ذلك فعدوانه يعلن احتياجه لكسر وحدته بهذه الشروط المستعصية !!!

---

[١٢٣] وحين تشتد الحاجة بمثل هذا الشخص ، فإنه قد يقبل علاقة سريعة موقوتة من جانب واحد عادة (جانبه هو ليظل متحكماً فى شروطها) تشبه الخطف (رمزاً)، ولأنها موقوتة فإنه سرعان ما يتخذ موقف الظن والتوجس ثانية .

[١٢٤] وهنا إشارة إلى الفكر الذى أعتنقه تفسيراً لهذا التركيب البارنوى ، الذى هو تثبيت للموقف البارنوى فى الطفولة . . وإحياء للموقف البارنوى فى التاريخ الحيوى فى التطور ، وأقرب حيوان معروف يمكن أن يعبر عن هذا الموقف هو النمر (والقط من نفس الفصيلة) ، وفى رأيى أن هذا التركيب يولد معنا جميعاً من واقع صدق القانون الحيوى، وهو أن الإنسان فى تطوره الفردى

(الأنتوجينى) يكرر تطور نوعه (الفيلوجينا) ، ولأن هذا السلوك كان لازماً فى مرحلة من التطور لحفظ الحيــاة فإنه ما زال فينا إلا أننا نتخطاه بالنمو الإنسانى الأرقى ، إلا أن ضغوط الحياة وطبيعة المجتمع التنافسى تجعله أقرب سلوك إلى النشاط ، وهذه الإشارة العابرة تعلن إيمانى بالتطور تفسيراً للسلوك الإنسانى فى الصحة والمرض وأن التنشئة هى إعادة مراحل التطور وتخطيها فى ظروف أكثر ملاءمة ليستكمل الإنسان مسيرته (*) .

[١٢٥] وكما أن لهذا التركيب جانبه التوجسى والتسللى فإن له جانبه الالتهامى ، وعلاقة مثل هذا الشخص بالآخرين هى علاقة تملك والتهام أكثر منها علاقة حقيقية بآخر يأخذ ويعطى ، وتظهر هــذه العلاقة التملكية (الالتهامية) بصفة

(*) يمكن الرجوع الى مزيد من إيضاح هذه الفكرة فى الجزء الثانى من كتابى (مقدمة فى العلاج الجمعى) . دار الغد للثقافة والنشر . القاهرة ١٩٧٨

خاصة فى علاقته بأولاده وزوجته (التى يختارها عادة ربة منزل تسبح بحمده ليس إلا) .. وهذه هى الصورة المعاصرة الموازية للالتهام الحقيقى للمرحلة النمرية المقابلة تاريخاً تطورياً .

[١٢٦] قد يقوم هذا الشخص — فى الموقف العلاجى وفى الحياة — بمظاهر القوة والتهديد بالاستغلال والالتهام لينفر منه من حوله بشكل أو بآخر ثم يبرر وحدته ويمضغ احتياجه (إن أمكنه) .

[١٢٧] شك آخر - فى محله - يثيره هذا الشخص حتى يحافظ على ابتعاده عن الآخرين وهو « أنهم » إن كانوا حقيقة سوف يقبلونه ، أو يحتاجونه ، فلن يقبلوه بأشواكه ومخالبه وإنما كما يتصورون ضعفه وعجزه ، وهو لا يثير هذه القضية ليقر بأن أحداً رأى ضعفه وقبله « هكذا » بل إنه يشكك فى شروط قبوله ، إذ أنه بعد استسلامه سوف يكون — إذاً — عرضة للترك أو السحق ..

[١٢٨] تفجير آخر يظهر في سلوك البارنوى حين يبالغ في تصوير احتياجاته (وهي كبيرة فعلا إلا أن حملها ليس مستحيلا في جو آمن سواء كان علاجاً أو غير ذلك) وأن أحدا لا يقدر على احتمالها أو الوفاء بها .

[١٢٩] ابتداء من هذه النقطة يبدأ وصف تفصيلي لخبرة مارستها مع أحد أصدقائي (وحين أقول صديق لا أفرق بين صديقي الاجتماعي وبين صديقي المريض المتردد عليّ طالبا عوني) في العلاج الجمعي ، حين تكاثر عليه أفراد المجموعة في صدق حانٍ، حتى تخلى عن دفاعاته بعد تلاحم جسدي طيب . . ولكن الخبرة لم تستغرق عدة ثوان على حد تعبيره (وتقديري كذلك) .

[١٣٠] وفي هذه الثواني وصف خبرة نكوصية رائعة تؤكد أن ما كان يشكله ويحدد معالمه هي دفاعاته البارانوية بحيث لما اختفت في هذا الجو المسئول الحاني نكص

إلى « ما قبل التشكل » ، وهى لحظة رائعة مروعة ، لو استطاع الإنسان (أو المريض بمساعدة الطبيب فى الموقف العلاجى) أن يستوعبها بوعيه واستمرار محاولته لتخطى حاجز الرعب البارنوى نهائيا .

[١٣١] وما كادت الثوانى تنقضى حتى عادت المخاوف تطل بحجمها السابق ووظيفتها القديمة مع بعض الاختلاف فى محتواها حيث أنها ظهرت وهو ما زال فى موقف الضعف والتراخى (وليس فى موقف الحذر السابق والتوجس) ، ويكون المحتوى هنا أساساً هو الخوف من السحق ، ومن الخداع بكلمات جوفاء (مثل: الحب والصدق والتطور، الخ» ومن الإهمال وعدم رؤيته فى موقفه بحجمه .

[١٣٢] شك آخر يورى جانبين من جوانب هذا التركيب البارنوى : أولاً، الصورة الضعيفة المشوهة التى يرسمها لنفسه Distorted Self Image حتى تكاد تصل إلى العدم (وهذا

من أعظم أفكار سيلفانو أريتى ليفسر ما وراء الفصام والفصام البارنوى) وثانياً، إصراره على أن أحدا لا يمكن أن يراه لأن أحدا لا يستطيع تصور هذا الوجود (أو مشروع الوجود على حد إنكاره) الضعيف المختفى المنسى .

[١٣٣] تأكيد على أنه بعد هذه الثوانى من تجربة النكوص الرائعة استيقظ العقل الحذر فورا بحساباته ومخاوفه وكل مقومات نشاطه لينتهى وبسرعه إلى اليأس — مرة ثانية — من التواصل ويؤكد نفس الوجود السابق .

[١٣٤] بعد هذا اليأس يعود التحديد إلى الشكل القديم بحذافيره وربما أكثر صلابة ودفاعاً، ومن هنا وجب التحذير ثانية من أن هذه الخبرة ما لم تكن محسوبة ومدروسة وفى مكان ووسط خاص ومستمر (لفترة ما) .. مالم تكن هذه الشروط متوافرة فإن التعرض لهذه الخبرة يصبح تخبطا عشوائياً خطرا ولا أنكر أنى فى أول حماسى لهذه الطرق

العميقة الرائعة لم أكن كثير الحسابات مثل الآن ، ولذلك فقدت كثيرا من أصدقائى وما زلت متألماً ليس فقط لفقدهم، ولكن لما يمكن أن يكون قد أصابهم من جراء حماسى ، ومع هذا الإحباط المبدئى فإن التتبع بعد ذلك بسنوات أثبت لى أن هذه الخبرة مهما ألغيت وحاول صاحبها أن يتناساها أو يطمسها سوف تعود لتثرى وجوده باختياره ولو بعد حين، الأمر الذى بدأ يخفف من ألمى ، ويؤكد لى دائماً قدرة الإنسان على استيعاب خبراته ولو طال الزمن :

[١٣٥] إذا طالت مدة النكوص هذه عن ثوان (كما كانت هذه الحالة) فُتح بابان آخران فى نفس وقت المحاولة للعودة إلى « الفورمة » القديمة : الأول هو الحنين للعودة إلى الرحم .. أى استكمال رحلة النكوص بعيدا عن الخوف من الخداع المتصور أو العواطف الزائفة والثانى الرغبة فى الموت .. وهى رغبة مكافئة للعودة إلى الرحم أيضا.. وهى

غير أفكار الانتحار وتصوراته ، إنها رغبة سلبية فى الموت للتخلص من هذا الموقف العاجز الذى يعرض صاحبه شديد الحذر (سابقاً) لمخاطر ليست فى متناول تحكمه .

[١٣٦] ولكن الاحتمال الأكبر ، الذى يكاد يكون القاعدة فى هذا التركيب البارنوى، هو العودة إلى نوع الوجود القديم الذى تميزه العزلة أساساً (تحت سرير « الست ») ثم الحصول على حاجته من الحب والحنان والاعتراف بطريق سريع خاطف موقوت ، ومن شريك يتمادى فى إخفاء عيوبه عن نفسه (حيلة التقديس Idealisation) فى نفس الوقت الذى يدرك فيه فى أعماقه أن علاقته به شكلية . . مظهرية .

البركة

[١٣٧] هذه الصورة من أصعب ما شغلنى طوال حياتى الخاصة ، وفى ممارستى المهنية ، وكان انشغالى ينشأ من سوء

ظنى واستبعادى أن يكون التركيب الإنسانى بكل مخاوفه وشكوكه وحذره وأنانيته قادر على أن يمارس هـذا الموقف (الآتى ذكره) هـكذا تلقائياً (دون المرور بمراحل المعاناة الطويلة فى رحلة التكامل) .. أما طبيعة هذا الموقف الذى أثار انشغالى هذا فهو موقف الإنسانة (أو الإنسان) الهادئة الوديعة مظهرياً .. الجاهزة للحب دون تحفظ ، وحين قابلت فى خبرتى هذه الصورة فعـلا وبدأنا رحلة الأغوار .. تبينت أن شكى كان فى محله ، وأن أعمق أعماقها يعلم أن هذا الهدوء والود ما هو إلا دفاع سطحى ضد المخاطر الحقيقية للحب الأعمق (تعبير : وكإنى باحب) :. وتيقنت أن هذا السطح السهل من مظاهر الحب ليس بالضرورة تفاعل اختيارى واع بناء .

[١٣٨] إذا فاختفاء الخوف هنا هو إنـكار له .. وليس انتصارا عليه ، وهـذا أقسى أنواع الخوف . . وهو كثيراً ما يخدع الناس والأطباء وصاحبه فى آن .

[١٣٩] وهذا الركود الظاهرى هو ركود خبيث ، وهذا اللون البهيج من بعيد ما هو إلا تراكم عطن آسن .. (هذه رؤية من تقمص الأعماق وشدما هى مؤلمة) .

[١٤٠] وإذا كان قد سبق لى هنا فى هذا العمل أن شوهت صورة الموت النفسى ، فإن ذلك كان تحذيرا من المبالغة فيه أو الاكتفاء به ، إلا أنه هنا كطلب تحذيرى قد أحترمه إذ يصبح ذو فائدة تنويمية بديعة .. طالما الطريق بهذه الصعوبة والمشوار بهذا الطول .. وكأن النوم فى العسل حتى الذهول ، أفضل من لدغ الزنابير حتى الضياع .

[١٤١] نفس المخاوف من إيقاظ الإحساس دون حساب (راجع الحواشى ٦٠،٦٥،٧٥،٨١ مثلا) ولكن الإضافة هنا هى وجه الشبه بين هذه التجربة وبين « المشى على الصراط » (عنوان روايتى الطويلة) والرمز هنا لتبديل الجلود يعنى تكرار الخبرة الجديدة .. حتى يبعث الإحساس من جديد .

[١٤٢] الشك هنا ليس فى طبيعـة المشاعر المحيطة مثلما هو الحال فى العين السـابقة ولـكن فى ضمان استمرارها ، وهذا فى رأيى شك فى موضعه ، فـكثيراً ما يكون الحماس والإغراء بالمحاولة العلاجية ، وطرح احتمال الأمان . . مجرد مسألة وقت سرعان ما يزول بانتهاء الموقف (العلاجى مثلا) وهنا قد تصبح المسـألة أخطر من أن تتدارك . . ويصبح التهديد بالتناثر أو التفاثر ذاته حقيقة واقعة .

السد البرانى

[١٤٣] هذه الصورة الجديدة سببت لى حيرة أقل ، فسطحيتها بادية ، وزيفها واضـح (رغم أن بؤسهـا الأعمق لم يكن محتملا لدى بنفس الوضوح الذى بدا من خلال هذه الرؤية) وهو صورة المرأة أشـبه بالعروسة الحـلاوة ، تـكثر من المساحيق وتعتمد على العلاقات السطحية وتركز على إغراءات

الملامح الظاهرة ، وخطورة هذا الاهتمام بالأجزاء أنه يلغى الاهتمام بالكل والجوهر .

[١٤٤] رغم كل هذه الألوان والتصنع فإنى كنت أستطيع أن ألمح — فى جزء من ثانية — تلك العين البريئة المظلومة فى جوف عيونها السود المصرة على التحدى والسطحية .

[١٤٥] ومن خلال إحساسى هذا . . حاولت أن أتقدم خطوة إلى تواصل أعمق . . وتبدأ هذه المحاولة بقبول الظاهر فى حذر مشروط ، وكأن القبول هنا هو قبول بما وراءه ، أو تفهم أمين لما يضطر الإنسان إلى تشويه ظاهره بالأناقة الزائفة والمبالغة فى تجميل القشرة أولا : للابتعاد « بالداخل» إلى مكان أمين . و « ثانيا » يقوم هذا « التزويق » بوظيفة الرشوة للقبول من الآخرين ، أما ووراء هـذا وذاك فهى الوحدة واليأس من أى تواصل إلا بالظاهر ، ومن خلال هذا الفهم تبدأ وظيفة الاقتراب العلاجى (أو الإنسانى

الأعمق فى أى موقف آخر) ساعية إلى البحث عن الطهقة الأصدق من المشاعر والنبض البشرى الأمين .

[١٤٦] ومثل كل خوف من الاقتراب ، وعلى لسان الجزء الأعمق من النفس صورت الدفاع ضد هذا الاقتراب بالهرب وإنكار وجود «أى شيء آخر» سوى هذا الظاهر.

[١٤٧] ثم لمسة « سيكوباثولوجية » تفسر قيام هـذا الحاجز السميك الذى يقام فى أثناء الطفولة (عادة) من الخوف والافتقار للأمان ، وهذا الحاجز بين الأنا الناكص والأنا الظاهرى ،أو بين النشاط الأقدم تمثله العواطف ؛ وبين النشاط « القهرى » هو ما عنيته بالسد الجوانى ، أما السدالبرانى فهو هذا الحاجز من المساحيق والتأنق الظاهرى ...

[١٤٨] إشارة إلى الإصرار من جانب هذا الموقف الدفاعى (المصاحب عادة بالبرود الجنسى رغم مظهرية الإغراء) أنه

لا شىء فى الوجود إلا هذه القشرة ، وأن أى تهديد بالغوص وراءها ليس له رد إلا الهرب الفعلى .. (أنا ماشية) .

الكلب السارق عضمة

[١٤٩] فى هذه الصورة أردت أن أقدم شرحاً تفصيلياً خاصاً لعرض « تجنب المواجهة بالنظر » Gaze avoidance الذى أشرت إليه فى إلماحة سريعة فى حاشية ١٠٥ ، والذى ذكرت أن وظيفة التحليل النفسى أساساً هى أن ينميه (لاحظ وضع المحلل وراء المريض وخلف مجال رؤيته كما أشرت سابقاً) حتى أن بعض نقاد التحليل اتهموا بعض المحللين أنهم هم أنفسهم يعانون من هذا العرض .. الأمر الذى لا يمكن قبوله « هكذا » على علاته ، المهم أن لهذا العرض قيمة تشخيصية ومعنى ديناميكيا أما وظيفته الأولى التى أشرت إليها فى حاشية ١٠٥ فهى تجنب العلاقة أصلا بآخر ، أما وظيفته التى أحاول أن أقدمها هنا فهى عامل

جديد يضاف إلى بعـد الخوف من الآخر (الخوف من الاقتراب أو الخوف من الحب حاشية ١١٧) وهو الشعور بالذنب ، ذلك الشعور الـكامن وراء مرض الاكتئاب خاصـة (وربما يمـكن الرجوع به إلى الموقف الأوديبى بلغة التحليل النفسى التقليدى ، وقبل ذلك إلى الموقف الاكتئابى Depressive Position بلغة المدرسة الإنجليزية الحديثة فى التحليل النفسى) هذا الشعور بالذنب يترتب عليه عدة مواقف: ويفسر عديداً من الملابسات: أولا فالإنسان هنا (أو المريض) لا يحس بحقه فى الحياة تماماً ، فهو يخطف هذا « الحق » من عطف أو حب أو حنان . . ولا ينزوى به (تحت الـكرسى الش باين) مثل التركيب البارنوى الذى أشرت إليه (حاشية ١٣٦ وبقية صورة القط : « العين الثالثة » ، لاحظ الفرق بين تصرف القط الحرامى والـكلب بعظمته فى فمه ... والاختلاف المقابل فى نوع ودرجة الهروب فى الحياة العامة . بين هذين التركيبين) إذاً فهذا الموقف الاكتئابى بما يصاحبه

من شعور بالذنب وأنه يسرق حق وجوده ، يختلف عن الموقف البارونى بما يصاحبه من عزلة وشك فى الآخرين دون نفسه وأحقيته فى الحياة .

[١٥٠] فى هذا الموقف الاكتئابى تكون الحاجة إلى التقارب والحنان حادة وشديدة ، وَيكون الرفض رقيقا صادقا (قارن عيون « القط » الموقف البارانوى وشكه العارم ورفضه القاسى الهارب باستمرار) .

[١٥١] ووراء الاكتئاب موقف ثنائية الوجدان Ambivalence ، فالحذر هنا يصحبه احتمال الأمان، والإحجام يسير جنباً إلى جنب مع محاولة الاقتراب ، والأمل فى وجود آخر رغم التهديد المصاحب لذلك هو أمل حقيقى وفعال ، وفى خبرتى — مصداقا لهذا التنظير — وجدت أن ظهور الاكتئاب الحقيقى أكبر دليل على صدق محاولة الحياة مع آخرين ، وأن الاكتئاب يختفى إذا يئس الإنسان من هذه المحاولة . . وإذا نجح فيها على حد سواء .

[١٥٢] نهاية اللقطة أقرب إلى الحل اليائس لصعوبة الاستمرار فى معاناة الاكتئاب ، وهذا الإنسحاب اليائس هو وقاية ضد التناثر (الذى هو علامة تدهور أكبر إلى الفصام) .

[١٥٣] وبعد هذا الانسحاب اليائس (وفى هذه الحالة على ما أذكر بوجـه خاص) إذا استمر حضور جلسات العلاج حتى اختفى الاكتئاب ظاهريا ، فإن اتخاذ موقف المتفرج المبتعد عن أى تفاعل قد يكون الحماية من أى أمل (أو تهديد) جديد للتفاعل الإنسانى ، وبالتالى من أى اكتئاب جديد ، وأحيانا يطول موقف المتفرج هذا فأحاول خلال جلسة العلاج الجمعى أن انبه صاحبه إلى محاولة المشاركة أو الاستفادة من حضوره فيقول غامزاً ساخراً « انت مالك أنا اتفرج بفلوسى» هـكذا بنص الألفاظ ، وقد أنجح فى أن أثير عليه بقية المجموعة مجال الفرجة حتى يخرجوه من عزلته وقد أفشل مرحلياً . . وهكذا .

الدمعة الحيرانة

[١٥٤] إذا كانت المقطوعة السابقة « الكلب السارق عضمة » تصف الموقف الاكتئابى بعمقه السيكوباثولوجى (أى ماوراء تكوين الأعراض من ثنائية الوجدان والشعور بالذنب) فهذه المقطوعة تصف الاكتئاب من من منظور وجودى ظاهرى واضح ، فهى تصف عمق الحزن من واقع المواجهة المرة . . وليس ارتكازا على أعماق دينامية تاريخية ، فالحزن هنا ظاهر وعميق فى نفس الوقت .

[١٥٥] ينشأ الاكتئاب الوجودى حين تشتد الرؤية الصادقة لدرجة التعجيز ، فتوقف المسيرة العصابية القهرية ، وقد عنيت بهذا التشبيه على وجه التحديد أن المكتئب حين تدهمه الرؤية فيرفع غطاء الدفاعات . . يتوقف ولا ينسحب ولكنه ينظر إلى الحيـــاة الدائرة . . بعمق وألم . . وكثيرا مايشكو المكتئب مباشرة من هذه الرؤيه . . ويحسد

الذين لم يروها (بعكس البارنوى الســـــاخر المهاجم ، أو الشيزويدى الهارب الخائف) .

[١٥٦] تذكرة برمز نجيب محفوظ عن قصته القصيرة عن الحياة « حكاية بلا بداية ولا نهاية » ، وقد كتبت هذه المقطوعة بلا علاقة مباشره بعنوان أديبنا الكبير ثم اكتشفت وجه التماثل الآن .

[١٥٧] من مراحل العلاج النفسى (الحقيقى) أن يمر الفرد بهذه الرؤية المؤلمة ، ويكاد يتوقف ، وييأس ، وقد يحتج على المعالج أو المجموعة من أنها اضطرته إلى ذلك أثناء مسيرته نحو الشفاء (علشان ارتاح) ولكن الثمن يبدو فى أول الأمر باهظا.

[١٥٨] كثيراً ما أسمع نقاشا بين اثنين من المجموعة فى هذه المواقف يترجم عن ما عنيته بهذا « البيت » تماما ، حين يهم أحدهم بالإنسحاب لعدم قدرته على تحمل هذه الجرعة من

الرؤية ، فيقول له آخر «وماذا ستفعل بمعرفتك ورؤيتك التى مرت بك هنـا » فيرد قائـلا « سأحاول أن أنسى وأغمض عينى » فيسخر الأول « ابقى قابلنى » . . وقـد يعلق آخر « دا بعدك » . . وغير ذلك من تعليقات تشير إلى أن هذه الرؤية يصعب محوهـا . . . وبالتالى فالحل الأفضل هـو استيعابها وَالنمو من خلالها وتكملة المسيرة بإيجابياتهاوآلامها.

[١٥٩] يدرك المريض — والإنسان فى أزمة تطوره — أن من قواعد لعبة الحياة الجارية . . ألا يتوقف الإنسان ليرى دوره أو يسأل عن آخرتها أو يعرف حقيقة مسيرته ، فإن هو فعل فالتوقف تهديد عنيف .

[١٦٠] تذكرة هنا بأن هذا النوع من الاكتئاب ثرى بكل العواطف ، وأنه بالرغم من الألم الذى يعانيه ومرارة الرؤية فهو غير ساخط ولا هو ساخر ، ولا هو عدوانى . . بل متسـامح متألم « الله يسامحكم » .

[١٦١] هذا المأزق الوجودى العنيف — مرة ثانية — هو قمة مأساة تجربة الحزن هذه : التوقف مع الرؤية ، والرغبة فى الحياة مع العجز . . ، وعمق الاكتئاب لا تصحبه الدموع التفريغية المبتذلة ، وهو ليس خبرة جافة متبلدة . . بل تؤكد مأساته وشرف ألمه هذه الدمعة المتأرجحة .

فركيشة

[١٦٢] هنا أكبر صورة مكررة . . ومتواترة فى العلاج النفسى الجمعى ، وقد تعلمت منها الكثير حتى أنى الآن أميل مع مثل هذه الحالات إلى إيقاف التردد على هذا النوع من العلاج متى ما ظهرت معالم هذه الصورة حيث أن صاحبها لا يتحرك فى اتجاه النمو رغم إصراره على الحضور ، وأهم صفة تصف هذه الوقفة هى الاستسهال وتجنب الألم وتصور العلاج تصورا سحريا يحل المشاكل بدون ألم (بالبنج) ، ورغم انبهار صاحبنا أحيانا ، فإنه حين المواجهة « بالهنا »

و « الآن » يقاوم كل محاولة لمعايشة اللحظة الراهنة فى « أنا » و «أنت» ، فاغترابه يؤكد استسهاله وتجنبه العنيف لكل ألم أيا كان قدره . .

ورغم بشاعة هذه الصورة الاعتمادية فلابد أن نتذكر ماوراءها من مبررات جعلت أى درجة من الألم فوق طاقته حتى لتكاد تهدده بالفناء ذاته . . إلا أنه — كما أحاول أن أكرر أبدا — ليس معنى فهم المبررات أن نحرمه من إعادة الاختيار فى جو جديد . . مهما كان الألم المصاحب .

[١٦٣] ويظل هذا الشخص سلبياً حالما بأنه سيشفى بالفرجة والتعلم عن بعد ويحفظ أصول لعبة «الشفاء» و«النمو» و « التطور » . . إلخ وهنا موقف شديد التناقض يصعب فهمه لأول وهله :

أولا : فهذا المريض يحضر بنفسه للعلاج (علاج ما . . يتصوره عادة أنه الراحة والاعتماد) .

ثانياً : أنه بالرغم من صعوبات ما يرى من مشقة وألم لازمين للخوض فى التجربة ثم استمرارها يستمر فى العلاج لفترة ليست قصيرة . . لأنه فى هذه المرحلة يستغنى بمتابعة كل ما يجرى عن مواجهة داخله وكأن أفراد المجموعة تحقق بالنيابة عنه أمانيه وتحل صراعاته أما هو فيتصور أنه «عرف» الحكاية فلا توجد مشاكل ولا خطوات بعد ذلك .

ثالثا : أنه فى نفس الوقت فى موقف المقاومة العنيفة بإعلان « عدم الفهم » متى ما اقتربت الرؤية الذاتية منه ، أو تهدد بضرورة التفاعل .

رابعاً : أنه يصله ما يغيّر تركيبه الدفاعى ولو من خلف ظهره . . أو من خلال ما يسمى الانتباه السلبى ، فلا شىء يمكن أن يُهدر بلا جدوى تماما حتى ولو توقف وصوله عند مرحلة التنظير والعقلنة . وبسبب هذه الزحمة من التناقضات : (مثل الحضور والمقاومة ، الفرجة والاستيعاب السرى) يستمر

الموقف ربما إلى أجل غير مسمى .. وينبغى على المعالج أن ينتبه إلى ذلك كله وأن يحوره كلٌّ فى حينه .

[١٦٤] وفى حالة ما إذا حاول مثل هذا الشخص - بعد إدراكه العقلى لأهمية التواصل الإنسانى . . وتعقيد التركيب البشرى — إذا ما حاول أن يستفيد من هذه الخبرة فإنه يقف موقف المطالب بنصيبه ، أو المعجب بما يجرى (إعجابه المشاهد بالممثلين على المسرح) . . وينتهى موقفه عند التمنى واستجداء العواطف (صراحة أو بطريق ملفوف) ، ولو أبدى أحد أفراد المجموعة له بعض هذه المشاعر التى يطلبها فإنها لا تغذيه بل يطلب المزيد فى وجود متهتك لا يستوعب شيئا.. ويكون اعتماده عادة أكثر مايكون على المعالج تقديسا Idealisation يحمل عدوانا سلبياً .

[١٦٥] وعلى المعالج هنا ألا يستجيب لهذه الإعتمادية — إلا لفترة محسوبة ، وفى بداية العلاج ، وهو بالتالى لا يسمع

بعد ذلك لإستجداءاته ومسكنته . . وفى نفس الوقت لا يرفضها بالمعنى السطحى . . وهو يرجو من خلال ذلك أن يثير محاولته التلقائية للنهوض من البئر الذى غاص فيه داخل دفاعاته وخوفه واستسهاله .

[١٦٦] ولا يمكن أن يستمر الوضع هكذا إلى مالانهاية . . وإلا فما دور المعالج ، ولكن فى خبرتى كنت أترك مثل هذا الشخص إهمالا ظاهريا وإثارة من بعيد لبعيد ، وبعد فترة تطول أو تقصر حسب حساباتى أحاول بداية الحوار ومن ثم التفاعل ، ولكنه فى العادة يكرر الكلمات الجارية فى المجموعة . . أو التى سبق له الاختباء فيها والاحتماء بها وأغلبها يحمل النوايا الطيبة . . والعبارات البراقة ليس إلا .

[١٦٧] تأكيد لموقف مثل هذا المريض السلبى . . ورسم كاريكاتيرى لمحاولاته النظرية (مع وقف التنفيذ) ولإستجداءاته الاعتمادية المطلة .

[١٦٨] هذه الصورة بوجه خاص استوحيتها من صديق كان لى معه تاريخ فى العلاج الفردى . . وكان شديد الذكاء طلق الحديث ، وكنت شديد التعاطف معه والرعاية له فى الفترة التى كان يمر فيها بأزمة دراسية صعبة ، وحين انتهت من هذه المرحلة بالتخرج . . أراد أن تستمر العلاقة القديمة فرفضت . . فقد حصل على مقومات جديدة تسمح له بخطوة جديدة فى النمو . . وبدأ حضور العلاج الجمعى . . وإذا بكل دفاعاته تقفز إلى السطح . . وإذا به يحن دائما إلى مرحلة العلاج الفردى كما تصوره (الكلام . . والطبطبة) ، وهنا أحب أن أشير إلى أن التحسن الظاهرى الذى قد يتوهم المريض والطبيب معاً أنه تم فى العلاج الفردى . . قد تتبين طبيعته الهروبية والدفاعية فى بوتقة العلاج الجمعى بما يحمله من مواجهة وتفاعل ومقارنة واختبار .

[١٦٩] إشارة إلى أن كل هذه المظاهر إنما تدل على التوقف عند مرحلة نكوصية اعتمادية « ملونة » (وأعنى

بهذه الكلمة الأخيرة مفهوم إريك بيرن لها ، أى أنها ليست رجعة نقية إلى مرحلة طفولية وإنما هى مختلطة بأطماع والدية ومكاسب أنانية تعوق أى استفادة منها .

(لاحظ أن الحديث هنا أيضاً هو بلغة الجزء الأعمق من النفس .. كما هو الحال فى هذا العمل كله .. لأن كل هذه الدفاعات تحدث — طبعاً — بغير وعى المريض ولا يراها إلا الطبيب « أو المعالج » من خلال تقمصه بالجزء الأعمق ثم يتبينها المريض فيما بعد) .

[١٧٠] إشارة مكررة إلى أن الكلام — بعد فترة معينة — ولدى أشخاص بذاتهم يصبح دفاعاً هروبياً ، وأن العجز عن التعبير بدونه هو تأكيد لوظيفته الهروبية .

(راجع أيضاً حاشية ١٠٤ ، ١٠٧)

[١٧١] قد يكون وصف الاحساس أداة جيدة لدى الفنانين والشعراء خاصة ، وقد يكون مفيداً لكتابة كتاب

فى هذا العلم ، ولكنه عند كثير من المرضى قد يكون بديلا عن الإحساس ذاته . . ومن ثم اغترابا وهربا ، وإذا كنا نشجع الطفل فى نموه العادى أن يتعلم الرموز (الكلام) فى طريقه إلى التفوق الإنسانى فإن الرموز اللفظية التى تصف الإنفعال بوجه خاص من أعجز الرموز وأكثرها غموضاً وتداخلاً .

(راجع محاضرة ا. د. زيور عن الإكتئاب: مكتبة الأنجلو ١٩٧٦ ، وما ورد فيه عن كلمتى الوجد والوجدان وقد أعددت بحثاً قائماً بذاته فى هذا المعنى سوف ينشر قريبا تحت عنوان : حقيقة الإنفعالات الإنسانية)

أقول إن النمو عند الأطفال وغيرهم لا يعنى أن يحل الرمز محل الخبرة . . وإنما أن يترجم عنها ، وفى هذه الصورة التى أقدمها يخرج اللفظ عن هذه الوظيفة — كما ذكرنا — ويصبح بديلا عن الخبرة . . واغترابا عن الوجود . . لفترة مرضية معينة أو فى مرحلة تدهور اجتماعية مؤقته .

[١٧٢] تأكيد جديد لضرورة إصرار المعالج ألا يستجيب لكثرة استجداء المريض واعتماديته .. حتى يدفع به رويداً رويداً إلى مأزق النمو.. ومواجهة الذات بالمسئولية والإيجابية ..

[١٧٣] إصرار جديد من جانب المريض ألا تكون العلاقة هى علاقة صداقة ومَعِّيه Togetherness وإنما طفل ووالد ، أو تابع وقائد .. وبصفة دائمة ، الأمر الذى ينبغى أن ينتبه له الطبيب دائما والمريض فيما بعد .

[١٧٤] وينقطع المريض إذا استمرت هذه المحاولات تبدو كأنها السبيل الوحيد للنمو .. ويأمل أن تضيع معالمه وسط الناس بدلا من هذه المواجهه الذاتية الشاقة ، ومن مظاهر الضياع بعض أشكال السلوك السيكوباتى تحت عناوين التحرر والانطلاق بلاحدود ،وقد يأخذمظهر العلاقات الغرامية المتعددة ،السطحية ، والتخديرية ، ولكنها أيضاً فى عمقها علاقات اعتمادية طفلية .

[١٧٥] وكثيراً ماينخدع الناس فى مثل هذه التصرفات الدون جوانيه وكأنها تصرفات ناجحة مثرية ، إلا أنى فى خبرتى المهنية على الأقل كنت أتبين من خلال معلومات متراكمة أن كثيراً من هؤلاء الذين يلجأون إلى هذه الوسيلة لتأكيد الذات .. كثيراً منهم يعانى من ضعف جنسى بشكل أو بآخر ، وتفسيره عندى أن هذه المحاولات الدون جوانبه تتم بشكل نكوصى منشق (وليس نكوصاً واعيا) وبالتالى تكون الإعاقة من جانب من النفس فى مواجهة الجانب الناكص إلى المستوى اللاشعورى وكأن أحدهما يقول للآخر: إذا كنت نجحت فى الإغراء فسأفشلك فى التواصل . . ومن ثم يكون المظهر الناجح . . ومن ورائه الضعف الجنسى ومن ثم الفشل الحقيقى مع استمرار الشمار وراء تعدد العلاقات . . واستبدالها وتكرارها بلا جدوى .

[١٧٦] وقد ينقطع المريض فترة عن العلاج هربا من

مأزق النمو ولكن انقطاعه عادة لا يطول . . وحين يرجع يكون عدوانيا بشكل خاص ضد المعالج، ولكن هذا العدوان مع الرجوع هو فى ذاته دليل على استمرار محاولته ، و العدوان بهذه الصورة الاختيارية أفضل من الاعتماد و التقديس بتلك الصورة الخادعة التى سبق شرحها إذ أنه قد يتطور إلى عدوان للاستقلال لا لمجرد إلقاء اللوم .

[١٧٧] وفى النهاية تثار قضية هامة و خطيرة ، وهى : إلى أى مدى يحق للمعالج أن يغير من نوع وجود المريض ، وهذا الإعلان من جانب هذا المريض — رغم سلبيته — إعلان محذر رائع ، وقد اختلف الناس فى هذه القضية أيما اختلاف ، وأغلبهم يعلنون صراحة أنه ليس من حق المعالج أن يتدخل بأى صورة فى نوعية وجود آخر ، وأنا مع هذا الفريق ابتداء إلا أنى أضع تحذيرا أو شرطا واحدا وهو أنه لا بد أن نعيد صياغة هذه الجملة قائلين . . « ليس من حق

المعالج من حيث المبدأ — أن يتدخل فى نوعية وجود آخر إذ أن كثيراً من هذه التدخلات تتم دون وعى المعالج لامحالة فما دام التدخل حادث بوعى أو بغير وعى .. فكلما كان تدخلا واعيا كلما كان آمن وأكثر انضباطا ، وهنا نقول إن الحديث عن المعالج والعلاج يختص بدائرة محدودة فى المجتمع، وأن الذى يسمح للمعالج بهذا التدخل الواعى المسئول هو عاملين أساسين : أولا : وجود أعراض ضاق بها المريض وبالتالى فهو ساع إلى التغيير ابتداء، ثم حضوره باختياره النسبى للعلاج فإذا توفر أحد هذين الشرطين فهو اعتراف ضمنى بأن المريض يوافق على تغيير ما ، والمعالج — كما تبينت أثناء خبرتى وطريقتى — يعرض تغييرين أحدهما تغيير تؤدى نحو النمو والتطور ..(وعليه أن يكون ناجحا شخصيا فى ممارسته وإلا فالخدعة أخطر من كل تصور) .. وهو يقف مع هذا التغيير ويساهم بالمشاركة (وليس بقبول الاعتماد) فى استمراره ويشير

جزئيا من واقع ممارسته الناجحة إلى نتائجه ، والتغيير الآخر الذى يعرضه - بطريق غير مباشر - هو الرجوع إلى نوع الوجود القديم شريطة اختفاء الأعراض والاستمرار على أرض الواقع وهو يترك المريض يلجأ إلى هذا التغيير بنفسه - وربما ضد محاولات المعالج لجذبه للتغيير - حتى ينمى قدراته وانفصاله عن المعالج وتحمله مسئولية نتائجه .. أو عودة ظهور الأعراض بعد حين ، أما الذى يرفضه المعالج فعلا فهو استمرار الأعراض أو استمرار الاعتمادية أو استمرار الخداع « بالرقص على السلم » بين الاختيارين . . وهذه كلها هى المرض النفسى فى عمق معناه ولغته بالأعراض أو بالتدهور المتمزق.

أما هذا المطلب الذى يطلبه صاحبنا فى هذه الصورة فهو مطلب حر فى ظاهره ، خطير فى مغزاه لأنه تنمية للسلبيات وتأكيد لحق الاستمرار فى المرض أو فى الاعتماد .

[١٧٨] وإذا رفض المعالج هذا القبول الدائم الذى

قد ينمى السلبيات . . فإن صاحبنا يتمنى — ويطلب ويعمل على — أن يوقف المسيرة وكثيراً ما يحدث هجوم على المعالج يطالب فيه أن يوقف هذا النوع من العلاج تماما ، فإذا قيل لمثل هذا المعترض أن عليه هو شخصيا ألا يحضر ولا يحرم غيره منه رفض، واستمر يطالب بقتل الأمل فى أى تغيير حقيقى عند الجميع ، حتى يطمئن إذ يموت أمله تماما فى أن يتغير أو أن أى أحد آخر يستطيع أن يتغير ، وليتفرق الجميع بعيداً عن هذه المحاولة حتى ولو كان وجودهم طفليا . . ملوثا . . فلا سبيل لليأس غير قتل الأمل فى الجميع .

نيجاتيف

[١٧٦] هذا موقف آخر « لمتفرج يائس عنيد » ، قتل الأمل من هول الألم ، واكتفى برؤية بشاعة الوجود العصرى فى مرحلة الإنسان الحالية دون أن يدرك أن هذه أول خطوة نحو تغييره .

[١٨٠] كنت أعنى بهذا التشبيه أن قمة هذا النوع من اليأس هو الموقف العدمى المشوه حيث يصبح الوجود مجرد «عفريته» لإمكانية وجود لا يتحقق، هذه واحده . . أما الثانية فحين يدرك الإنسان الشيزويدى حقيقة صورة نفسه المشوهه Distorted Self-Image نيجاتيف (صورة مش متحمضه) ويستقبلها على أنها هى ذاته ليس إلا ، ويسقطها على العالم أجمع .

[١٨١] إشارة إلى أن الذى يخفى صورة النفس المشوهة هو الحيل الدفاعية (العمى) ، وحين تختفى هذه الحيل وتشتد البصيرة يعجز الإنسان عن أن يخفى على نفسه هذا الإدراك المؤلم ، وفى نفس الوقت يعجز أن يعيش مجرد صورة — مثل سائر الناس — وليس كيانا حيا متطورا .

[١٨٢] مرة أخرى : إعلان أن السبيل الوحيد للخروج من هذا الموقف الذى لايدرك حقيقة الوجود إلا من زاوية

اليأس فيؤكد ضرورة أن يخفى الانسان عن نفسه حقيقته حتى يخرج من هذه الحياة دون إضافة .

[١٨٣] إشارة ثانية إلى رؤية الحياة السائدة سلسلة منتظمة من التنويم والخدر والتخيلات الآمله .

[١٨٤] إذْ يستغرق الإنسان العادى فى هذا الحلم حتى لا يدرك أنه يحلم .وكأن الحياة أصبحت حلماً دائما بلا إفاقه فالذى يعرفنا أن مانحن فيه هو حلم ليس إلا هو أن نفيق منه أما إذا استمر إلى غير نهاية .. فإن ذلك قد يعنى أننا أصبحنا الحلم ذاته .

[١٨٥] يقول «شولمان» فى كتابه «مقالات عن الفصام» أن مشكلة الفصامى هو أنه يسعى إلى المثالية المطلقة .. ويصر على تحقيق التكامل الإنسانى التام وإذا به يجد الطريق إلى ذلك مستحيلا وليس مجرد شاق (بعكس الثائر الذى يصر على تحقيق نفس الحلم ولكن بأسلوب واقعى متدرج) ،

أقول إنه متى أدرك هذه الاستحاله . . فإنه يشوه حقيقة وجوده بأن يسقط أبشع مافيه عَلَى العالم . . ولا يستقبل إلا هذه البشاعة المشوهة حتى دون اللجوء إلى الحيل الدفاعية التى تخفى هذه الرؤية المزعجة . . ويكتفى بهذه الوقفة (موقف ذى البصيرة العاجزة اليائسة) . . إذ هو لا يقبل أن يعيش الحياة العادية (صورة) وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يتكامل (الحقيقة) ولا يتبقى له إلا وجود شائه . . يمثل جزءاً من الحقيقة ولكن بلا فاعلية إطلاقا .

[١٨٦] إشارة إلى رأى أفلاطون فى الفن ، وأنه تقليد التقليد ، حيث يعتبر الواقع (مثل مثال السرير) هو تقليد لعالم المُثل ، ويعتبر الفن مجرد تقليد للتقليد وليس اقتراب من الأصل

الترعة سابت فى الغيطان

[١٨٧] صورة تفصيلية تعلن عدم فاعلية العواطف الملتهبة غير المسئولة مهما تدفقت (راجع أيضا حاشية ١٣٧)

[١٨٨] الري « بالراحة » هو تعبير من بلدنا ، يعني ذلك النوع من الري الذي لا تستعمل فيه أي آلة (حتى ولا الطنبور ولا الحلزونة) وذلك حين يكون مستوى الماء في الترعة أعلى من مستوى الأرض ويكفي الفلاح أن « يقطع » مدخل المياه فتنساب إلى الأرض « بالراحة » ، أما تعبير طفي الشراقي ، فهو يعني أن الأرض في موسم الجفاف تترك لتعطش حتى تنشق قشرتها تماماً ، ثم تطلق المياه فيها بلا حساب ولا حدود حتى تمتلىء الشقوق وتغطي الأرض كلها بالمياه ويسمى هذا « طفي الشراقي »

[١٨٩] الحاجة إلى الحنان حاجة ملحة وشاملة .. وهي تظهر في المكتئب ، والوحيد ، والمنعزل بعد توالي الإحباط . . الخ ، ولشدة هذه الحاجة فإن استقبال هذا النوع من العواطف يعمي عن طبيعة البحث في نوع العواطف المعروضة .

[١٩٠] هذه تركيبة معقدة نوعاً ، أردت بها عدة أمور

أولا : أن أشير إلى أنه إذا أصبحت العواطف غير بناءة أو مسئولة ، أصبحت عبئاً طفلياً ناكصاً ميتاً (كورة من الشراب تضربها رجلين العيال) وثانياً : أنه بالرغم من هذا النكوص العابث فإنها قد تهز وتهدد قيما محافظة أو مهارب فى مظهر التدين مثلا (دون حقيقته وجوهره) ، وحين تهتز مثل هذه القيم تثور وتحاول أن تغتال العواطف الفطرية دفاعاً عن استمرار القديم . ويقمع النكوص بلا رحمة وثالثاً : أن مجرد النكوص رغم عدم فاعليته قد يثير رؤية أخرى تهدد بأن توقظ النظام القائم من غفلة التنويم ، وهنا تقهر أيضا فورا وبكل عنف .. (واللى يصحى الناس يا ناس أكبر غلط) .

وأعيد هنا أنه حتى لو كان النكوص غير مفيد لصاحبه فى أغلب الأحوال فإنه قد يكون مفيدا لتذكرة الوضع القائم أن هذا الوجود الذى نعيشه ناقص إذا لم تستمر محاولة التكامل، بأن تلتحم القشرة بالقاع،حيث أن رفض النكوص وسحقه..

وكذلك الجنون دون الاستفادة بما يعنيه .. هو دفاع لاستمرار الوضع الراهن دون تغيير .

[١٩١] فى العلاج النفسى والتربية .. يكون عامل «التوقيت» هو العامل الأول فى المساهمة الجادة فى البناء ، فالمشكلة ليست مشكلة إعطاء الحب والحنان ، أو تعليم المسئولية والالتزام ، ولكن المشكلة هى «متى» هذا ومتى ذاك ، والنقد هنا ينصب على هذا الإغداق بالعواطف المعطلة فى غير وقتها المناسب .

[١٩٢] تشبيه مركب آخر لطبيعة العلاج النفسى (وتربية الأطفال) من حيث أنه يحتاج - بالإضافة إلى عامل التوقيت الذى ذكرناه فى الحاشية السابقة - إلى خطوات منظمة ، وإلى ضبط العواطف وأحيانا منعها حتى تجف الأرض ، ليس بالإهمال ولكن بالحساب ، [راجع أيضاً حاشية ١٦٥ ، ١٧٢] ثم إلى جرعات منظمة من الألم والعمل (العزيق) أو جرعات قاسية من الرؤية العميقة للوصول إلى الجوهر (ضربة المحراث تشق الأرض تقلب تبرها)

[١٩٣] تأكيد جديد لنفس المعنى ، وللأسف فهذا المعنى

ـ التلقائية بلا حدود.. وتجنب الإيلام ـ هو الشائع فى الكذبة التى كادت تضيع أطفالنا تحت اسم «التربية الحديثة»، والتى تشوه معنى العلاج النفسى البناء وتجعله مجرد نزهة للتبرير والطبطبة، وكثيرا ما قابلت شبابا ونساء كانت ثورتهم الحقيقية فى داخل داخلهم هى أن المسئولين عنهم فى مرحلة ما من مراحل عجزهم كانوا أجبن من أن يقولوا لهم «لا»، وأعنى بها «اللا» المُحبَّة المسئولة مهما بدت قاسية أحيانا.

[١٩٤] حيث أن الحنان إذا لم يسبقه ويلحقه ويصاحبه تهيئة النظام التربوى الذى يستوعبه ويستفيد منه يصبح إطلاقاً للسلبيات تحت عناوين حديثة براقة.

[١٩٥] توضيح لطبيعة هذه العواطف وأنها ليست عواطف إرادية إيجابية مسئولة ولكنها خوف من الألم، ونوع من الهرب من المواجهة ومن التناقض اللازم للجدل التطورى، وتجنب للجهد والمشقة. (وتعبير «قلة مفيش» تعبير سائد عند أولاد البلد يعنى العدم والفراغ).

[١٩٦] فإذا لم يتوفر المنهج المناسب، والتوقيت المناسب، والجرعات المناسبة فإن الإنسان المحروم من الحنان، الجاف من الوحدة يجد نفسه فى موقف مؤلم أشد الإيلام وخاصة لو وعى به، فهو بين سبيلين كلاهما يؤدى إلى الضياع: إما أن يقبل هذه العواطف «السائبة» وهو يعلم أنها قد توقف محاولته، وإما أن يستمر فى وحدة قاتلة أيضاً...

فانوس ألوان

[١٩٧] حالة أخرى من حالات «الرؤية المرّة»، و«الصدق المعجز»، وقد كانت محاولات هذه الحالة بوجه خاص محاولات عنيدة فى ألا ترى ما فرضه عليها داخلها، وقد أخذت تتذبذب بين المحاولة فى أن تصحب القافلة التى تسير - أو تحاول السير - على طريق النمو المستمر، وبين محاولات العمى والتراجع واليأس، وقد دفعت فى هذا وذاك الكثير الكثير، وكان أصعب ما يعجزها هو حدّة رؤيتها، حتى أنها

كانت ترى مناورات تعمية نفسها (أبقى شايفه .. إلى عاميه)
وكانت إذا أقبلت .. تركت كل شيء وراءها (حتى ماشيه
حافيه) وإذا تراجعت شكّت فى كل شيء حتى فى وجودها .

[١٩٨] وحين يفشل العمى ، تلجأ إلى الشك والتشكيك
فى الآخرين وفى الطريق وفى نفسها ، وهذا الشك
فى حد ذاته كانت تضرب به هى من داخله .. وتشك فى شكها ..
وهكذا ، وفى العلاج النفسى ينبغى الحذر من هذا التصعيد
فى الرؤية قبل استيعابها . بل إن الشك قد يخفى وراءه يقين
بما يقول به ويكون مجرد عرضه فى صورة شك ماهو إلا تأكيد
أكبر له ، كما أن رؤية السلبيات والنقد الذاتى قد يبدو نوعاً
من الصدق فى حين أنه قد يخدم تأكيد السلبيات إذا لم
يصاحبه تغيير عملى يومى .

[١٩٩] حين تسقط الحيل الدفاعية ، ويهدد الإنسان
بالتعرى ، ومع ذلك فهو ما يزال يحتفظ بقدرته على السيطرة

على نتاج رؤيته بوعى متماسك ، يصبح الموقف من أصعب ما يواجه الطبيب النفسى والمعالج النفسى تشخيصاً وعلاجا، فالمريض هنا (وغيره) يملك زمام ظاهره بقـدر معقول .. ويوجهه كيف شاء وفى نفس الوقت فهو لا يهرب من رؤية داخله الأصـدق .. بل هو يخفيه فقط عن الآخرين ، وهذا موقف قوى بلا أدنى شك إلا أنه غير محتمل إلا لو أفرغ فى إبداع فنى خلاق ، أما فى هذه الصورة فإنه كان ،رغم عنفه وما يصاحبه من آلام ، .. كان موقفاً مجمدا معظم الوقت .

[٢٠٠] من بعض المناورات الشعورية فى هذا الموقف أن تختلط أجزاء رؤية الحقيقة مع محاولات إخفائها عن الآخرين بشكل مشوش حتى يغمض الموقف على أمل أن تنطفىء الشعلة فى الداخل يوماً ما ، وبالتالى تتوقف مسيرة النمو .

[٢٠١] وهذا النوع من الوجود غير قابل للاختراق ـ على حد خبرتى ـ إلا على المدى الطويل.. وعلى مسافة بعيدة تماما ،

فالعلاج النفسى التقليدى لا يصلح له ، والعلاج العنيف يقابل بعناد وتحد بلا هواده ، وتصبح كل القدرة موجهة إلى تملك ناصية الوعى والإرادة ضد أى محاولة تغيير أو اقتراب من الخارج .

[٢٠٢] عودة إلى تأكيد جديد — من واقع حالة جديدة — أن مجرد النداء بسقوط الشر والهتاف بحياة الحب قد يبدو مغنيا عن تحمل مسئولية ترجيح الخير واستمرار المسيرة على أرض الواقع .

[٢٠٣] ورغم هـذا العناد القوى . . إلا أن الموقف المتوقف هنا لا يفيد أى درجة من الهدوء أو يحقق أى أمل فى حل سهل ، بل هـو موقف تتصاعد مرارته باستمرار لاصطدام حـدة الرؤية ، مع عناد الجمود مـع الخوف من الاستسلام والاعتماد ، مع العجز عن النسيان والعمى ، أو حتى التعامى . . . ولا يأتى الغد .

[٢٠٤] لكن هذا موقف لا يمكن أن يستمر بأى حال من الأحوال ، وقد تخفف من وطأته بعض الوقت — أو كل الوقت . . أحلام وردية ، ولكن بالنسبة لهذه الصورة ، فإن هذه الأحلام كانت دائماً مضروبة بحقيقة الرؤية ومرارتها .

[٢٠٥] أحلام « المطلق » تعود .

[٢٠٦] أحياناً — بل كثيراً — يتصارع الوجود الشخصى (الملكية وعلاقة الدم وخاصة الامتداد فى الأطفال) . . مع الوجود العام : (الشيوع والأمل فى العدل المطلق . . وسعادة الجميع) وبديهى أن هذا الصراع صحى يؤكد قصور الإنسان من ناحية وإصراره على امتداده فى أطفاله مادام قد عجز عن التأله والخلود . . كما يؤكد من ناحية أخرى هدف تطور الإنسان فى النهاية حين يصبح مجرد حلقة متواضعة مثلها مثل سائر حلقات الوجود . . وبالتالى فإن علاقته بأطفاله يمكن أن تصبح مثلها مثل علاقته بكل

الناس . . ووجوده كفرد لا يتميز بأى أفضلية ولا يتقيد بأواصر الدم وإنما بالقانون العام . . وهذا الصراع يشتد تماما عند أزمة التطور . . وفى تجربة الجنون ، حين يستيقظ الجزء العام فينا ، وفى نفس الوقت لا نستطيع التخلص من الجزء الخاص .

والصورة هنا تمثل الأمل البعيد فى أن يصبح الخاص عاما وبالعكس ، ورغم أن هذه الصورة هى أمل الإنسانية فلا شك أن مذاهب ونظريات تقدمية تصورت إمكان تحقيقها بسرعة أكبر من تقديرها لقدرات الإنسان الحالية ، فظهرت مشاكل التباعد بين النظرية والتطبيق ومضاعفاتها : وفى خبرتى فى العلاج النفسى — (كما ذكرت سابقاً — حاشيات ٨٨، ٨٩، ٩٠) آمنت أكثر فأكثر أن جرعة التطور لا بد أن تتناسب مع إمكانيات الإنسان الحالى وأن الثورة تطلق قدرات العمل الحضارى المادى ، والعمل الحضارى يمهد

للثورة ويعدّلها حين يعجز وحده عن دفع عجلة التغيير بالسرعة اللازمة .

[٢٠٧] حين يفرض تحد مثالى على الطبيب — أو المعالج — النفسى ، فلابد أن يفتح عقله لاحتمال تحقيقه وألا يبادر بالرفض أوالتعجيز ، وخاصة إذا كان صاحب التحدى يحمل مسؤليته ، (وهو أمر نادر فى موقف العلاج النفسى وإلا فلماذا جاء للعلاج ؟) والطبيب عموما يستفيد من فتح أبواب عقله للاحتمالات الجديدة ليتطور هو ذاته . . وفى نفس الوقت يسمح للمريض أن يحس بذاتيته . . ويتحمل مسئوليته فى النهاية . . سواء نجح أم رضى بالتوقف.

[٢٠٨] والطبيب نفسه تنازعه رغبة الاعتماد (الطفل) على مريضه (وهذا من أخفى دفاعات الطبيب وأخطرها) الذى يمكن أن يحقق له ما يأمل فيه هو ذاته « بطريقة سحرية » ،

ويتعارض ذلك مع حساباته وتعلقه وتردده (الطفل .. والشيخ . . لغة إريك بيرن) .

[٢٠٩] تأكيد لنهاية هذه الصورة إلى فراغ . . مادامت قد بعدت عن الواقع فالناس مجرد حلم . . والأمل مجرد هرب .

[٢١٠] تأكيد أخير أن الرؤية هنا كانت ناراً تحرق . . بلا فاعلية .

[٢١١] ولكن الحياة تسير . . والتحدى مستمر ، وقد تركت الباب مفتوحا لكل ما هو مستحيل (وهو الذى لم يحدث حتى كتابة هذه السطور) .

البيت المسحور

[٢١٢] هذه الصورة من أعقد ماقابلت فى كل خبرتى ، وقد أخرت الكتابة عنها شهورا طويلة لأنى لم أستطع أن

أسير غورعيون صاحبها ، وحتى حين كتبتها انتهيت بها إلى علامة استفهام .

أما من ناحية الشكل فقد وجدت أنها أقرب الصور إلى القصص الشعبى الذى أشرت فى البداية إلى أن هذا العمل الذى أقدمه هو الصورة البديلة لهذا الفن المنقرض تحت وطأة ضربات التقنية والسرعة ، فهى رحلة فى داخل النفس أحاول من خلال طبقات العين وما يقابلها من طبقات شخوص النفس أن أقدم خلاصة رؤيتى لبعض جوانب صورة الوجود البشرى .

[٢١٣] وقد كانت هذه هى الحقيقة ، فكلما وصلت إلى تصور رؤية معينة لصاحب هذه العيون فاجأنى بعد فترة بعمق آخر ولغز آخر ، وهنا أحب أن أشير إلى ضرورة الصبر فى إصدار الأحكام فى مجال العلاج النفسى خاصة (والحياة عامة) وإلا عوقت الأحكام مسيرة التقارب والنمو ، وعلى المعالج أن

يكون متفتحا دائماً للمفاجآت . . وإلا فإن رحلته داخل النفس سوف تنتهى قبل أن تبدأ . . ورغم ضرورة التمسك « بنظرية ما » كبداية ، إلا أن المعالج ينبغى أن يكون هو سيد النظرية لا عبدا لها ، وفى رأيى أن فرويد رغم تطويره نفسه ورؤيته و نظرياته باستمرار . . إلا أنه كان سجين فكره الذى بدأ بتفسير الأحلام خاصة ، كما أنه لم ينل فرصة ممارسة علاج الجنون بالعلاج النفسى ، تلك الخبرة التى أتاحتها لنا العقاقير الحديثة ، والتى جعلتنا نتخطى رؤية فرويد مع احترامنا لمحاولاته

[٢١٤] إشارة أولا : إلى ما تركتنى فيه هذه العين من حيرة بعد هذه الرحلة الطويلة ، وإشارة ثانياً إلى عمق ومركز الوجود البشرى : هل هو الفطرة الطاهرة البريئة المنطلقة ، أم هى قلق المادة اللاحية الجافة التى تولدت منها الحياة ؟ وهذه قضية تحتاج إلى مجلدات لنقاشها وإن كنت أرجح الفرض الأول (فى جدل مع الاحتمال الثانى لتحقيق مسيرة الحياة المتطورة) .

[٢١٥] أول طبقة فى الوجود الإنسانى المغترب هى طبقة خاوية (خراب) تتصف باللامبالاة ويظهر العرض يعلن طبيعة هذا الخواء، وكأنه يعلق وجوده وكما ألمحت سابقا فإن الأعراض ماهى إلا إعلان خراب «وجودٍ» ما، وعدم جدواه، وميزتها الأساسية — رغم طبيعتها المرضية — أنها تعلن فشل هذا الوجود وعجزه، ومن هنا أصبحت ذات قيمة عامة وإن كانت فى ذاتها مصيبة لصاحبها إن لم يستفد منها ويستوعب ماوراءها، والمجتمع (نحن) نرفض المريض (المجنون خاصة) لأنه يعلن فشل هذا الوجود المغترب، أو نهاجمه أو ننحيه جانباً، ولكن صاحب العرض لا يلق إلا حقيقته التى هى انعكاس لحقيقة ما حوله، ودفاعاتنا ضد المجنون (بلفظه ووصمه وتصنيفه) هى دفاعات تحمينا من مواجهة هذه الحقيقة، وقد حاولت فى هذه الصورة أن أعلن بتقمص العرض، رامزا إليه بالبومة، أنه إذا كان الجنون عارا سلبيا فى طريق مسيرة الحياة، فهو الوجه الآخر للوجود

الناقص الذى نعيشه ، وعلينا أن نقبله ونحتمله إن كان خطوة نحو الكمال . . ولكن ينبغى أن ننزعج منه ، ونمرض به ، إن كان نهاية المطاف .

[٢١٦] والمرض بهذه الصورة هو رفض للموت النفسى الخبيث إذا لبس ثوب الحياة العادية المتجمدة ، وعلى ذلك ، وبالرغم من أنه هو فى ذاته موت آخر متحلل . . إلا أنه صيحة حياة بشكل ما ، أو هو موت الموت إن صح التعبير ، والموقف تجاه رؤية الجنون إذا ينبغى أن يتغير . . لا بقبوله وتشجيعه ، ولكن بالاستفادة من رؤيته كجزء من حقيقة وجودنا . . لا يمكن نسيانه أو إهماله ، ولا يمكن فى نفس الوقت التسليم له والاكتفاء به .

[٢١٧] وكما يتشاءم الناس من صوت البومة ويخافون نذيرها ، يرفض الناس مواجهة خبرة الجنون ويتهربون منها ، وكأن ذلك إصرار ضمنى على أن تمضى الحياة بلا حياة ، كالدائرة المقفلة دون صدمة وعى أو احتمال إفاقة (تخرب فى السر) .

[٢١٨] مررت فى فترة من فترات حماسى فى تحقيق نبض فكرى «حالاً» ، كنت أميل فيها إلى رفض الفن كمهرب بديل عن الحياة ، ورفضته كتفريغ إسقاطى لما يعتمل بنفوسنا ، ورفضته كخدعة مخدرة تؤجل مواجهتنا بالتزام اللحظة الراهنة ، وشجبت أثنـــاء ذلك السينما والمسرح . والشعر وغيرها من الفنون ، وكنت آنذاك فى أشد حالات إصرارى على أننا « إما نعيش الآن .. أو ..لا نعيش» ، ثم مرت الأيام وصدمنى الواقع والفشل ، وأدركت أن بُعد الزمن ضرورى للتطور ورأيت قصور مرحلة وجودنا البشرى الحالى .. وعدت أتصالح مع الفن كرؤية للمستقبل ، وإيقاظ للوعى ، وبديل عن الجنون وتعلمت أنه لا يضير الفنان ألا يعيش رؤيته العميقة فى الحياة اليومية ، فهو يبلغ الرسالة إلى أهلها ، ويقوم بدوره بغض النظر عن نوعية وجوده الشخصى ، كما تعلمت أن إيقاظ الوعى التنويمى السائد إنما يتم بنجاح أكبر بصدمة

الفن الحى . . وإلا فقد يتم بثورة الجنون بسلبياته . ومخاطر التناثر من جرائه .

وحين كتبت هذه اللمحة كنت أعلن احتجاجى على لسان المريض الذى يعلن خراب حياتنا على هذه الصورة لو أننا اكتفينا بطرح وَجودنا الآخر ومشا كلنا على المسرح والسينما . . وغيرها . . إذ ما هو إلا خداع وهرب (وكانت هذه الصورة تتأكد لى بوجه خاص كلما تأملت الوجوه حولى فى نادى السينما) .

أما نهاية الفقرة فكانت إشارة إلى الوسيلة التنويمية الجديدة وهى التلفزيون الذى حل محل مجالس السمر والنقاش العائلى والتواصل الوديع حول قرطاس لب او فكرة حدوته ، وقد لاحظت أن التلفزيون — كما كان يقول المرحوم استاذنا يوسف جنينه — يجمع العائلة فى المكان ويفرق بين أفرادها فى العاطفة .

[٢١٩] رمز لإختفاء الحياة باللامبالاة المرضية . .

[٢٢٠] وراء اللامبالاة الظاهرية دنيا زاخرة من طبقات النفس الخائفة ، أو المنسحبة أو المختبئة ، لا يكشفها إلا عدم الرضا بالتسليم بالظاهر فقط ، وفى التعليم الطبى النفسى ننبه على الطلبة والزملاء الأصغر أن الأعراض هى مجرد الطبقة الظاهرة للسلوك ، أو قشرة الوجود وأن الوقوف عندها معطل عن فهم المريض ، ومعجّز عن مساعدته ، ولو غاص أى واحد منهم فيما بعد الظاهر خلف اللامبالاة (فى الحياة العادية أو المرض لوجد) عالما زاخرا بالشخوص والمشاعر .

[٢٢١] هنا تكثيف لمفهومين من مدرستين متباعدتين : المفهوم الأول هو مفهوم يونج (كارل جوستاف) عن اللاشعور الجمعى وأن الإنسان عمره لا يبدأ يوم ولد ولكنه يحمل دهورا من الحكمة والغرائز فى أعماقه ، والمفهوم

الثانى مستمد من لغة إريك بيرن (مدرسة التحليل التفاعلاتى) فى حديثه عن حالة الأنا الوالدية التى تشمل الجد وجد الجد.. فى التحليل الأعمق . . الخ) وهى إشارة إلى أن التركيب البشرى ممتد عبر الأجيال : ليس فقط بالوراثة بمعناها السطحى ، ولكن بمعنى البصم على تركيبات كيميائية معقدة تكوّن الذاكرة الجينية Genetic memory ، أما ما أردته هنا فهو أن القديم والحكمة لها تمثيل كامل فى وجودنا ، ومن ثم فإن استيعابهما وتمثلهما فى الحاضر مع قوة الغريزة هو السبيل الحقيقى لمسيرة التطور ، وإلا فإهمال أى جزء جهلا أو خوفاً لا ينتج إلا إنسانا ناقصاً لا محالة .

[٢٢٢] رمز الطفل المتنازع عليه من المرأتين فى قصة سيدنا سليمان ، وتهديد الأخير لها بشقه مناصفة بينهما . . فيه تلميح رمزى إلى الإنقسام الذى يحدث أثناء النمو للنفس البشرية (وهذا تصور شخصى يقابل الانشقاق المبكر حسب فكر المدرسة التحليلية الإنجليزية الحديثة « فيربون وجانتريب) .

[٢٢٣] نقد للاتجاه المسمى بالتربية الحديثة التى تشجب القسوة تماما حتى البناءة منها فى شكل الحزم . .

(راجع حاشية ١٩٣) .

[٢٢٤] المخاطر البشرية حالياً بالقهر والسحق والظلم مرعبة حتى لتغنى عن إسقاطها على عالم الجان ، وإذا لم نضع ذلك فى الاعتبار فى تربية الأطفال لتهيئة التناسب بين جرعات الحنان والقسوة وحسن توقيتهما . . فالنتيجة هى السحق تحت أقدام الشر المعاصر فى العدوان البشرى العنيف على بعضنا البعض.. ووظيفة العصى الرحيمة فى تربية الأطفال هى أننا نعد الطفل لمواجهة قسوة المجتمع بما ينبغى .

[٢٢٥] لم يعد الوجود البشرى العدوانى يرتدع بردع داخلى أو خارجى ، ولم يعد للكبير أو الإله أو «الكرسى»

قيمة ، ومات كونفوشيوس فى العصر الحديث ، وأرى أن كل ذلك يحرمنا أصلا من التفاعل الجدلى الضرورى للنمو

والتكامل أما « الناس » هنا فأرمز به إلى أن البشر الجان هذه الأيام لا يضعون فى اعتبارهم « الآخرين » أصلاً ، حتى اختفى الحياء من التعامل بين الناس أو إدخالهم فى الحساب ، وأنا لا أدعو إلى السجن فى آرائهم ولكنى أصر على ضرورة التفاعل معهم والتقارب إليهم حتى بخوض مغامرة تغييرهم من خلالهم

[٢٢٦] إضافة تفصيلية فى نفس الإتجاه تشير إلى سطحية ماوصل إليه وجودنا من طرح «الحكمة» وراءنا والإكتفاء بتمنيات الحظ ، وسطحية النصائح وفراغ المجاملات .

[٢٢٧] إشارة تؤكد أن الاستغاثة بالقديم وحده عبث لا طائل وراءه ، فالقديم مهما بلغت حكمته هو ماض لا يكرر ، قد يفيد ولا بد أن يفيد ولكنه انتهى حقيقة .

[٢٢٨] سورة النمل .

[٢٢٩] تأكيد رمزى جديد يعلن عجز القديم وحده مهما بدا حكيما .

[٢٣٠] حكاية الجان الذى ظل يخاف من سيدنا سليمان بعدما مات حتى تسوست عصاه ، وانكفأ على وجهه . . فأدركوا موته .

[٢٣١] إذا اختفت الحكمة — دون بديل يستزعبها ، فإن النقيض وهو « إدعاء المتحرر » (فى صورة الإنحلال) سوف ينطلق . . فى طريق مسدود .

[٢٣٢] إن ما يمثله القديم الحكيم . . سواء بجذوره فى اللاشعور الجمعى ، أو فاعليته كحالة من حالات الأنا الوالدية . . ليس أعمق طبقات النفس بل وراءه أغوار وأغوار .

[٢٣٣] مازالت نظرة «موناليزا» وبسمتها تحير النقاد ، أما ماأردت توضيحه هنا باستعارة صورتها فهو بعدٌ خطير فى النفس الإنسانية لايدركه إلا الذى يستطيع أن يحتمل

غموض التناقض Tolerance of ambiguity دون تناثر ، فهذه الطبقة من النفس هى الفطرة وهى الغريزة فى آن واحد ، (الطاهرة الفاجرة) ويصعب على الشخص العادى أن يتصور اجتماع هذين النقيضين إلا أن اجتماعهما أكثر تواترا من كل تصور ، بل إن البديل عنهما هو التبلد والخواء .

[٢٣٤] إذا ما اقترب الانسان من الفطرة . . . (ماقبل الحكمة والحذر) . . خيل إليه أن السلام والمحبة — وهما غاية الانسان فى النهاية — قدأصبحا فى متناول اليد ، إلا أن هناك طريقين للوصول إليهما سبق أن أشرت إليهما فى هذا العمل ولا بأس من التكرار هنا :

الأول : هو طريق التكامل الطويل الجدلى المتصاعد . . وهذا هو الطريق الوحيد للوصول إلى المحبة المسئولة والسلام

والثانى : هو طريق الرجوع وإلغاء المخاوف ورفض الشك . . وهو طريق نكوصى غير قادر على مواجهة الواقع

أو الاستمرار فيه، والصورة هنا على مستوى هذا العمق تشير إلى الطريق الثانى وتحذر منه . . حتى لو لبس ثوب التصوف السلبى الوديع الباسم .

[٢٣٥] تذكرة بأننا ما زلنا نكتشف أغوار هذا الشخص الملغز .. صاحب هاتين الصفتين بأسرارهما وطبقاتهما ثم نداء متسائل معترض على هذه الخدعة الانسحابية الهروبية .

[٢٣٦] عودة مؤلمة إلى التذكرة بواقع الناس وجوعهم، وسيطرة الشر ، والالتزام بمواجهه قوى الدنيا على أرضها.. الأمر الذى لا يصلح معه هذا الهرب الحلو فى حضن الفطرة وكذب أمان النكوص . وخدعة التصوف السلبى ، أو التجمعات « الهبّية » المنعزلة .

[٢٣٧] إشارة معقدة جديدة إلى الهرب من « الآن » بالأمل . . أو اجترار الأمس .

[٢٣٨] محاوَلة تشويه مدبر لهذا الهرب الجميل .. وفيه إشارة خفية لمرحلة رفض الفن كبديل عن مسيرة التطور على أرض الواقع التى سبق الإشارة إليها (حاشية ٢١٨)

[٢٣٩] اشارة إلى قصة صورة «دوريان جراى» لأوسكار وايلد » بما ترمز إليه .

[٢٤٠] فكرت أن أكتب فى هذه الحاشية موجزاً لقصة « دوريان جراى » ، إلا أنى اكتفيت بما ورد فى النص هنا ، أما ورود هذه الصورة على هذا العمق الرابع لصاحبنا ، فكان تعبيراً منى على أن هذه البراءة والهدوء والخلود فى المستوى السابق ، لا تدل على عجز فقط عن مواجهة الواقع بل إنه قد يخفى وَراءه نقيضه تماماً ، وهذ القضية تواجهنى بشكل مؤلم يشككنى كثيراً فى رقة الناس وبراءتهم فى مجتمع قاهر قاس وقد تكرر شكى فى أكثر من نقطة وصورة فى هذا العمل (راجع مثلا العين الرابعة ، والخامسة)

إذاً فالحذر من هذه الصورة البريئة والبسمة الفطرية الساحرة .. هو حذر ذو شقين :

الأول : الإشفاق عليها من مواجهة مرارة الواقع ، والثانى : الانخداع بها وهى قد تخفى وراءها الوجه الآخر لبشاعة الوجود إذا لم نكتمل واكتفينا بمظهر رقيق مخادع .. وأعماق مفترسة لئيمة .

[٢٤١] وبعد كل هذه الرحلة الطويلة والافتراضات المتلاحقة ، تركنى صاحب هذه العيون فى حيرة من أمره لا أدرك ماذا يقبع فى أغواره ، غير أنى شككت فى أمره حين درست علاقاته مع أقرب الناس إليه، وخشيت أن يكون قد أسقط كل ضعفه وشره وقسوته ونوازعه على أقرب الأقربين إليه .. وبذلك بدا هو رائقا رقيقا ملفزا ، وبدا هذا القريب مشوهاً هاجزا .. وهذا أشبه بما يعرف فى الطب النفسى بالجنون المقحم Folie Imposé حيث يلتحم شخصان فى نفس

واحدة ويقتسما طبقاتها، وقد يختص أحدهما بالسلبيات والآخر بمظهر الإيجابيات وهكذا ... ، وقد أردت هنا أن أوضح مدى الصعوبة عبر شهور وسنين فى إدراك حقيقة أطوار النفس دون الوصول إلى نتيجة حاسمة ، والفقرة التالية تضع هذا الاحتمال الذى ذكرته هنا كمجرد احتمال .. ولكنه يشير إلى ما يمكن أن يستقر فى داخل الداخل تحت أعمق الأغوار المفترضة .. وما يمكن أن يلحق أحدهم من ظلم لو أغفلنا الإلمام بكل جوانب الصورة بما فيها العلاقات الخارجية .

[٢٤٢] هذه هى صورة الشخص القريب من صاحب هاتين العينين الملغزتين وهى التى أشرت إليها فى الحاشية السابقة ، وشككت أن تكون هى الجزء الآخر لهذا التركيب التكافلى المعقد .

[٢٤٣] إذ أنها لو « أحست » (أى دبت فيها الحياة) فإن توازن صاحبنا قد يختل ، فمن طبيعة هذه العلاقة

التكافلية المرضية أن الشخص البادى الإيجابيـة والسلامة يستمر كذلك طالما الآخر ساكنا بسلبياته ومواته ، أما إذا تجرأ وحاول التخلص مما هو فيه بالاستقلال فإنه يلقى مقاومة شديدة من الشخص المستفيد من وجوده السلبى .

[٢٤٤] أعنى الموت النفسى .. الذى لو تم تماما لارتاح صاحبنا ذو المظهر السليم ، لأن ما يقلق هـذا الطرف بادى السلامة هو الحركة الداخليـة للطرف الآخر إذ يطلب حقه فى الحياة .

وهذه العلاقة التى أشرت إليها هنا ليست نادرة كما نتصور ونراها شديدة التواتر بين الأزواج ذوى الشخصية الطاغية وزوجاتهم ربات البيوت السلبيات .

[٢٤٥] بمعنى أن كل مساوئه تظهر عيوبا فيها وليست فيه .

[٢٤٦] وانتهت الصورة وأنا غير متأكد من شكوكى، وكنت أعيش الألم كله حين أتصور احتمال صدق هذه الشكوك

لما نالته هذه الطفلة (نفسياً) من هجوم ورفض وإهانة .. دون النظر إلى أن مصدر التشوه هو من شريكها اللغز . . وأنها مجرد الوجه المشرق لأعماقه هو .

الزير

[٢٤٧] هذه الصورة لشخص عزيز ، كان ينبغى أن يكون موقفى معه مختلف لأسباب متعددة ، إلا أن هذه الخبرة التى خضتها والتى خرجت من هذا العمل كانت من الحدة والإلزام بدرجة لم تسمح لى بالتجاوز فى الرؤية مهما كانت الأسباب ، وهذا الشخص ذو طبع صامت هادئ يطمئن كل من حوله بشكل شبه عام ، وكان بديهى أن أشارك فى هذا الاتجاه لشدة حاجتى . . . للطمأنينة ، ولكنى أحسست أن فى ذلك ظلم له ، فمعنى أن تطمئن لشخص ما بهذه الدرجة وبهذا الإجماع أنه سيتحمل ثمن طمأنينتك ، هذه واحدة . . ثم معناه أيضاً أن هناك اعتمادا ضمنيا على هذا الوجود بادى الاستقرار ، وَفى

الحالين، فالإثنان يخسران بشكل أو بآخر .. المعتمد والمعتمد عليه .، وفى العلاج النفسى ينبغى أن يكون المعالج على وعى كامل باعتماده على مرضاه .. بأى صورة من الصور .. ومن مثل ذلك الاطمئنان إليهم .. والمبالغة فى رؤية مزاياهم .

وفى العلاج النفسى الجمعى خاصة قد يظهر مثل هذا الشخص المعتمد عليه وسط المجموعة ـ غير المعالج ـ ، فيقوم بهذا الدور المطمئن . . فيعوق اعتماد الآخرين على أنفسهم بشكل ما .. إذ يعوق مصارعتهم فى اتجاه استقلالهم .

[٢٤٨] ينبغى أن نفرق بين أن تكون مستويات الوجود البشرى للفرد بعيدة عن بعضها ، من أن تكون متصارعة مع بعضها من أن تكون متصادمة مع بعضها ... وأخيراً.. متعاونة مع بعضها ثم فى النهاية متكاملة فى بعضها .

والصورة هنا تؤكد هذا الابتعاد المرحلى .. بمعنى أن ظروفا ما قد تضطر الإنسان أن ينمى قشرته المتصلة بالعالم

الواقعى على حساب حاجاته الفطرية وحقه فى الاستقلال والطمأنينة والأخذ .. الخ وإذا كان الأمر كذلك .. وكان هذا الابتعاد مرحلى فعلا .. فهو عين الحكمة وسبيل النمو..

أما إذا كانت النتيجة أن يطغى هذا الجزء القشرى من الوجود على جوهر الإنسان .. فإن الصراع قد ينشأ وينتج عنه أعراض العصاب الذى هو تضخم أكثر فأكثر فى القشرة لتغطية هذا الصراع وضبطه ؛ فإذا زاد واحتد وحدث التصادم فقد تنشق القشرة وينشأ عنها شكل من أشكال الذهان

أما تعاون الجزأين فقد يتم بالتفاوب بين العمل والراحة، بين المنطق الملتزم والانطلاق الحر ..

أما التكامل فهو أن يصبح التناقض تآلفاً عميقا ، فكأن عمل القشرة هو فى ذاته إثراء للجوهر الأعمق، وكأن مشكلة الوجود البشرى الأعمق لا تتحقق إلا من خلال عمل القشرة. ولا يتم هذا التكامل إلا بحوار تطورى يؤلف بين الأضداد .

[٢٤٩] وقد أردت بهذا الاستطراد أن أشرح ما قصدت إليه من أن هذا البعد المرحلى بين أجزاء صاحبنا ليس صراعا ولا تصادما .. وإنما تصالح مؤجل .. وهذا هو ما كان يبعث الطمأنينة فى سائر أفراد المجموعة ، أما أنا فلتكرار فشلى .. فقد كان علىّ أن أرصد محاولات اقتراب صاحبنا هذا من بعضه قبل أن أسمح لنفسى بالتفاؤل باستمرار مسيرة التكامل.

[٢٥٠] ولأن هـــذا البعد بين أجزائه ليس صراعا أو تصادما .. فإنه كان كثير الصمت ، حاد الانتباه .. ، حاذق الحسابات .. ، إلا أن ذلك كله كان مدعاة لتساؤلى وانتظارى للمفاجآت .

[٢٥١] وكان هـذا الوجود الخاص المتباعد يفصل بين التعبير عن الخبرة الداخلية وبين معايشتها ، فكان إذا ضحك قهقه فى تشنج قد يدل على عدم عمق الضحكة بقـدر ما هى مجاملة مندفعة سطحية ، أما إذا استشعر البشر الداخلى فإنه يصمت فى وداعة . .

[٢٥٢] تأكيد للمعنى السابق من أن صمته وتوازنه الظاهرى كان يغرى بالاعتماد عليه من أغلب أفراد المجموعة .

[٢٥٣] أما موقفى فكان يزداد حذراً ، وكنت أخشى دائما أن يكون هذا الصمت والحكمة المبكرة هو نوع من التبلد الخادع .. كما كنت أخشى أن أظلمه بالمشاركة فى لعبة الطمأنينة والاعتماد هذه تحت وهم قدرته على العطاء على حساب داخله وحقه فى الحياة .

[٢٥٤] وفى ظل هذا التركيب الصعب ، فإن العطاء منه يصبح عطاء مفروضا لدرجة أنه قد يبدو غير مثمر أو غير منتظم ، رغم المظهر المشجع بأنه موفور ومتدفق .

[٢٥٥] إشارة إلى محاولة إثارته ليخرج من صمته ، أو يخفف من « التسهيم » الذى يشير إلى احتمال تبلده !..(يصنفر جلده) .

[٢٥٦] ولكن عناده كان شديداً لإصراره على أن يقوم ببقية الرحلة وحده وعلى مسئوليته ، وهذا فى حد ذاته مزية

فى العلاج النفسى شريطة أن يستمر صاحبه فى الاحتكاك بالآخرين، فالاستقلال فى وجود آخرين ثروة حقيقية، أما العزلة والاستعلاء فهما طريق شائك ، إلا أن هذا العناد قد يحمل صاحبه ما لا طاقة له به فى مرحلة ما ، حتى ليخشى عليه من الانفجار إذا أصر على استمرار محاولته منفرداً .

[٢٥٧] إشارة إلى أن طريق العلاج الصحيح (والنمو..) هو أن تكون المسيرة هى صحبة إيجابية ، فكل ما يمكن أن يعطيه آخر لزميل له على طريق النمو الإنسانى -فى تصورى- هو المشاركة فى نوع الآلام ، والاتفاق على طبيعة الصعاب، ما دام الالتزام بالواقع مستمرا.. والإصرار على التقدم ملزما، فالإنسان (مريضا أو متطوراً) يحتاج إلى رفيق سلاح .. ولا يحتاج إلى محفة تخدير ، ومن خلال هذه الرفقة .. تقترب الأجزاء المتباعدة .. إلا أنها محاولة يصحبها مشقة وجهد صادقين .

[٢٥٨] وفى النهاية — كما هو فى البداية — فإن الضمان الأوحد على طول الطريق هو استمرار المسيرة، وليس بالضرورة الراحة والاعتماد، أما تبادل الطمأنينة فهو دور محدود .. ولكنه لا يقوم مقام « جهاد البقاء » وهو الجهاد الأكبر.

[٢٥٩] إذاً فمواصلة السير، مع الائتناس بأن هناك من يقوم بنفس المحاولة .. لنفس الهدف العام هو السبيل الوحيد للطمأنينة والأمان . ومن ثم النمو .

دراكيولا

[٢٦٠] هذه الصورة من أهم ما قدمت فى هـذا العمل لأنها تشجب ذلك الحب السائد بين أغلب النـاس، وقد ترددت كثيرا فى محاولة مواجهة هذه الخدعة ولـكنى لم أملك إزاء حقيقة خطورتها إلا أن أعريها كاملة هكذا، وقد أشرت إليها برقة وهامشية فى صورة « حمام الزاجل » (وحاشيات ٩٤ إلى ٩٦) أما هنا، فالتعرض لها من خلال رؤيته

من طبقة أعمق فى النفس الإنسانية وعلى لسان القوى المدمّرة والمعوقة للتطور مباشرة ، وكأنها غريزة الموت تلبس ثوب الحب « أموت فيك .. وتموت فيّه » .

وفكرة خطورة الحب الثنائى معروفة منذ أفلاطون الذى اتهم ظلما بأنه دعى إلى ما تصوروه أنه الحب العذرى وأصبحت كلمة الحب الأفلاطونى دالة على الخيال واللاواقعية وإن كان هـذا غير صحيح بالمرة ، حقيقة أن الإنسان برغم مرور آلاف السنين — لم يرتق بعـد إلى القدرة على الحب الشامل.. وعلى أن تكون العلاقة الثنائية مجرد تنظيم اجتماعى ودينى ومجال مركز لاختبار التطور والتعاون إلى هدف التكامل .. ومجال صحى لتربية الأطفال .. ولكن عجزه عن الوصول إلى هذه المرحلة لا يشجب الحقيقة ، وأن هذا الحب هو الأرقى والأبقى حتى لو أجلت ممارسته على أرض الواقع ، وذلك لا ينتقص من لزومه منها ولا يخدش من صلابته وأصالته.
ورغم حاجتنا الشديدة إلى هذا النوع القاصر من الحب الذى

ندعمه فى كل لحظة بالأغانى والفن الرخيص (احنا من غيرك ولا حاجه) ، (انت وبس اللى حبيبى ... الخ) فإن فشله فى حياتنا المعاصرة يزداد باستمرار ، وكل مضاعفات الزواج وانهيار البيوت والخيانات الزوجية (نفسية كانت أم جسدية) كل ذلك ليس إلا إعلانا عن فشل هذا الحب الثنائى إذا لم يتطور إلى إثراء وجود الإنسان المعاصر على طريق نموه الفردى .

وإنى أعتذر ابتداء عن البشاعة التى قد رسمت بها هذه الصورة ، إلا أنى لا أملك أمام التزامى بدرجة من الصدق فى تقديم ما رأيت إلا أن أقدمها « هكذا » والسلام ..

[٢٦١] وتبدأ الصورة ،التى هى حوار بين طبقات النفس ومستويات الوجود الفردى، تبدأ بالجزء الخائف من الشخصية، الذى يبنى علاقاته على عدم الأمن (وهو الجزء البارنوى أساسا) والذى يحل مشكلة احتياجه إلى الآخر إما بالهرب وخطف

لحظات التواصل بشروطه (راجع صورة «القط»: العين الثالثة) أو بالتهام الشريك (أكل الأطفال والنسوان الملك، حاشية ١٢٥)، هذه الصورة تقدم هذا الجانب الإلتهامى أساساً، وفى يقظة منهكة من هذا النوع من الحب يبدأ هذا الجانب فى إعلان طبيعته، ليحذر الآخر من نفسه، وكأنه يسهم بهذا الإعلان (أو النقد الذاتى) فى مسيرة التطور بشكل غير مباشر.

[٢٦٢] تأكيد على أن هذا النوع من الحب الناشىء من عدم الأمان، والذى «يتم بصفقة تبادل محدودة» تلغى الآخرين من حساباتها، والذى يطمس كل إحساس بالوحدة القلقة.. الدافعة إلى البحث عن العلاقات الأعمق مع كل الناس ومواصلة المسيرة.. أقول إن هذا النوع من الحب ما هو إلا الموت النفسى نفسه فى أخبث صوره، ومع ذلك فهو مطلب الناس (أغلب الناس) ومعهم حق، مرحليا،.. ولكن الفشل المتزايد.. يعلن حاجتنا إلى مواصلة البحث عن ما هو أبقى..

و « بطن الحوت » رمز للعـــودة إلى الرحم وكأن مثل هذه العلاقات نكوص حقيقى بديل عن الإنطلاق وتحمل عبء المسيرة .

[٢٦٣] وهنا صرخة عنيفة لطبيعة هذه العلاقة القـاتله التى تلغى كل أمل فى أن يتولد من أى اقتراب ثنائى علاقة ناضجة جديدة قابلة للنماء ، وهنا أنبه أن هذا الارتباط الثنائى — مادام هو البضاعة الموجودة والتنظيم الحالى الممكن — لابد وأن نحترمه كنقطة بداية ليس إلا ، والحاجة التى تفرضه حاجة طبيعية مهما كانت ناتجة من عـــدم الأمان أو حتى كانت تخدم النكوص ، إلا أن مانحذر منه هنا هو أن يكون نهاية المطاف ، مرة ثانية : إذا كان نقطة بداية تسمح بمجال للتطور وترضى احتياجات مرحلية . . . فنعم وألف نعم ، أما أن تـكون نهاية المطاف ،وغاية المراد من رب العباد ..،

وانسحاب من كل آخر ، . . فلا وألف لا . . هذا ما أود أن أؤكده بصورة خاصة .

[٢٦٤] إذا تم التلاحم الخائف فى هذه العلاقة . . يصبح الاقتراب منها والتشكيك فيها . . والتنبيه إلى خطورتها أبعد من كل ممكن . . . وعلى الطبيب النفسى أن يعرف وظيفة هذه العلاقة وألا يقترب منها إلا إذا أعلنت الأعراض فشلها تماما . . لأن فك أواصرها لإعادة تركيبها على مستوى أعلى . . هو أشبه بالمعجزة لشدة ما يكتنفه من صعوبات .

ومن عيوب هذا النوع من العلاقة أن الحاجة إلى رؤية اليقين الأعمق بالحياة تنطمس تماما (رأى برهان ربه) ، وأن العلاقة بالكون والوجود الأعلى تلغى أو تتوارى خلف عبادة الشريك وتقديسه (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم . . .) .

وهنا إشارة إلى إيحاء آخر من قصة يونس عليه السلام . .

فى بطن الحوت ، وعلاقة ذلك بالميـل إلى العودة إلى الرحم (النكوص) كما أن الإيمـان هو الرؤية الأعمق ، ومن ثم التطور إلى التكامل . . (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) .

[٢٦٥] مزيد من التأكيد بأن هذه العلاقة هى الموت (اللاتطور) ذاته ، على أنها علاقة ثنائية ، ولا يمكن أن تتم بهذه الصورة البشعة إلا إذا اشترك فيها الاثنان معاً ، لأنه لو رأى أحد الطرفين طبيعتها لتوقف وقاوم .. وظهرت المضاعفات . . ومن ثم احتمال تغيير المسار .

[٢٦٦] تناقض بين تصور الارتواء بالدم ثم العجز عن أى ارتواء بهذا الالتهام الجائع بلا نهاية فهما التهمت ومهما غرقت فى الامتصاص حتى للدم (دراكيولا) فإنها لا تشبع أبداً وتطلب المزيد دائما (وتخليني أعطش أكتر) ولا يتعظ صاحب هذه الرغبة (أو صاحبتها) بأنه لا جدوى من كل

ذلك — كما تعلن هنا أعماق النفس — بل تزيد إصرارا على نفس النوع الكاذب من الأخذ الملهوف . . الذى لايحقق الأمان بحال من الأحوال .

[٢٦٨] هنا وصف لظاهرة خطيرة تعلن طبيعة هذه العلاقة ، حيث تزيد اللهفة إلى عمل علاقة ما ، ويظل الإنسان جاريا وراء هذا الهدف مقدساً لقيمته حريصاً عليه . . حتى يصل إليه . . فيكتفى ويزهد ويرفضه بعد قليل (أرمى مصاصتك) لينطلق إلى شخص آخر . . وهكذا ، ولا يصل صاحبنا أبداً إلى القناعة والأمان مهما نجحت هذه العلاقات فى أولها ومهما تكررت مسرحية شِبّاك الغرام وزهو الانتصار بها . . ونرى هذا فى الحياة اليومية فى تكرار نجاح العديد من العلاقات مع نهايتها الفاشلة باستمرار ، وقد يظهر هذا فى الزواج المتكرر بعد الطلاق المتكرر بنفس شروط الإنتقاء ،ونفس أسباب الفشل ،دون تعلم أو تحوير .

[٢٦٩] وفى لحظة صدق هذا الجزء الأعمق من النفس .
بعد إنهاكه وفشله الذى دعاه للكشف عن طبيعته الإلتهامية الغبية هذه . . يسأل النجده من شريكه . . ويطلب منه أن يعاونه فى رفض هذا النوع من العلاقة ، وهنا إشارة هامة للجانب الآخر من مثل علاقات الحب هذه ، فرغم أنها تبدأ على أساس هاوٍ (وهو عدم الأمان) إلا أن وراءها رغبة أكيده فى تطويرها نحو الحياة ، وهنا مسئولية الشريك الآخر (أو بتعبير أصدق : الشريكين معاً) فى أن يتعاوناً لتخطى هذا الاشتباك الظاهرى إلى تعاون أعمق . . والنداء الذى يتردد فى صمت من كل محب منهك من عدم الأمان .: هو نداء عميق يظهر فى مجال الزواج والحب والعلاج النفسى على حد سواء (إوعى تسيبنى لوحدى) ورغم ما يحمل هذا من معانى الاعتماد . . إلا أنه فى هذه الحالة اعتماد ضرورى ومرحلى . . شريطة أن يكون متبادلا وبنّاء .

[٢٧٠] غير أنه طريق شاق ، والأسهل منه أن تفعّى

سلبيات كل شريك سلبيات الآخر، وأذكر أنى منذ سنوات كنت أستشير أستاذى الدكتور عسكر فى حالة تيقظت فيها الزوجة وأبدت حقها فى الاستقلال والتطور.. وكان الزوج يتخذ هذا الموقف الخائف «أوعك تصحى».. وإذا بأستاذى يمط شفيته ويقول « لقد تفتحت عيناها.. ولا سبيل إلى إغلاقها بسهولة » وأحب أن أؤكد هنا أن هذا الارتباط بهذه الصورة يعوق الطرفين معاً لا طرفا واحداً بحال.

[٢٧١] ونعود للتساؤل: إذا كان الارتباط الثنائى (الالتهامى أو التطمينى أو التوقفى.. الخ) هو بهذه القوة، ويترجم عن عدم الأمان المرحلى الذى يمر به الإنسان المعاصر، فلماذا يذهب أحد طرفيه أو كلاهما للعلاج؟

والجواب فى هذه الفقرة — كما أشرت سابقاً — أن مجرد الذهاب للعلاج ـ رغم فشل النظام القائم (نوع الوجود)ـ ليس بالضرورة دليل على رفض هذا النظام القائم ولا على

رغبة حقيقية فى التغيير ، بل قد يكون على عكس ذلك رغبة فى تأكيد النظام القائم وإخفاء ما يحويه من سلبيات (أخفى جريمتى) ، والبحث عن تبرير .. ثم إقناع الشريك بأنه «حاول عند أهل الاختصاص (وعمل ما عليه !!) ولكن هذه هى طبيعة الحياة !! (كذا)» وهذه اللعبة أسماها إريك بيرن « أنظر كم أحاول جاهداً !! .. » ثم تتوقف تحت هذه الخدعة تماما .

[٢٧٢] ومهما يكن الدافع للاقتراب والتزاوج سلبيا ، فإنه قد يتغير نتيجة ليقظة قوى إيجابية أخرى داخل النفس فى جو العلاج إن كان حقاً علاجا إيجابيا متطوراً .

[٢٧٣] وأول ما يهاجم هذه المناورات السلبية هو جو الأمان الذى يبعثه العلاج (الجمعى عادة) ويؤكده .. فيثبت أن عدم الأمان المتسبب فى هذا الامتصاص الدموى ليس له ما يبرره تماما .. إذا وجد الناس بالمعنى الأشمل (الناس الحلوه كتار) .

[٢٧٤] كما يؤكد جو العلاج الصحى « انتصار الحياة » على القوى المدمره ، فإذا كانت هـــذه العلاقة الالتهامية الامتصاصية مرتبطة مباشرة بغريزة الموت فإن الحياة وسط الناس وفى أمانهم .. الذى ينمى الأمان الداخلى .. أقوى وأبقى ..

[٢٧٥] إلا أن محاولة التغيير ليست بهذه البساطة ، ففى الوقت الذى تنطلق فيـــه قوى التطور ، تنبعث مقاوَمة من القوة القديمة غير الآمنة وترفض وتخاف التغيير ، رغم أن هذه القوى القديمة هى ذاتها — فى هذه الصورة — التى ساهمت فى الـكشف عن بشاعة طبيعتها .. والسـعى إلى تغيير نفسها أو حتى إلغاء وجودها (أموّت موتى) .. وهى التى ذهبت إلى العلاج ـ حتى ولو كانت مجرد مناورة ـ ولـكنها ذهبت إلى النور .. ولو لتساهم فى القضاء على ذاتها لصالح التطور .

[٢٧٦] وبمجرد التخلص (أو تصور التخلص) من هذه القوة المدمرة التى تبرر هذا الالتصاق الامتصاصى فى الحب ،

يبزغ وجود جديد داخل النفس لأن قتل الموت بنور المعرفة والأمان .. هو إحياء للحياة وبعث للحب الأبقى .

[٢٧٧] إلا أن هذا الجديد الذى يولد ثانية وسط أمان الناس ، يولد ضعيفا خائفا وحيداً .. لا يقدر على مواجهة العلاقات الراسخة المرعبة .

[٢٧٨] ومثل كل مسيرة نمو ، وعلاج ، تصبح لعبة التراجع والتقدم هى قاعدة السير .. غير أن النمو يتم بأن كل تراجع لا يصل إلى نقطة البداية بل أعلى منها بقليل.. وهكذا يستمر التقدم ، وفى هذه الصورة ـ كما سبق فى صور أخرى ـ يترجم الحوار المتبادل هنا بين القوى المختلفة على ظاهرتين أساسيتين فى طبيعة النمو :

الأولى : تصارع القوى وتناقضها باستمرار .

والثانية : التقدم اللولبى التدريجى بالسماح بالتراجع الجزئى المرحلى .

[٢٧٩] هذه التجربة فى العلاج النفسى - الجمعى خاصة - تسمى إعادة الولادة Rebirth وهى تجربة خطيرة ينبغى أن نعترف بمدى خطورتها ، فهى إن تمت فى جو صحى مأمون.. وأعقبها فرصة حياة جديدة مختلفة مدروس كل جوانبها ، فإنها تثرى الوجود وتنمى النفس لا محالة ، أما إن انزعج المعالج ، أو أفراد المجموعة بها .. ولم تُهيأ الفرصة لاستيعابها فإنها تصبح مخاطرة صعبة . . قد ينتج عنها تدهور إلى مستوى أدنى من الوجود ، أو تناثر هو الجنون ذاته ، فالتدرج والمسئولية والصبر والحسابات العلمية ضرورية تماما فى السماح لهذه التجربة بالنماء ، أما من وجهة نظر المريض (أو الإنسان فى خبرة النمو) فانه يولد من جديد ضعيفا .. فاذا لم يجد الجو المناسب للنمو التدريجى فإنه يفاجأ بأنه مطالب بأن يواجه مشاكل الحياة اليومية بقدرات جديدة فجة ، فيضطر إلى أن « يلبس » الوجود القديم حتى « يمشى حاله » كما يقول عادة أو « ياكل عيش » أو يقوم « بالتزاماته

الواقعية » ، والمولود الجديد (الوجود الجديد) يخشى من هذا القديم العاتى لأنه قد يلغى الولادة ويغرى بالتراجع ، لأنه بعد فترة من النضج النفسى فى ظروف ملائمة يمكن استعمال المكاسب القديمة دون خوف منها ومن طغيانها على الوجود الجديد وهذه خطوة رائعة نحو التكامل .

وفى هذه الفقرة إشارة إلى خوف المولود الجديد (الوجود الجديد) من أن يختفى بين ثنايا خدعة العلاقات القديمة واضطرار الإنسان إلى محاولات إثبات وجوده بأى سلوك سطحى مثل ضحكات المجاملة ، وحذق التصرف (النصاحة) ، والتمسك بالرأى ، (أى رأى والسلام ـ المهم التمسك) .

[٢٨٠] خوف جديد من أن يعقب هذه المحاولة الجديدة لتغيير نوع الوجود إهمال أو نسيان لضعف المولود الجديد ، فيضطر المريض إلى اللجوء إلى العلاقة القديمة لأنها هى

« المطلوبة من أغلب النـاس ومن الشريك القديم خاصة (تعوزها تانى فى السر) .

[٢٨١] عودة إلى الحوار (حول النمو) بلغة الجزء الذى كان يريد أن يموت ، وتنحى مؤقتا ، ثم عاد يتمسك بحقوقه القديمة ويحاول اسـترداد الأرض التى فقدها .. بعد إعلان ضعف المولود الجديد .

[٢٨٢] وإذا كان هـــذا الجزء القديم (الالتهامى الامتصاصى) قد خسر جولة وسط نور الأمان .. فانه ينتظر لينقض على المولود الجديد .. بمعاونة نفس الجزء المقابل من شريكته (بكره حاتحتاج موتى يا موت) ، والاثنان يخدمان غريزة الموت كما ذكرت سابقا (أموت فيك وتموت فيه..الخ)

[٢٨٣] رغم تحفز هـذا الجزء القديم للانقضاض وطلبه العون من شبيهه فى الشريك الآخر ، إلا أنه ومنـذ البداية (بداية هذه الصورة) منهك وناقد نفسه وفاشل، وعلى

قدر رغبته فى أن تأتى الجولة القادمة ليستعيد سيطرته (آه فين بكره !) على قدر خوفه من هذه الجولة وخوفه من انتصاره على المولود الجـديد (آه من بكره) . . ذلك الانتصار الذى هو فى الحقيقة هزيمة أعلنها من البداية .

[٢٨٤] وهو يخشى الانتصـار بسـبب خاص ، وهو أنه انتصار مؤقت ، فالناس يعدّون هذا الإنتصار هو الحياة العادية الطبيعيـة وأمل التواصل والتقارب ، أما المريض الذى أعلنت أعراضه فشل هـذا الانتصار فإنه يعرف أن وضعه خاصا وأنه لم يعـد يطيق هذه العلاقة القـديمة الفاشلة ، وفى نفس الوقت فالجديد غـير قادر على ملء الفراغ وحده .

[٢٨٥] والأمر الثانى الذى يفشل هذا الأمل فى العودة إلى القـديم . . هو جو العـلاج الجمعى والرؤية التى تمت من خلاله : . حيث يعلن أن هذا « البكره » ليل دامس الظلام

[٢٨٦] وبالرغم من هذه الرؤية فإن الحرص على استمرار القديم يقوم بهجوم سريع لإحياء العلاقة الثنائية المخدرة ، وذلك بأن يوقظ احتياج شريكه إلى هذا النوع . . ، فأخشى ما يخشاه أن يمر الشريك هو أيضاً برؤية جديدة تفشل القديم نهائياً . . ففى هذه الفقرة مناورة أخيرة . . لإستعادة زمام الموقف .

[٢٨٧] تأكيد على جديد أن هذه العلاقة موضوع هذه الصورة . . هى احتياج متبادل ، وأن الطرف السلبى فيها ليس أقل مسؤلية من الطرف الطاغى أو الملتهم ، وهنا تنبيه فى العلاج النفسى خاصة بأن العرض كثيراً ما يكون إعلاناً «لمرض علاقة» هى نتيجة احتياج طرفين معاً ، ونحن دائماً ننظر إلى الطرف السلبى نظرة شفقة فى حين أنه قد يكون هذا هو احتياجه الذى أثار مظاهر الالتهام عند شريكه .

[٢٨٨] تراجع جديد من نفس الجزء المتحفز للانقضاض

الناقد نفسه ، المعلن بشاعة طبيعة العلاقة الثنائية التخديرية من البداية ، وهو تراجع يقظ يظهر ظاهرة نفسية مهمة ،وهى أن نمو أى جانب سلبي فى الفرد لا يتم إلا إذا كان «خارجه» يدعم هذا النمو السلبي ، وأن القبول غير المشروط (تعوزنى زى مانا) هو استسهال واستسلام لقوى ساحقة فى المجتمع . إنما يصلح هذا القبول الطيب فى الجنة أو فى مجتمع طوبائى لا أعرفه ، وحاجة الفرد الحقيقية للرفض من شخص فاهم ومحب ، لا تقل عن حاجته للقبول من شخص حان ومسؤل .

[٢٨٩] وإذا لم تكن هناك حاجة خارج الفرد لتنمية هذا الوجود السلبي فإن الفرد سيحاول أن يقضى عليه (حاموّت موتى) ويبدأ التطور والنمو الإنسانى المثمر ، وهذه الحاجة عادة ماتكون فى أقرب الناس إليه أو فى الطبيب نفسه أحياناً (إذا لم يكن الطبيب فى محاولة متصلة للتطور) .

[٢٩٠] والجزء الجديد المتطور فى الشخصية الذى أشرنا إليه فى تجربة « اعادة الولادة » هذه جزء فيه شعور بالخلود لأنه شديد الإتصال بالناس طولا (تاريخا ومستقبلا) وعرضا (حالاً) ، والذى يستشعره يعلم أنه لا يموت (بمعنى أن فرديته هى التى تنتهى أما يقظته المتصلة بالناس فهى الناس وهى خالدة لا تموت) .

[٢٩١] ان الذى يذهب للعلاج ظاهراً هو الوجود القديم الفاشل المنهك (راجع حاشية ٢٧١) إلا أن الذى أفشله وأظهر الأعراض . . واضطره للذهاب للعلاج (أو المغامرة برحلة النمو) فهو الوجود الجديد الداخلى ، وفى حين قد يكون ذهاب القديم للعلاج مجرد مناورة لإفشال أى تغيير والقضاء على كل أمل فى غير ذلك ، فإن الجديد يرتوى من وراء

تظهر المناورة السطحية ، وحين يطمئن إلى درجة خاصة من النمو ، قد تعلن المعركة ويبدأ الحوار التناقضى التآلفى للتطور .

[٢٩٢] إشارة إلى أن معركة هذا « الوجود الجديد » هى معركة داخلية (غصبن عنك) ، وخارجية (غصبن عنه) عادة مع نفس الشخص الذى يحتاج إلى استمرار القديم .

[٢٩٣] إنما ينشأ الجديد على أنقاض القديم .. أو بالأحرى من جوف أنقاض القديم .

[٢٩٤] هذه الصفات كلها مشاعر التطور ، يشعر بها المتصوف والفنان فى لحظات إعادة الولادة ، ويشعر بها المريض فى أول مرضه ، وكما سبق أن أشرت أن الفرق بين هذه الخبرات جميعاً هو نتاجها واستيعابها .. وليس عمق طبيعة بدايتها .

يا ترى

[٢٩٥] الرؤية الموضوعية مشكلة الوجود ، ولا يدعيها إلا من قارب التكامل أو أتمه وهى مرحلة يسميها ماسلو « الوجود شبه الإلهى » God-like quality ، وتصاعد درجات الوعى عند هيجل يرسم فيه هذا السبيل إلى الرؤية الموضوعية ، وقد نشأت الأساليب والأدوات المعملية ، وتنوعت طرق البحث العلمى لإعلان أمرين معاً : عجز الإنسان فى مرحلته الحالية عن الرؤية الموضوعية ، وحاجته الشديدة إليها فى نفس الوقت .

والذى يجعل الرؤية ذاتية (غير موضوعية) هو «احتياج» الإنسان أساساً ، بما يستتبع ذلك من تحيز وهوى وخوف وتفكير آمل . . الخ وصاحبة هذه الصورة من أقرب الناس إلىّ ، وحاجتى إليها لا سبيل إلى إنكارها أو التخفيف من

قدرها ، ولذلك كانت رؤيتي لها محفوفة بالحـــذر والتردد والمراجعة ، وإذا كان لنا أن نعترف أن الرؤية الموضوعية هدف بعيد المنال . . فأول الطريق إليه هو أن نرى رؤيتنا الذاتية ، ونعترف بوجودها . . ونحد من غرورنا وغلوائنا في تصور إمكانية موضوعيتنا قبل الأوان .

وهذا ما حاولت أن أعترف به هنا . .

[٢٩٦] وقد كانت صاحبة هذه الصورة تتميز بقـدرة حدسية خاصة أرمز لها هنا « بقراءة الفنجان » ، وكنت أحتار في تقييم هذه القدرة هل هي حدسٌ فني صادق أم أنها نكوص مخيف غير مسئول ، عَلَى أن هـذه القدرة وسائر الميزات النكوصيـة البراقة كانت تختفي في ظلام الخوف ومواجهة مسئولية الواقع .

[٢٩٧] وإذا كان الطبيب النفسي له رؤية أعمق بطبيعة عمله — أو المفروض أن يكون كذلك — في مجال ممارسته

حميمة مع الذين يحضرون إليه يسألونه النصح ، فإنه بعيداً عن هذا المجال لا يتمتع بنفس القدر من البصيرة والموضوعية، بل إنه قد يعوض ما يتحمله من أعباء الرؤية الموضوعية أثناء ممارسته مهنته بأن يتجاوز عنها خارج نطاق هذه الممارسة . . ويرى الأمور « كما يجب . . لا « كما هى » . . وهذا نوع من الراحة المأمونة التى تساعده على استمرار تحمل مسئولية مهنته . . إلا أنها فى عمق العدل تتم على حساب من حوله . . إذ ما هى جريرتهم أن يكونوا مجرد مرفأ لراحته يقوم منه إلى رحلة المواجهة ثم يعود منهكاً مغمض العينين يحرمهم من حق يمنحه لمرضاه ؟

[٢٩٨] موقف آخر ، أصعب ، لعله الصورة الموجزة لأسطورة بيجماليون حيث يستجيب الآخر لاحتياج صانعه حتى يلغى ذاته . . ثم لا ترضى هذه النتيجة صاحب التمثال . . ولا تفيد مَن تنازل عن وجوده فى سبيل إرضاء الصانع . . أو . . خوفاً منه .

[٢٩٩] تفصيل أكثر لنفس القضية .. فالحاجة إلى الراحة بعد عبء المواجهة ومحاولة الرؤية الموضوعية .. ترفض أى اهتزاز للمرفأ ... حتى على حساب حقه المبدئى فى ممارسة ضعفه هو ، (أما حكاية « تخاف ما الخوف » فقد أشرت إليها فى حاشية ١٣٨) .

[٣٠٠] إن الإنسان لا يسمح لنفسه أن يضعف بالمعنى البناء فى جوٍّ آمن ومسئول ، أما إذا تعرض لرؤية حقيقة ضعفه من واقع الشفقة أو التعجب فإنه لا بد يرفض هذه الرؤية ويلتحف بكل دفاعاته القوية ذات القشرة غير القابلة للاختراق .

[٣٠١] مثال آخر . (يقابل أيضاً رمز أسطورة بيجماليون) يورى أنها تكون كما يريد صانعها ، ولا تجرؤ على الرؤية أكثر مما يسمح به خالقها .

[٣٩٢] وفى محاولة لكسر رؤيتى هذه الذاتية ، كان

لابدمن الاستعانة برؤية الآخرين، إلا أن رؤية الآخرين هذه لا تفيد إلا إذا كانوا ذوى رؤية خاصة فعلا ..، أما إذا كانوا مجرد تكرار لنفس الرؤية نتيجة لعلاقة عاطفية أو تأثير قوى ، فلابد من الشك فى حكمهم . . وفى حقيقة إسهامهم فى الاقتراب من الموضوعية (حذار من خدعة الديمقراطية الكاذبة) .

[٣٠٣] واحتراماً للصعوبة .. فلا بدمن الانتظار وفتح الباب لكل الاحتمالات على قدم المساواة : فلتكن من تكون . . . ممثلة للوجود الآمن ، أو للخوف المرعب ، أو للعلاقة الثنائية التخديرية . . وليكن عبء الانتظار والبحث المستمر .. هو أول الطريق إلى الموضوعية .. واحترام الآخر . . والكف عن استعماله السرى .

[٣٠٤] ورغم مشقة هذا الوضع المؤلم .. فإن أبواب الأمل فى استمرار المسيرة نحو التكامل تفتح فى النهاية على مصراعيها

المعلم

[٣٠٥] أذكر القارئ هنا ببعض ما هدفت إليه من هذا العمل مما ذكرته فى المقدمة حيث ذكرت أنها أيضا « تجربة شخصية عنيفة . . علمتنى فى مهنتى وعن نفسى ما صار هاديا لى ومثبتا لخطواتى » كما ذكرت بعد ذلك وأنا التمس عذر القراء « . . وهأنذا أطرق أبوابهم والتمس عذرهم وأعرض بعض نفسى بين أيديهم » .

وهذه المقطوعة هى بعض نفس .

ولابد للطبيب النفسى أن ينظر فى نفسه كل حين (وليس بين الحين والحين) . .

ولابد أن يوهب الشجاعة ليقارن بين نفسه وبين مرضاه ويعلم أن الفرق ليس فى التركيب البشرى ، ولكن فى ترتيب هذا التركيب وفاعليته . . ونتاجه .

ولا بد أن يوهب العدل —أو يسعى إلى تنميته— ليعلم أنه لا ينجح إلا إذا رضى على نفسه وعلى أولاده وأهله ما يرضاه على المرضى والناس، وأن يرجو لنفسه ولأولاده وأهله ما يرجوه لمرضاه والناس . . ويكاد يمنع عن نفسه وعن أهله ما يمنعه عنهم . . إذا تساوت الظروف ، .. وأن يعرف أن الاختلافات — إن وجدت — فهى تنظيمية خارجية ، أما موقفه الداخلى ومسئوليته فينبغى ألا يداخلهما لبس أو تفاوت .

ولا بد أن يوهب القدرة على السعى المتواصل لتحقيق المزيد من الوعى . . والعمق . . وممارسة المزيد من العدل والعمل . . دون أن يهتز أو يتناثر . .

وفى هذه المقطوعة أصف — فى محاولة صدق — حيرتى مع نفسى ، وماذا أنا ، ومن أنا . . وهى بعض سطور من بعض أوراقى . . أما بقية الأوراق فقد أوهب الشجاعة لنشرها يوما — أو أموت بها آسفاً — فهى

من حق من يريد أن يتواضع فى المسيرة تواضع العاجز . .
فى نفس الوقت الذى يصر فيه على الخلود إصرار الآلهة . .
وياويحة إن لم يجد رفيقاً يؤكد له أن هناك من سبقه على هذا المضمار ولم يتنازل ، ولم يتناثر ، ولم ييأس ، وهذه وظيفة عرض بعض هذه الأوراق حالاً — ومزيد من الأوراق مستقبلاً — وهى أن تكون خبرة شخصية فريدة أمام الذين سيحاولون الطريق الصعب فيما بعد .

وتبدأ المقطوعة بالتساؤل :

هل الطبيب النفسى له نفس مشاكل المريض ، ولغة عينيه ، ورهبة رؤيته ، واضطراب ذاته . .

وهل كلامه « الكبير » يحمل المعنى والفعل والمسئولية بالقدر الذى ينبغى أن يحملها . أم أنه للاستعمال الظاهرى أى أنه يصلح « للمرضى » ولا يصلح له ؟ أى أنه يبيع النصح والهوى والتفسير لهذا المجتمع المريض العاجز . . وليس لذلك كله دخل فى حياته وخصوصياته وأحلامه . . وداخل ذاته ؟

[٣٠٦] والطبيب النفسى يعرف أكثر ، رضى أم لم يرض ، ومعرفته تتعلق بالوجود الإنسانى مباشرة فهو يواجه مشكلة أزلية وهى « ماهية الإنسان » ، وعمله لا يكتفى برؤية جانب من جوانب الانسان مثل فكره أو تدرج وعيه ، أو مثل غاية وهدف وجوده ، أو مثل مصيره وما بعد حياته الفردية ، أو مثل علاقاته ومشاكل احتكاكاته وقصور مصادر أكل عيشه ، أو مثل تركيبه الكيميائى وتنظيم مخه ، أو مثل نشاطه الكهربائى ومختلف موجاته ، بل إن رؤيته هى كل ذلك معاً . يضطر إليها إن صدق قراءة مصادر علمه ، ثم صدق الاستماع إلى شكوى مرضاه ، ثم صدق النظر فى نفسه .

فما بالك إذا مرّ بتجربة خاصة — ذكرت جزءاً منها فى آخر فصل فى كتاب حيرة طبيب نفسى — تربط بين هذا كله فى رباط واحد مسلسل متناسق واضح . .

إنه إذاً يواجه مشكلة لا يعرفها إلا من عانى هذا الحدس العلمى الفنى الوجودى العميق فرؤيته تتعلق مباشرة بالوجود البشرى فى مطلق غايته ، ولكن أيضاً فى مسيرة حياته اليومية ..وما أبعد القطبين ، إنه يحمل إذاً هذه الرؤية قولاً ثقيلاً ، لا يستطيع أن يتخلص منها بعد أن أشرقت فى عقله ووجدانه معاً ، ولا يستطيع أن يغفلها وينحيها جانباً وهو يراها كل يوم عدة مرات فى مرضاه ، وطول الوقت فى نفسه ، ولا يستطيع أن ينظّرها فى فكر بحت فهو ليس فيلسوفا يبحث وراء ماهية المفاهيم فى ذاتها ، وهو ليس فنانا يحورها ويعلنها بالرموز ليوقظ بها الناس يوما ما ، وهو ليس نبيا يحققها فى أرض الواقع فعلا يوميا ثائراً مستنداً إلى السماء وما بعد الحياة الدنيا ، وهو ليس متصوفا يهرب بها صامتا متأملا بعيداً عن مجالات الاختبار والإثارة والتحدى وهو ليس عالما تجريبيا بالمعنى السطحى للتجربة وشروط الإعادة والتثبت

فماذا هو فاعل ؟

لابد له من طلبة ينقل إليهم هذه الرؤية ليؤمنوا بها ولو فى أضيق نطاق ، ومجموعة مختارة ممن رأوها وحدهم (من المرضى عادة) يستطيعون بمساعدته أن يقلبوا الهزيمة ماامها إلى نصر بها . .

ولا يوجد فى تاريخ الطب النفسى — ناهيك عن تاريخ البشرية والعلم عامة -- من احتفظ برؤيته لنفسه دون أن يتناثر أو يتصوف (وكلاهما حل سلبى لامحالة) ، وفى مجال الطب النفسى نجد نشأة المدارس بمريديها وأتباعها مرتبطة بهذه الخاصة لصاحب هذا الحدس العلمى الثقيل ، ولكن كم شطحت الأفكار الحدسية حتى وصلت بصاحبها إلى الوحدة المطلقة ومن ثَمّ التناثر (وا أسفى على ويلهلم رايخ ، ووا ألمى على وحدة يونج معظم فترات حياته) . . لذلك كان علىّ ومنذ البداية أن أنتبه إلى أمرين : الأول شدة حاجتى إلى من يرى رؤيتى لنتعاون فى تحقيقها وتأكيدها والتطور بها

وتعديلها . . وتقديمها إلى من ينتفع بها . والثانى شدة حذرى من تكرار أخطاء الآخرين إما بالتمادى فى فرضها مع وحدة لاتنفع صاحبها وتنظير لايبرر بقاءها ، وإما بالتراجع عنها خوفا من النقد وطلبا للسلامة.

وهذه الفقرة من هذه المقطوعة هى نقد صارخ لمحاولة « التمادى فى فرضها » ذلك الأمر الذي كان يساورنى فى كثير من الأوقات، فصاحب الرؤية الخاصة والطريقة المبتكرة هو « شيخ طريقة » لا محالة، فإذا تصور أن طريقته هى الطريقة الوحيدة ، ولم ينتبه لما أحاول أن أنبهه اليه هنا . . فهو معرض أن يبدو ، ويكون ، بهذا التصوير الذى كنت أراه فى نفسى أحياناً كثيرة.

لقد عرفت حقيقة أن الحياة لابد أن تستمر ، وأننا لابد أن نستمر ، وأننا لابد أن نرجح قيمتى العمل والعدل على كل القيم ، وأن مظاهر المرض النفسى والعقلى هى مضاعفات لمحاولات الاستمرار والتغير النوعى على مسيرة البشرية »

وأنه لا انفصال بين مفهوم كيميائى أمين وبين رؤية ميتافيزيقية قادرة على الإفادة والتطبيق اليومى ، وتصورت فى لحظات أنه — فى مجال ممارستى لحياتى اليومية تدريبا وعلاجا وحياة اجتماعية — لابد أن يعرف الناس من حولى هذه الحقيقة البسيطة . . لأنها الحياة (عامل سبيل اسمه «الحياة») ومن لا يعرف الحياة ويؤمن بها ويدفع ثمنها فهو ميت ، ومن يعرفها ويواصل السعى إليها ويؤدى ثمنها فهو حى . . وليس فى هذا خطأ فى ذاته فكل الناس تنادى بمثل هذا الكلام .. ولكن التحذير هو أن تصبح الطريقة الوحيدة هى طريقته وتصبح المشكلة (مشكلة الوجود) هى مشكلته الخاصة (وكان مشكلة الوجود مالهاش وجود ، إلا حداه) وهنا كنت أرى هذه المخاطر وأتذكر مصائب البشرية على يد أشخاص أمثال هتلر ونابليون ، وكذلك مصائب الأفراد أمامى يوميا فى العيادة والمستشفى ، وألف حماسى بسلاسل الواقع وأمسك القلم وأسجل هذا التحذير الناقد

الذى ساعدنى فى رؤية إمكان الانزلاق والتعصب دون اعتبار لاختلاف الأفراد بقدر اختلاف مراحل نموهم ومشاكلها

[٣٠٧] ومن أخطر ما يصيب الطبيب النفسى آفة التصنيف ، حيث أنه فى موقع تصنيف المرضى يوميا « بالتشخيص » والفرق بين المرضى والأسوياء فرق طفيف ، ووهمى فى بعض الأقوال ، ومن هنا قد تمتد هذه الحرفة إلى هواية خارج مجال عمله فيقوم بتصنيف الناس بلا تردد ولا تحرج . . وفى هذا فائدة كما أن فيه ضررا ، أما الفائدة فهى أنه يعلم الفرق بين البشر ، وقصور إمكانيات البعض عن البعض ، واختلاف مسالك البعض عن البعض ، وبالتالى يعذر ويصبر ويعاون . . ويحتمل ، أما الضرر فهو حين يذهب به الشطط إلى دمغ الناس بموقف ثابت أدنى أو أعجز مما يتصور أنه الصواب وبالتالى فهو ينظر من أعلى وتتجمد محاولته يأساً ، ويتجمدون فى موقعهم احتجاجاً .

هذا إذا كان التصنيف موضوعياً إلى حد ما .

أما إذا كان هذا التصنيف « حسب المزاج » فهى مصيبة أكبر أنبه إليها هنا إذ أعلم كم رأيت نفسى هكذا ، وحاولت فى معظم الأحيان أن أحد من غلوائها وأن ألجمها. ونجحت حينا وفشلت أحيانا وكان على — صدقا — أن أعلن هذا لى ، وللناس من بعدى .

[٣٠٨] وكل صاحب رؤية يتصور — كما قلت — أنها الأصوب ، وهذا من حقه وواجبه نحو نفسه ، بل إن من يدعى أنه ليس له موقف أورؤية (طبيباً نفسياً كان أو غير ذلك) إنما يضحك على نفسه بانسحاب شعورى كاذب ليدع موقفه اللا شعورى يوجهه الى حيث لا يدرى .

ولكن المصيبة تبدأ فى اختيار التطبيق ، والإلزام بأن هناك «سبيل واحد» للتطور . . وهذه هى الجريمة الكبرى فعلا لأنه ، كما أشرنا ، إن الناس تختلف والسبل تختلف والمراحل تختلف ، فإذا أصابت هذه المصيبة فكر الطبيب النفسى فهو واقع لا محالة فى صعوبات لا قبل له بها .

حيث أنه لو تصور أن كل إنسان — دون تمييز — لابد وأنه يسلك هذه الخطوات « بالذات » .. إن كان له أن يتطور أو يجد لوجوده معنى ما .. فإنه سوف يظلم ويُظلم .

وفى حديث لى مع بعض الطلبة أردت أن أوفق بين أن يكون الطبيب النفسى صاحب موقف فى الوجود ، وصاحب رؤية للإنسان ، وبين أن يكون ممارس يومى لاحتكاك عنيف مع مختلف الأفراد .. فى مراحل تطورهم المتنوعة ، قلت لهم أن الذى يسمح ويبرر للطبيب أن يعرض هذه الرؤية — بطريقته العلمية الخاصة — على آخَر .. هو أمر واحد ، وهو : أن يأتيه المريض فاشلا فى حياته القديمة معلناً ذلك الفشل بظهور الأعراض ، والطبيب حينئذ يعرض البديل الصعب بطريقته الخاصة (كما ورد فى سياق هذا العمل) ويخيّر بعد ذلك المريض : إما الرجوع كما كان (وهو الأغلب) دون

أعراض ودون تردد على الطبيب، وإما محاولة ما هو معروض عليه كبديل حتى يسير على أرجل .

أى أن هناك شرطين أساسيين لعرض هذه الرؤية هما : أن يحضر المريض (أو يحضره من يهمهم أمره كخطوة أولى) ، وأن تكون هناك أعراض، فإذا تجاوز الطبيب هذه الحدود، فانه يحتاج إلى وقفة مع نفسه صارمة وعنيفة .

وهناك مصيبة أخرى قد تلحق بفكره حين يتصور أنه « هو شخصياً » النموذج الحى لتحقيق رؤيته ، ويا ويل من لا يشبهه ، وحين كنت أحتار فى معنى الصحة النفسية ومقاييسها كنت أنظر حوالى فأكاد أتأكد أن كل طبيب (وكل شخص حتى المجنون) يعتبر أن الصحة النفسية (بشكل أو بآخر) هى « جنابه » .. وأن المريض النفسى هو من ليس على شاكلته (!) وقد أوردت هذا الخاطر لأجسم من خطورة هذا المنحى .

[٣٠٩] أما ادعاء أن من خالفنى فهو حر ، فقد يصلح هذا الادعاء فى الحياة العامة حيث صراع الأفكار وصراع الوجود على قدم وساق ، وكل إنسان يدخل معركته وطائره فى عنقه ، أما فى موقف العلاج النفسى وعند صاحب النظرية فى الوجود البشرى ، فإن كلمة أنت حر ، الظاهرية ، يقابلها كلمة باطنية أخرى (يعرفها صاحبنا أو لا يعرفها) مثل أنت حمار ، أو أنت ميت ... الخ ، والمريض (أو الآخر) يلتقط الكلمتين معاً . . وهذا ما أشرت إليه فى هذه الفقرة .

وأحب أن أنبه هنا أن أغلب مدارس العلاج النفسى تدعى هذا الموقف الحر ، فالتحليل النفس التقليدى يقف موقفاً محايداً والعياذ بالله (على قدر شعوره ، والمختفى يفعل ما بداله) ، والعلاج الجشتالتى يكرر جملة فى كل جلسة وكأنها صلاة الافتتاح والختام مقتبسة عن بيرلز قائلا ... « أنا لى رأيى . . وأنت لك رأيك . . فإذا التقينا فبها ونعمت . . وإذا لم نلتق فنحن لا نملك إزاء ذلك شيئا » والعلاج التحليلى

التفاعلاتى يعتبر موقف الصحة النفسية هو «أنا على صواب.. وأنت على صواب I am OK you are OK » *.

وأنا لا أستطيع إلا أن أدعى مثل ذلك.. إلا أنى أصر أن هذه الأقوال ما هى إلا الإعلان الظاهرى للعجز عن الاستمرار، ووراءها لو نظر أى من هؤلاء فى نفسه.. تصنيف للمختلف لا يسر، (ميت صحيح، لكنه حر فى تربته).

والطبيب النفسى إذا تصور نفسه ملتزما جانب الحياة ومعتنقا عشقها، لا يملك فى داخل نفسه إلا أن يعلن «موت» من يرفض موقفه، وله ذلك علما أنه ليس زعيما ولا نبيا صاحب رسالة (وطالما هو ما زال ملتزما بحدود مهنته)

* لى رأى خاص يعدل هذا القول إذ أنى أعتبر موقف الصحة النفسية هو: أنا على صواب وعلى خطأ.. وأنت كذلك أو I am OK and not OK and so you are وهو موقف يشمل تحمل التناقض والغموض وتقبل الذات والآخر ككل صعب، وليس موقفا مستسلما مدعيا الحرية.

ولـكن عليه أن يعترف أمام نفسه ، وأحيانا لمريضـه ، أن هذه الحرية التى يمارسها كل منهم مقترنة بدرجة ملائمة من المسئولية ، فاذا خالف المريض رأى الطبيب فى نوع الوجود الذى يصلح له ، فـكأنه يعلن كذلك فى نفس اللحظة مسئوليته عن ظهور الأعراض وبالتالى عن اختفائها أى أنه يعلن أنه لم يعد مريضا .. ، كما يعلن أيضا فى نفس اللحظة أنه لم يعد يحتاج إلى طبيب ، ثم ينزل إلى أرض الواقع المر يصارع من أجل رأيه ووجوده فيصرع ويدمى .. لا يتوكأ على عصا المرض التبريرية .. ولا يلقى بالشكوى أو يلجأ للإنسحاب والتراجع، أما إذا فشل : فظهرت الأعراض ، أو عاد يســأل الطبيب النصح فهو بذلك يطلب « ضمناً » طرق باب الطريق البديل الذى يعرضه عليه الطبيب وهو يتنازل جزئياً ومرحليــاً عن قدر من حريته ثمناً لفشله فى الاستقلال عن الطبيب ، أو فى الانتصار على الأعراض وحده .

وفى هذه الفقرة أردت أن «أعلن ذلك» ، حتى لا أغالى فى تصور وهم ترك النـاس أحراراً فى حين أن أعماق النفس تقول .. هى حرية الهـلاك أو حرية المرض .. وما أصعبها حرية . . وهى تحتاج للحد من أضرارها مجتمعاً قوياً يقظاً سليما ...وأين هو ؟

[٣١٠] وإذا افترض الطبيب شعوريا أو لا شعوريا ـ أن نوع وجوده هو الوجود الأمثل لصالح استمرار الحياة مثلا (وهذه مقولة محتملة .. ذهب البعض إلى أنها أساس العلاج الجمعى بل العلاج عامة .. بل الحياة) ، فعليه أن يعرف هو أوّلا ماهية هذا الوجود.. وحقيقته بأكبر درجة من الوعى.

وهذه المقطوعة هى الترجمة المباشرة لهذه المحاولة المستمرة الحادة على قدر تصورى فى تجربتى الخاصة .

[٣١١] أحيانا تكون رؤية الطبيب النفسى ـ والفنان ـ للآخرين « باستمرار » وتصنيفهم وحتى علاجهم ورسمهم

وتصويرهم .. هى مهرب من رؤية ذاته (راجع أيضاً حاشية «٥») وإذا لم يمارس الطبيب «رحلة الداخل والخارج» من الناس إلى نفسه وبالعكس فانه خليق أن يعانى من مضاعفتين : الأولى : هى أن يسقط ما بنفسه على الناس (والمرضى خاصة) والثانية : هى أن يعوّق نموه هو شخصيا .

[٣١٢] ثم حيلة أخطر ، تعوقه وتشوه رؤيته ، حين يرى نفسه « الناس » ، أو كما قال لى أحد الأصدقاء مرة . « أنه من ليس فى امتدادك الجغرافى.. لا قيمة له أو لا وجود له».. فأيقظنى على يقظتى ،(ذلك لأن هذا الصديق قال هذا التعليق بعد أن كنت قد كتبت هذه الفقرة بسنوات ..)

[٣١٣] وفى محاولة الرؤية الصادقة .. لا بد أن يقف الإنسان من نفسه موقفا تصاعديا Transcendental (من بعيد) .. حتى يمكنه أن يحكم على ماهية وجوده .. ويعدل من مسيرته باستمرار .

[٣١٤] إشارة إلى أن هـذه الرؤية ليست مجرد تقييم للسلوك ، ولـكنها — حتى تنفع — لا بد أن تـكون رؤية لحقيقة الوجود وما وراء السلوك الظاهرى بالغوص إلى ما تحت السطح بصدق ومعاناة .

[٣١٥] قيود الطبيب النفسى الظاهرة كثيرة وصعبة ، مثل اتصاله بالمجتمع ، وممارسته اليومية ، وتصورات قدرته على الفتوى فيما هو فى مجاله وما هو خارج مجاله ... الخ ، أما قيوده الداخلية فهى أشد وأصلب فهى تحميه من جريمة رؤية لا يقدر عليها ، ومن مفاجآت معرفة تفوق مسيرته أو تغير مجراها .

فاذا كان لا بد له أن يرى نفسه فعليه أن ينظر من بين قضبان سجنه الخارجى هذا وسجنه الداخلى ذاك .. ، وإلا فهى خدعة وليست رؤية .

[٣١٦] أشير هنا إلى أنه أحيانا يشترط فى ممارسة التحليل

النفسى أن يمر المعالج ذاته بخبرة التحليل النفسى، وهذه نصيحة طيبة تهدف إلى نفس الهدف الذى أعرضه هنا، إلا أنى أختلف فى بعض التفاصيل مثل شكى فى أن التحليل النفسى يصلح بطريقته التقليدية الرتيبة لأن يرى الطبيب (أو المعالج) نفسه حقيقة ؟ ألا يمكن أن يقع الطبيب النفسى فى أحابيل الرؤية « للفرجة » وليس للتغيير ؟ (ذكرت خطر البصيرة المشلولة قبل ذلك راجع مثلا حاشية ٧٢ وحاشية ١٩٧ ...)

إنى هنا أشير إلى أن طائفة من أطباء النفس والمعالجين يتقنون الاستبصار Introspection لذواتهم وتفسير أحلامهم ولكنها ظاهرة قد تبدأ بالكلام والملاحظات وتنتهى بالكلام والملاحظات (الكلام المسموع .. أو المكتوب أو الصامت (مجرد تفكير) .. وهنا تصبح الألفاظ معطلة

للرؤية الحقيقية المثيرة والدافعة للتغيير ويتوقف الطبيب حيث يظن أنه يتقدم ويعرف .

[٣١٧] تحذير آخر من الاستبصار إذ أنه قد يورى ما هو مجرد انعكاس للحقيقة وليست الحقيقة ذاتها ، يورى صورة فكرية « عن » الذات ، وليست الذات نفسها وفى هذا ما فيه من خدعة وتقريب .. قد يكون مشوها

[٣١٨] إذاً فقد تكون صورة « باردة » ميتة وليست حقيقة الوجود الحية الثائرة الخائفة المتحفزة المتنحية معاً !

[٣١٩] إشارة إلى أن الاقتراب من حقيقة الذات قد يشوهها (وشئ يبطط) ومزيد من الاقتراب قد يخفى معالمها .. لأن الحياة تفرض تقدمها بمتطلباتها اليومية الخارجية التى لا تسمح بمزيد من الاقتراب الداخلى ، « فالنفَس » الذى يغطى هذه الرؤية فى المرآة هو الرمز لرتابة الحياة .. وربما هو إشارة غير مباشرة إلى أن الرؤية الكاملة قد تستحيل

إلا بالموت أو بالخلود ، أما الأول فهو المجهول الذى لم يحك لنا أحد شيئاً حقيقياً عنه. وأما الثانى .. فهو هدف لا أعرف من وصل إليه وأبلغنا إمكانه .. إذاً فهى محاولة شديدة الصعوبة.. شديدة التعقيد ، كما أن الاقتراب والمفاجأة ببشاعة الداخل قد يصحبه تفاعل صادق من نوع الاكتئاب عادة.. وكلما اقتربنا من مصدر النور الداخلي قد نفاجأ بأن الذات نفسها مظلمة .. إلا من انعكاس نور الكون (ونور الله) ..، وهى مضيئة بقدر ما هى كوكب متصل بالكون من ناحية ومنعكس على الناس من ناحية أخرى .

[٣٢٠] فإذا كانت الالفاظ عاجزة عن وصف ما بالداخل أو شرحه ، وإذا كانت « صورة النفس » ما هى إلا خيال فكرى قد يقرب الحقيقة ولكنه ليس الحقيقة ، فهل يمكن مواجهة الداخل دون رموز الفكر ،. ودون تصوير النفس، مواجهة حسية مباشرة ؟..، هنا أعلن الفشل ذاته.. فالإنسان

على شوقه الشديد لمعرفة الحقيقة ، فإنه إذا لم يستعمل الرموز في طريقه إليها . . وقع في محظور العودة إلى مرحلة سابقة هي حياة اللا وعى ، فهو بهذه المخاطرة يتنازل عن « وعيه بوعيه » الذى يميز الجنس البشرى خاصة ، وكثير من دعاة الردة إلى حياة التكامل الحيوانية يعلى من هذا النوع من الوجود التلقائي الذى لا يهتم بوعيه أو باستعمال الرمز ولكن شتان بين التنازل عن حقيقة إنسانية تميز النوع البشرى ضائقين بها مرتدين عنها ، وبين التمسك بها مع نقيضها السابق للوصول إلى التكامل الأعلى حيث يصبح الوعى بالداخل والخارج تلقائياً وليس وظيفة منفصلة تقسم النفس إلى جزءين .. جزء يعى بالجزء الآخر .

وكأنى هنا أعلن فشل محاولة الردة عن الوعى وأنه لا ينتج عنها إلا مزيدا من العمى والتخبط في الظلام .

[٣٢١] حين يصبح الاستبصار معطلا ومشكوكا في نتائجه ، والرؤية المباشرة دون استبصار ودون وعى كامل

ودون رموز مستحيلة وخطرة ، فلا بد من رؤية « انعكاس » الذات فى الآخرين ، بوجه خاص ، وربما كان هذا السبيل أكثر موضوعيـــة للوصول إلى معرفة حقيقة نوع الوجود فى رحلة البحث عن الذات بمعالمها الموضوعية ومن خلال درجة من الوعى يتم بمعظم جوانبها على قدر الإمكان .

[٣٢٢] وفى بحثه عن ذاته من خلال رؤيتهم له (فى المهنة أو فى الحياة العامة) يفاجأ الطبيب بحقيقـــة معطلة ، فمهنته تفترض فيه أنه دائما فى موقف الفهم الأعمق والعطاء الأشمل ، واحتياج من حوله إليه يجعلهم يرونه بالصورة التى تستجيب مع هــذا الاحتياج .. وليس فى حجمه الطبيعى ولا بأعماقه الحقيقية ، وبالتـالى تصبح صورته « لديهم » غير ذات نفع فى محاولته تحديد حقيقة ذاته... التى تصور أنها تجسيد لحقيقة رؤيته عن طبيعة « الوجود البشرى على هذه الأرض » ... وكل منهم يرى فيه ما يريد أن يرى .. فأين هو ؟

[٣٢٣] أحدهم يراه صاحب رسالة فى الحياة .. تسير على أرجل رغم ضخامتها وثقلها ، ولكنه لا يرى هذه الرؤية بمسئولية من يسهم فى نشر هذه الرسالة التى ترجح الحياة على الموت ، والتطور على الجمود ، بل إنه يراه نبياً بلا دعم من السماء ، ولكن بقدرة الأنبياء على صنع المعجزات .. وفى هذا ما فيه من اعتمادية من جانب الرائى ، وإلغاء لحقيقة الوجود البشرى العاجز فى طالب الرؤية الباحث عن ذاته (وهو الطبيب هنا) :

[٣٢٤] ويبالغ آخرون فى تقويم قدراته حتى يؤلهونه ، « القادر على كل شىء » وهذا موقف ألعن من الموقف السابق ، لأنه بالإضافة إلى أنه يلغى ضعفه البشرى مثل الموقف السابق ويضع عليه مسئوليات الألوهيــة .. وبالتالى يخلى مسئولية الرائى الشخصية فى تحمل عبء حياته ومرارتها وصراعاتها بعبادة هذا الإله البشرى القادر ، وهذا الدفاع

هو من أهم الدفاعات التى تصنع فراعين الحكام .. ولو علم هؤلاء الحكام كم يظلمهم من يلغى ضعفهم ويؤكد وحدتهم لكانوا أول الثوار على زعامتهم التى تنكر عجزهم الإنسانى.. وتحرمهم من حقهم فى الخطأ وفى الضعف وفى الأخذ .

[٣٢٥] أما الرؤية الثالثة فإنها نقيض وجهتى النظر السابقتين ، فهى لا ترى إلا قشرة « الشطارة » (والحداقة والفهلوة ... الخ) والطبيب النفسى غير الأديب والفنان والفيلسوف وعالم المعمل .. إذ أن يديه غائصتان فى أمعاء المجتمع ورجليه فى طين الواقع .. وحتى يستطيع أن يستمر فإنه لا بد أن يحذق اللغة السائدة بدرجة قد يبدو أنه لا يعرف سواها (وكثيراً ما يكون هذا هو الحال) . وهو مطالب « بالنجاح » واقعيا .. وإلا أصبح مثلا فاشلا أمام مرضاه.. وأغلبهم ممن يحتاجون إلى جرعة « الواقع » أكثر مما يحتاجون إلى « مُثُل » الخيال النظرى .

وإذ أيقنت ذلك فى بداية الطريق ، كان علىّ أن أدفع

ثمن الصبر عليه ، والاتهامات التي لا يرضيها إلا أن يقترن الذكاء الاجتماعي والنجاح الاجتماعي بالشر ، ويقترن الخير المثالي بالطيبة أو الخيبة ، وهذه الفئة التي تصدر مثل هذه الأحكام هي فئة يحق لها هذا الموقف النظري الناقد طالما هي قد قررت أن تؤجل خوض مسيرة الحياه البطيئة المتحدية إلى ما لا نهاية أو أجلتها في انتظار نبضة ثائرة لا تعرف ماذا بعدها ليستوعب نتاجها أقول أن هذه الفئة التي تدمغ أي نجاح (دنيوى) هي فئة عاجزة لا محالة — تؤدى دوراً فنياً في الحياة ولكنها لا تسعى إلى اكتساب وسيلة تحقيق رؤيتها المثالية ، وهي تضيق كل الضيق بمن ينجح بأسلوب الواقع ، وترفض أن تقيس خطواته التالية ، « فيم استعمل نجاحه وكيف ؟ » ، وهي تعلن في إصرار أن مجرد التمسك بالغاية هو الوسيلة لتحقيقها . . وبالتالي فهم يخافون تملك مقاليد القوة بأسلوب الواقع أو التكلم باللغة الغالبة حتى يسمع لصاحبها . . الخ . .

وقد قابلت فى حيـاتى عينات كثيرة من هــذا النوع — وأيقنت أن دورها الإيجابى فى المجتمع هو « ضمير بعيد متفرج » ، ثم قاسيت من دورها السلبى فى المجتمع أيضاً « كنموذج مثالى عاجز يصدر الأحكام » ويرفض اكتساب القوة فيتركها لمن يسىء استعمالها (راجع رأى أفلاطون فى عقاب من يتخلى عن مسؤلية الحـكم) ، وكأن هذا النوع من الناس يشجع قسمة ضيزى يرضى بها أهل الشر ودعاة الجمود ، تلك القسمة التى تقول على لسان أهل الجمود : لـكم المثل الطيبة والذكر الحسن ، ولنا القوة والقدرة والسلاح والفعل القاهر. « وما أغبى من يقبل مثل هذه القسمة وأعجزه » .

[٣٢٦] موقف آخر كنت أراه وأنا أبحث عن نفسى فى عيونهم . . فالطبيب النفسى — كما قلت وكررت — ملتزم بالواقع أشد الالتزام، ومن هنا يأتى رفضه العنيف لأى نكوص غير مسؤل ، وأى حرية لمجرد اللذة ، وأى رفض لمجرد العناد

وقد قاومت كل هذه الاتجاهات فى عنف وحيد.. وكان الاتهام المباشر أنى « مكبوت » (قفل مقفول من سنين) وتحملت فى سبيل ذلك كل ألوان الرفض والهجوم.. وكان هذا أيضاً من بعض ما ساعدنى على رؤيتى لنفسى .. ووضعت هـذا الاحتمال فوق قائمة كل الاحتمالات ، وعايشته بقدر ما أستطيع ، وتقمصت من لم يعشـه سواء من المهاجين أو من غيرهم ، وحاولت أن أعرف نهاية مطافهم.. وانتهيت إلى أن وجودهم هو وجودٌ « فنىٌّ » بقدر ما كانت رؤية الفريق السابق رؤية فنيـــة أيضا ، والوجود الفنى يهتم بعينـات مستقبلية ، وبجوانب محدودة من الرؤية الـكلية .. ولـكنى أيقنت أنه لا يصلح لى .. وأدركت كذلك أن هومهم ليست من أجلى.. بل هو غيظ وكمد أن أمسك بالالتزام بالواقع إلى أبعد ما أستطيع ، وفى نفس الوقت الذى أصر فيه على التطور إلى غاية ما يمـكن .

وهذه الفقرة كانت تعبيراً عن على بصورتى هذه فى عيونهم ، ووجدانهم ، واقتناعى بها فترات من الزمن ، واستفادتى منها ... ثم .. ثم هى ليست أنا فى النهاية .

[٣٢٧] مرة خرى ، رأيت صورتى فى عيون هذه الفئة التى ترتعد من النجاح ، رأيتها صورة مرفوضة نجاحها ، متهمة فى مسيرتها ، ملوثة فى شرفها ، ولم يكن أمامى أن أرد.. بل علىّ أن أواصل مسيرتى فى صبر عنيد ، منتظراً حكم داخلى ، وحكم الزمن ، وفاعلية ما أقدر عليه لخير الناس ..، وكان من أقسى التجارب التى مررت بها أن يأتى هذا الاتهام مؤكداً من أقرب الناس... لما كنت أرفض أن أحملهم ـ بسلبياتهم ومثالياتهم ـ على محفة نجاحى الذى دفعت فيه ما دفعت من مثل الصبر على أقوالهم (ومن الناس من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) ، وشبعت لمزاً ، واستفدت منه أشد الفائدة وأعظمها ، حيث كانت حساسيتى

المستمرة لهذا النقد موقظة لى فى كل حين ... فكنت أحب أن أعتبره صحيحاً ما أمكن..حتى أظل منتبها إلى مضاعفاته.. فأشكرهم فى قرارة نفسى على هذه الرؤية ـ رغم عنف الألم ـ واستمرت معى هـذه المعاناة مدة طويلة .. فلا أنا أرفض رؤيتهم ، ولا أنا أستسـلم لها ، ولا هى تعوقنى أكثر من المعاناة الخفية .. إذ كان علىّ أن أستمر فى الحصول على مقاليد القدرة تساعدنى على تحقيق رؤيتى التى ألقيت على وجدانى وفكرى قولا ثقيلا .. وما أصعب كل هذا .

[٣٢٨] وكما ظهر من كل الفقرات السابقة ، فإنه على من يريد أن يعرف نفسه ألا يرفض رؤية غيره له مهما كانت دوافعها ، ومهما كانت حقيقة قائلها ، لأنه لو رفضها ابتداء حرم نفسه من رؤية نفسه كما يبدو لهذا الرائى على الأقل ، ومهما كان الألم المترتب على تبنى هـذه الرؤى المشوهة والمزعجة ، فإن وظيفة وجهات نظر الآخرين لا بديل لها إلا أوهام الوجود المعصوم ،

وفى نفس الوقت الذى كنت أتقبل فيه هذه الرؤى تماما حتى لو رفضتها ظاهرياً .. فإنى أعلم فى آخر طبقات وجودى أنى لست ظاهرى .. فالرؤية الجزئية المنحازة هى — فى النهاية — ورغم ما يمكن أن أفيد منها — رؤية جزئية منحازة ..

[٣٢٩] ولكن رؤيتهم لم تثر بحثى عن حقيقة نفسى بدرجة كافية حيث كانت مقيدة جزئية كما ذكرت ، وظلت الاستغاثة مستمرة ، والمحاولة فى أن أرى بحجمى وحقيقتى نشطة . . لعلى أرى نفسى من خلال كل ذلك . .

[٣٣٠] ولكن يبدو أن إعاقتهم ليست فقط لأنهم لا يرون إلا ما يحتاجون ، ولكن لأنهم لا يريدون أن يروا بقية الأجزاء ..ربما لما يستتبع ذلك من مسئولية ، أو لما يضطرون بعده من استقلال . . ، أو لما تهددهم رؤية « الكل » بخطأ رؤيتهم الجزئيـــة التى كانت تبرر هجومهم ونقدهم وتعاليهم .

فأحدهم يؤجل الرؤية باستمرار . . ويساورنى الشك أن هذا التأجيل هو إلى مالا نهاية .

والثانية تشفق من الرؤية (على نفسها فى الأغلب) وتعلل ذلك بأنها ترى بقدر .

والثالث : فى خدر ذاته قد يرى عقليًا فقط . . لكنه لا يقترب من حقيقة الوجود ذاتها أبداً .

والرابع : يرفض أن يخرج من قوقعته التى تحميه من كل رؤية عادلة . . فيها أدنى تفاعل موضوعى يحمل تهديد الخروج إلى مواجهة الحياة . . وتحمل مسئوليتها .

كل هذه الأمثلة عايشتها رؤى العين ، ولم تثننى عن المحاولة ولا أيأستنى من الناس ، ولا أبعدتنى عن أهل العجز وأصحاب الهوى . إلا إن تركونى هم حين رفضوا أن أحلهم أو عجزت أنا عن حلهم .

وأرجع بعد هذه الرحلة فى عيونهم ومن خلال مواقفهم أبحث عن نفسى بلا كلال.. مرة ثانية . . وألف ..ودائما .

[٣٣١] ليسو«هم» فقط الذى يرونى شاطراً وحاذقاً ..الخ ولكنى أنا أيضاً كثيراً ما كنت أتفرج .. على هذا الشخص الخارجى الشاطر الحاذق الذى لا يجارى فى مجالات النجاح والبريق والصمود . . ، وأتساءل من هذا ولماذا ، ولكنه تساؤل الذى يعرف ضرورة الإنقسام للحوار ، ثم الجدل التكامل . . وليس تساؤل من فرض عليه التفكك .

[٣٣٢] إشارة إلى لحظة الرؤية الحدسية الواضحة ، حيث تنبسط قوانين الوجود وتختزل وتفسر الماضى ، وتوضح الحاضر وتحسب المستقبل بيقين شديد . . ولكنها هى جزء من وجود صاحبها فى عينة تكاملية . . فهى صورة لما يمكن أن يكون ، أو لما يسعى أن يكونه . . وفيها من الحكمة والوضوح ما يبهر ويحذر فى نفس الوقت .

[٣٢٣] فى هذه اللقطة معنيان أساسيان أردت توضيحهما الأول : تلك المعركة الوهمية التى تعطل النمو الفردى والتطور حين تتمثل السلطة (ممثلة فى الأب) كأنها إعاقة للتطور على طول الخط ، وفى خبرتى (وفى رأى إريك بيرن كذلك) أن التصالح مع صورة الوالد هى من أهم ما يطلق قدرات النمو والتكامل ، والتصالح لا يعنى الاستسلام ، ومن لا يرى والديه فى نفسه ، فيقبلهما ويتخطاهما إذ يستوعبهما بعد أن يصالحهما ، فقد يمضى سائر عمره فى معركة بين أجزائه لا تنتهى .

والثانى : هو ضرورة إعادة تقويم دعاوى « إصلاح الكون » و « هداية البشر » و « إبلاغ رسالة الخلود » بالكلمة ، أو بالاستبصار ، أو بالعلم غير النافع (غير المطبق يومياً) أو بالفن الإجهاضى ، أقول ضرورة إعادة تقييمها بالنسبة للفعل المستمر المادى (البدنى والعقلى) . . المثمر المتصـــل بالأرض جذوراً وبالسماء تناغما . . وقد كنت

دائما أتساءل أيهما أبقى وأيهما أهم .. وللحقيقة فإنى انتهيت إلى ضرورة الاثنين معاً ، لأن الرؤية التى تحمل علامات الخلود . . وإرهاصات المستقبل ، قد لا يستوعبها الفعل اليومى ولذلك لابد وأن تسجل فناً أو علماً لمن قد يحققها مستقبلا ، وهذا فضل اختراع الكتابة ـ مثلا ـ على الحضارة ، أما الفعل اليومى المثمر مهما بدا دون المثال ـ فهو الضمان الوحيد لأن تتحقق هذه الرؤية يوما ما .

[٣٣٤] ووراء كل هذه الشطاره ، والحكمة ، والحذق ، والصدق ، والمحاولة ، والاستغاثة ، يكمن كيان وديع لاحول له ولا قوة ، لعله هو الذى يسعى إلى الظهور فى كل هذه الزحمة ليكون جزءاً منها ، أو ليأخذ بعض ثمارها فيحقق وجوداً جديداً غير تكرار الوجود الوالدى (اللقطة السابقة) وهو لا يتناقض مع القديم إلا بمقدار ما يلزم لاستمرار التوليف فى مسيرة الجدل المستمرة . .

وحين تهف نسمات أمان للحظات .. يصل البحث إلى هذه المنطقة الأصلية فى الوجود البشرى ، فأرى طفلى وراء كل ذلك يقظاً منتظراً ، لا أحد يدرى به وسط مظاهر القوة والنجاح ، وليس له « أهل » بعد معارك الانفصال والاحتجاج ، ولا يقبل — ولم يعد يستطيع — أن يكرر وجوداً قديماً حتى لا يتوقف التطور (ولا هو قادر يبقى أبوه) ، وفى نفس الوقت لا أحد يغيثه فى وحدته وضعفه لأنه لا أحد يراه . . فما أشق كل هذا . .

وحين يبلغ الألم أقصاه يكاد يتمنى الموت إن لم يدرك وجوده أحد الذين أعطاهم بأمل أن يقدروا على الوفاء بمطالب هذا الطفل يوماً ، إذ آمنهم ما استطاع حتى يتحملوا بعض عبئه .. ، لينطلق بعد ذلك إلى خطوات نموه الثابته المطمئنة . وفى لحظة يأس يصيح بهم أنهم إن لم يدركوه .. فليقتلوا أمله فى أن « يكون » يوماً ما .

[٣٣٥] وحين لا يستجاب لهذا الوجود الضعيف المستغيث، فإن الحماية تأتى من التحفز والتفرد والشك، حتى إذا خرجت أى حركة أو سكنة من حساباته لمعركة الحياة حسب الخطة المرسومة لتحقيقها فكأنما بعدت عن الصراط .. فأصبحت ضد المسيرة (!) وهنا تحذير خطير، فإن أصحاب المبادئ، والرؤية الخاصة (وأحيانا العامة) يسهل عليهم تفسير وتبرير مشاعر الاضطهاد وتصور المؤامرات بأنها ضد مبادئهم وضد رؤيتهم وربما كانت مخاوفهم هى السبب فى تجسيد هذه الاختلافات حتى وكأنها عداوات ومؤامرات.

لذلك، وعند الطبيب النفسى خاصة، ينبغى أن تتضح رؤية الاختلاف فى حدودها، وأن يدرك تماما أن وحدته مهما احتدت، وحاجته مهما اشتدت، لا تبرران تفسير الاختلاف على أنه عدوان أو اضطهاد أو مؤامرة. وبالتالى ينبغى أن يفرق بين شخصه وبين مبادئه مثل كل صاحب مبدأ .. يريد

أن يحققه من خلال أكبر درجة من الموضوعية ، وليس فقط لإخفاء أكبر قدر من مخاوفه الشخصية .

[٣٣٦] على أن من أراد رؤية نفسه حقيقة .. فسوف يجد أن كل هذه النوازع والصور وحالات الأنا موجودة فى نفس الوقت وأن واحدة منها لاتغنى عن الأخرى ، وأن هذا لا يعنى مجال انقسام أو تفكك بقدر ما يمكن أن يعنى وعيا بكل جوانب الوجود حتى إذا تم التكامل لم يغفل جانباً لحساب جانب آخر . .

ولكن ماهو الفرق الحقيقى بين من يريد التكامل فيرى هذا كله فى نفسه ، ومن يعيش بسبعة أوجه يتلاعب بها ويلبس لكل مقام وجهه ؟؟ هذا هو الخطر المحدق . .

[٣٣٧] ولعل هذا الفرق هو الفرق بين مسيرة الوعى المسئول وبين تحايل الوجود المرتعد .

وهو الفرق بين التفسكك المتصارع ، وبين التناقض المتآلف فى جدل خلاق .

وهو الفرق بين الاعتراف بكل جوانب النفس ضعفها وقوتها شرها وخيرها .. للتجميع بينها فى كل جديد ، وبينه مواجهة أجزاء النفس المنفصلة فى هرب من بعضها البعض .

وهو الفرق بين الرؤية المسئولة للتغيير . وبين الرؤية العاجزة للفرجة .

وهو الفرق بين تناسق الوجود رغم اختلاف أجزائه وبين تناثر الوجود بسبب اختلاف أجزائه .. إلخ ..

[٣٣٨] ونظراً لأن هذا الفرق خفى أشد الخفاء ونظراً لأن صاحب الشأن — عادة — لا يكاد يستطيع أن يحكم على نفسه .. بموضوعية حقيقية مهما حاول ، فإنه يطلب من الآخرين الحكم على هذا الفرق : هل هو موجود حقيقة

ولصالح التطور ، أم أنه إشاعة تبرر كل هذه الألاعيب ، والشرط الوحيد الذى يشترطه فى هذا « الآخر » الذى يرضاه حكماً هو أن يحب الحياة أكثر ، وهو شرط صعب لو تصورنا درجة حب صاحبنا للحياة حتى أصبحت رؤيته هى الإيمان بها لذاتها . . ولكن حاجته لهذا الآخر شديدة وملحة ، ومن خلالها — لو تمت فى حياته — سيطمئن ويرتاح ، فإذا عز وجود الآخر فليكن الحكم لآخرين . . وإذا عز وجود الآخرين فليس له إلا الاحتكام للتاريخ ولكنه حينئذ لن يحقق أمنيته (قبل ما أموت) . .

فما أصعب المسيرة . . لو أراد أحدهم رؤية تفاصيلها ! !

الفصل الثالث

لعبة الحياة

[٣٣٩] بعد أن شجبت فى هذه المسيرة لعبة «الـكلام» إذا ما أصبح مغتربا عن معناه، وبعد أن أعلنت فساد الاحساس والرؤية الحدسية .. مهما بلغ صدقها .. ومهما بدا الاحساس رائعاً والعواطف صادقة فطرية . . فإنها لاتغنى ولا تسمن بالنسـبة لمسـيرة التـكامل التى تحتاج إلى أن تمارس إيجابيا وليس بالرموز ولا بالأحاسيس الفجة العاجزة . . ماذا تبقى إذاً بعد هذا وذاك ؟

هنا أقدم الحَلّ كما تصورته ، وكما سبقنى إليه من قالوا بالعمل صانعا للحياة ، وكما عاينته من واقع خبرتى اليومية فى مهنتى التى اعتبرتها يوماً نموذجا مصغراً للحياة ، حيث

كنت أرى الانسان دائما كونا مصغراً.. وأومن أن قوانينه هى قوانين الكون الأكبر .

إذاً . فهو العمل !! (الحياة غذوة عمل حى ياناس) .

والعمل ثلاثة أنواع — من واقع خبرتى (وقد أشرت إليهما فى دراستى فى « علم السيكوباثولوجى ») .

عمل قهرى :

تستمر فيه بقوة الدفع الذاتى ، وقد يكون له فى البداية هدف ومعنى إلا أنه قد يستمر بنفس النوعية بعد تخطى الهدف والمعنى ومن أمثلة ذلك جمع المال بدون فاعلية (مثلا مع اليقين بعدم القدرة على إنفاقه فى خلال سنين العمر المحدود) وجمع البحوث بدون إبداع ، وجمع مقاليد السلطة بدون إفادة . . . الخ

ومن فوائد هذا العمل أنه يلهى صاحبه عن التوقف

لرؤية أين هو ؟ أو إلى أين ؟ أو لماذا ؟ ومن يخالفه الحظ .. يقضي وهو فى وسط دوامته .. وإلاّ .. فله الويل أو الجنون إن أفاق دون استعداد

والنوع الثانى هو العمل التكفيرى : وهو العمل الذى يبعثه شعور دفين بالذنب ، لا نملك إزاءه إلا أن نستمر فى العمل وربما العطاء ، وهذا عمل أرقى من الأول فى تقديرى إلا أنه ظلم على صاحبه لا يسمح له بالعودة إلى ذاته . . ليطاق قدراتها تناغماً مع الحياة .

أما النوع الثالث فهو العمل المتناغم الذى يصدر من الوجود البشرى إتساقا مع دورات الكون ، والذى بدونه يصبح الكائن البشرى جسما غريبا فى هذا العالم ، يقف فى وجه دورات الوجود ومسيرة الانطلاق المنسق مع الكون الأكبر إلى طبقات أعلى ربما كان الخلود أحد صفاتها . . ، وهذا النوع الأخير هو الذى عنيت به أن الحياة (غنوة عمل حى) . . وهو وليد النوعين الأولين وبديل عنهما فى

نفس الوقت ، فالانسان فى مسيرته لا يحقق هذا النوع من العمل إلا من خلال مراحل سابقة تعود فيها على العمل تكفيراً أو حتى قهراً . . ثم اتيحت له الفرصة ليقبض نتاج عمله حين يعمق وعيه ليتمثل هذا العمل ويستوعبه فينطلق مرة ثانية (ربما بنفس الشكل الظاهرى القديم) ولكن ليثرى وجوده ويبرز حياته ويصلها بالخارج . . وينمو من خلال نتاجه . .

[٣٤٠] فإذا كان ذلك كذلك ، فالحياة « العمل » حلوة ، ومرارتها حلوة لأنها ألم العمل وليست مرارة الاغتراب ، وصعوبتها إعلان بأنا نواجهها بانفراد وربما بأنانية . . أما بالناس وللناس ومع الناس فإنها تصبح أنشودة تصدح فى أرجاء الكون .

جمل المحامل

[٣٤١] هذه المقطوعة لها ذكرى خاصة جداً ، ولو أنها مليئة بالمرارة الحقيقية إلا أنى ضمنتها فى أغنية الحياة لأنها

حداء مؤلم . . ينتهى بشمس مشرقة وهى تكملة - بشكل ما - لقضية حرمان الإنسان الذى يقوم بدور العطاء باستمرار ، ويمارس طقوس القوة والإلتزام بطبيعة مهنته أو موقفه أو مركزه أو سنه ، ثم هو يبدأ فى تنسم الحنان حين تسنح الفرصة ، ولكن . . .

وكان يومها قد أطمأن إلى أن بعض من حوله قد استقر بهم الحال إلى درجة من الثقة بالحياة والإطمئنان لمسيرتها . . وكان ذلك بعض نتاج جهده المتصل معهم ، وحين ساوره الأمل أن يرتاح بدوره فاضت دموعه فى صدق إلا أنه أحس برفضهم لهذا الضعف ، وإصرارهم على رؤيته قويا دائما ، حمولا دائما ، صبورا دائما .

[٣٤٢] اشارة جديدة إلى الاعتمادية الظالمة (راجع أيضا حاشية ٣٢٣ ، ٣٢٤) وكأنه وحده هو الذى يمسك بزمام الدنيا .

[٣٤٣] هذا التأجيل المستمر .. قد يمتد الى مالا نهاية .

[٣٤٤] وقد يكون حجتهم أنهم ينمون ليصبحوا فى درجة نموه أولا . . ثم يعطوه حقه ، وفى هذا وحده ما فيه من خداع وَعدم فهم لطبيعة عطائه . . ودرجة وحدته . . وثقل حمله . . ، الأمر الذى يجعله يستقبل هذا التأجيل بتخوف . . وكأن طريقه الى أخذ حقه مسدود .

[٣٤٥] وكان من أكثر ما آلمه فى هذه التجربة أن أحد الذين رفضوا ضعفه ودموعه كان تعقيبه على حقه فى الأخذ أنه محروم طول عمره ويستطيع أن يحتمل ، فى حين أن من ذاق حلاوة الحنان هو الأولى به . . وَأحس يومها أن بعض الأمثلة العامية هى جريمة متنقلة مثل « إطعم مطعوم . . وَلا تطعم محروم » .

[٣٤٦] لهفة على انتهاز الفرصة ، وتخوف جديد من أن

يموت قبل أن يأخذ بعض حقه تحت دعوى استمرار العطاء. وضرورة الاحتمال والصبر .

[٣٤٧] ولا سبيل إلى كسر هذه الحلقة وتحدى هذا التأجيل إلا العمل المثمر ، وصناعة الناس من خلال عطاء حقيقى .. يعد بأن يرتد إلى صاحبه ليعطيه فرصة الحياة بدوره ، بديلا عن الاستمرار فى العمل القهرى أو التكفيرى.

[٣٤٨] لغة إريك بيرن (سبق الحديث عنها وراجع أيضاً حاشية ٣٣٤) .

[٣٤٩] يقول وينيكوت فى وصف درجة رائعة من الصحة النفسية أنها تعنى أحيانا القدرة على « الوحدة مع التواصل الحر بالناس وفى وسطهم » وقد عبرت عنها فى «سر اللعبة » : أن تدخل لا تتلاشى ، أن تخرج لا تتناثر .

وهنا إشارة إلى أن هذا النوع من الوحدة لا يتعارض

مع التواصل المستمر المثمر مع الناس . . وأن النمو رغم أنه مسئولية فردية إلا أنه يتم وسط الناس .

الخلاص

[٣٥٠] الصورة المقابلة لعتاب أبي العلا «هذا جناه أبي على» ، وهنا وجهة نظر تشير إلى أن الموقف اللائم لاينبغي أن يقع على الإنجاب ذاته ولكنه يقع على الاكتفاء «بمجرد الإنجاب الفيزيائي» ، فإذا كانت سائر الأحياء تقوم بعملية التناسل هذه لحفظ النوع ، فللانسان وضع خاص حيث يولد إنساناً بعد ولادته كائناً حيا . . وذلك من خلال نموه النفسي في جوٍّ إنساني خاص ، وبما أن فاقد الشيء لايعطيه فإن الضمان الوحيد لأن يكون أطفالنا من نوع البشر هو أن نجاهد نحن «لنكون» (أي لنكون بشراً بحق . . نتميز فعلاً بما يرتقي بنا عن السلسلة الحيوانية) . . واللوم هنا عتاب متألم أكثر منه احتجاج رافض . . مثل احتجاج

أبى العلاء ، ولأن عجز الوالدين أن ينجبونا بشراً لا يعفينا من مسئولية أن نتجنب أنفسنا من جديد .

[٣٥١٠] فى هذه اللقطة تأكيد لمعنى ضرورة استكمال طريق التكامل بجهد فردى ، حتى لو لم يتح أى درجة من العطاء أو فرصة للعلاج ، إلا أن الخطورة تكمن حين يبذل الجاهد (فى الجهاد الأكبر وهو عندى رحلة التكامل) كل جهده للحصول على الكيان القادر . . بامتلاك الوسائل الواقعية من السحق ، ومقاليد القوة تسير على أرجل . . ثم يتصور الآخرون :

أولا : أن هذا هو نهاية المطاف وأنه حقق غاية المراد فى حين أنها بداية القدرة نحو استكمال الوجود .

وثانيا : أنهم — بشكل ما — صانعوا هذا النجاح وكأنهم يستولون على ثمرة ليست لهم .

[٣٥٢] لايهم إن كانت أخطاء التربية بحسن نية أم نتاج أنانية وخوف . . فإن النتائج واحدة .

[٣٥٣] ثورة الداخل والبحث عن الذات والحقيقة ليست اختياراً صرفاً . . بل هى أزمة تفرض نفسها فى طريق التطور الفردى . . لايختار أحد بدايتها . . ولكنه هو القادر على استيعابها تكاملاً .. أو .. التناثر بها انهيارا .. حسب ما أعد لها من قدرة وما يرى من خلالها من إيمان بالحياة وضرورة الاستمرار .

[٣٥٤] تأكيد جديد ، أنه بعد هذه الرؤية الوجودية يصعب التراجع عنها وإلغاؤها ، وان كان الاختيار المطروح هو بين العمى ومغامرة الولادة الجديدة والتغير .

[٣٥٥] تكرار بأن هذه التجربة هى « إعادة ولادة » ولو أنها هنا ولادة مسئولة منفردة لأنها لاتتم فى موقف علاجى معتمد ، بل هى جهد فردى فى واقع الحياة مباشرة.

[٣٥٦] ورغم أنها ولادة جديدة يلد فيها الإنسان نفسه إلا أن أمله يزداد فى التكامل لو تواصل مع من يسمعه أو حظى بدفء حنان صادق . . ولو فى البداية . . .

(الصرخة هنا لها مغزاها الخاص وهى تشير أيضاً إلى مدرسة متحمسه اسمها العلاج البدائى بالصراخ لجانوف Primal Scream) .

[٣٥٧] وهنا يحذر القديم من هذه المخاطرة ، ويهدد — حتما بالتناثر — لو أخفق فى الاستمرار .

[٣٥٨] حين يصبح الطريق — طريق التطور — ذا اتجاه واحد — باليأس الكامل من القديم — . . تهون معه أى مخاطر .

[٣٥٩] إذا كانت الأمنية المشجعة فى هذه التجربة أن يجد الإنسان دفء الحنان يعينه على بداية طريق النمو الجديد ، فإن الرعب المهدد يأتيه من أن ينتهز القديم (الشر والقهر)

هذه الفرصة . . فيسحقه ويدمره فينهار ، وهو بعد غضٌ ضعيف .

[٣٦٠] وتبدأ الخطوات الثابتة بمجرد الانتصار على أوهام أن العالم شر . . دون الإرتماء فى خدعة أن المسيرة سهلة ممهدة ، ولكنها التحدى المنفرد والإصرار على الحياة دون انتظار لموافقة آخر . . مهما كان الاحتياج لهذا الآخر صادقاً . . وجاداً ، وهذا هو معنى أن يلد الإنسان نفسه (أنا حابقى أبويا وأمى كمان) وأن يقرر قرار حياته وحده ، ليكون الناس فيكون هو نفسه ، وبديهى أن هذه ليست الوحدة الإنعزالية ولكنه «الاستقلال المقبل على الناس» .

[٣٦١] عدم المعرفة هنا ليست تجهيلا للمسيرة ، ولكن تنبيه جديد إلى أنه إذا استبدل رحلة التكامل «التخطيط لها وتأمين مسارها أولا» فإنها قد لا تبدأ أبداً ، إذ قد تتسرب الطاقة اللازمة لها فى سراديب الكلام والاستبصار والحس العاجز.

[٣٦٢] لابد أن يشمل التحدى كل القوى الخارجية والداخلية فى آن واحد .

[٣٦٣] إن رحلة التكامل لاتعرف حكاية «سيد الكل» ولكنها قضية الكينونة مع الكلّ . . لافوق الكل ولاعلى حساب الكل . . ولكن قد تتم بالرغم من الكلّ لو أعاقوا المسيرة خوفاً أو جموداً . . ثم لحسابهم فى النهاية . .

[٣٦٤] والاحتجاج (أثناء العلاج . . أو بصفة عامة) بأنه لا سبيل إلى استكمال المسيرة لأنه لايوجد أحد يفهم ، أو يعطى . . ، أو يرى ، هو احتجاج مردود . . ، فمن قرر أن يعيش فليأخذ حقه من الحياة مباشرة ، وسيجدها إذا بحث عنها فى أى نبض حى حوله دون حاجة إلى علاج أو استجداء أو انتظار . فما جاء فى الطريق من معونه فأهلا به ، وإلا . . فالطريق ملئ بالنبض الحيوى من كل مصدر .

[٣٦٥] أحيانا يكون قرار « الحياة » أبسط من كل

تصور ، وأقرب من كل حساب ، ولا مبرر للتأجيل حتى تتحقق ظروف معينة أو يتوفر جو أمان خاص ، بل إنه قرار داخلي عنيد «هنا» و «الآن» ثم تستمر المسيرة .

[٣٦٦] قرار « الحياة » ليس فيه اعتماد ، ولكن فيه ناس ، كل الناس أخذا وعطاء .

[٣٦٧] عودة إلى التحذير من إضاعة الحياة فى البحث عن تبريرات الفشل بالعلاج الكلامى أو بغيره .

[٣٦٨] هذه الأوهام جميعا (الشك والعدوان والعدم) ـ بشكل ما ـ هى معوقات الحياة . تذوب بمجرد أن يصدر قرار الحياة .. فالقضاء عليها فى مقدور من يريد أن يتخطاها .

[٣٦٩] هجوم على دفاع « لو » لتبرير التوقف .. فنحن « الآن » وليس أمس

[٣٧٠] هجوم آخر على دفاع التأجيل «بكره» فهو ضد العمل الخلاق الآن .

[٣٧١] وضع اللائمة على الآخرين تبريراً واعتذاراً وربما إسقاطاً من أخطر المعوقات أيضاً .

[٣٧٢] تأكيد جديد بأن الإعتماد السلبي معوق بلا حدود (راجع حاشية ٣٦٤) .

[٣٧٣] تحذير جديد من مهرب الاستبصار ولو بمساعدة العلاج .

[٣٧٤] بعد قرار «الحياة» . . يصبح الكلام الذى كان أصواتا فارغة مليئا بالمعنى والنبض . . متصلا بالوجدان . . قادراً على إثارة الحافز لتحقيقه .

[٣٧٥] أغنية الحياة تبدأ فى الداخل دائما حين ترجح كفة التقدم والتطور على الجمود والتدهور ، وانتظار السماح من الخارج قد يعطل المسيرة إلى ما لانهاية . . وقد يجمد الخارج ويحول دون الإسراع فى تغييره .

خاتمة

[٣٧٦] هى صرخة للمهاجرين — فعلاً ونفسياً — عن الواقع (مصر الأرض) وعن مرحلة تطور الانسان الحالية (عصرنا) . . تسرعاً فى البحث عن وهم مثالى بعيد عن ألم ممارسة التطور الآنى .

[٣٧٧] كان صراعاً دائماً يقوم بينى وبين نفسى لشدة حبى لمصر . . حباً يبكينى ويشقينى ويسعدنى ويعطى معنى لحياته . . ولشدة حبى للانسان فى كل مكان . . وفى البداية كنت أجد تعارضا . . ولكنى وجدت الحل أخيراً فى أن أى صاروخ مهما كانت وجهته فإنه لابد له من قاعدة . . لذلك أحسست بأن حبى للقاعدة (مصر) . . هو حبى للانطلاق نفسه (الانسان) فى رحلة التكامل .

ومثل كثير من القضايا التي عرضت طوال هذه الرحلة ، تشير هذه القضية أخيراً ومؤكداً إلى وظيفة العلاج النفسي الصعبة التي هي مرة أخيرة : الحل الولافي بين الرؤية المثالية (هنا : هي ذوبان الفروق بين الأجناس والارتباط المتكافىء بكل الأمصار ، وهي رؤية طموحة ادعتها أغلب الأديان وكثير من الإيديولوجيات الشاملة) وبين الواقع (الانتماء إلى أرض بذاتها وشرف التعصب لها أحياناً أو دائماً كجزء من صميم ما يسمى بالوطنية) والولاف بين هذا وذاك هو ما تحاوله هذه المقطوعة حفاظاً على المثال الرائع على أرض الواقع الصلب .

المحتويات

أولا : المتن

الموضوع	صفحة

* نظراً لورود فقرات هـذا الشرح فى استدراك متصل ، فضلت أن أسهب فى فهرستها حتى تصلح مرجعا لمن أراد البحث عن ظاهرة بذاتها

الموضوع	صفحة

الموضـــوع	الصفحة

الفصل الأول: سبع جنازات :

مبارى الخوف

الموضــوع	الصفحة

القرداتى :

ريحة بنى آدم

الموضـــوع | الصفحة

الموت السرى المتدحلب

لله يا سيادى

شبه الإنسان

الموضــوع	الصفحة

حمام الزاجل

الموضوع	الصفحة

الفصل الثانى ــ لعبة السكات

البحر الميت

السويقة

الموضوع	صفحة
تناوب الشاعر فى الموقف العلاجى	٣١٢
الرعب من الحب والتخلى عن دفاع السكر والفر	٣١٤
الانتظار المستمر اليائس بديلا عن المغامرة الآنية	٣١٦

القط

الموضـــوع	صفحة

البركة

السد البرانى

الكلب السارق تضمة

الموضـــوع	صفحة

الدمعة الحيرانة

فركيشة

الموضـوع | صفحة

نيجاتيف

الموضـوع	صفحة

البيت المسحور

الموضــوع	صفحة

الزير

الموضوع | صفحة

دراكيولا

الموضـوع	صفحة

يا ترى ! !

المعلم . . .

الموضـوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

الموضـــوع | الصفحة

الفصل الثالث ــ لعبة الحياة

جمل المحامل

الخلاص

الموضـوع | صـفحة

خاتمة

إستدراك

نعتذر للقارئ لما جاء فى هذا الكتاب من أخطاء مطبعية نحاول هنا إستدراك أهمها ـ وخاصة ماجاء فى المتن ـ تاركين لفطنة القارئ إدراك ما سواها :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩	١١	ات	زيادات
١٩	١٢	شويه	تشويه
٥٩	٣	وأى	رأى
٦٢	٤	حسب	حب
٧٨	٢	إلى آخره	إلى آخره [١٠٦]
١١٥	٨	لمعلمٌ	المعلمٌ
١٢٦	٣	سب	سبب
١٣٠	٣	ليغ ق	ليفرق
١٣٢	١٢	شا يف	شايفه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣٣	٦	أهَ ب	أهرَب
١٣٥	٤	والُبـكـ ه	والُبـكْرَه
١٣٦	٢	بَـ ا ىَ	بزّ اى
١٤٠	٨	ومزهز	ومزهزه
١٤٥	١٠	دنا ا	دنا
١٥٠	١١	ف	وف
١٥١	٢	هّ ا	هوّا
١٥٢	٨	الاقيلك	والا قيلك
١٥٢	١٢	هيّ	هِي
١٥٣	٣	أنا	انا
١٦٩	١٢	بـكن	لـكن
١٧٤	٩	وتصفّ	وتصفّر
١٧٩	٢	يعميش	يعيش

تابع (الاستدراك)

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨٤	٣	دَانَا	وَانَا
١٨٥	١	ألة	ألف غام
١٩٨	٢	ماهانيش	ماهانيتشى
١٩٨	١٢	صلى	على
١٩٩	١٠	نا	أنا
٢٢٢	٣	ا هذه ـ	هذه ـ
٢٢٤	١٤	الاحتباء	الاختباء
٢٢٤	١٥	يفدح	يقدح
٢٦٢	١١	تأجد	تأجيل
٢٩٦	٦	المجموعة	المقطوعة
٢٩٨	١	بقمتى	بقيمتى
٣٢٨	١٢	صررة	صورة
٣٦٦	١	تعلقه	تعقله
٤٠٨	١٠	القود	الفرد
٤١١	٢	يدعيها	يعيها
٤١٦	٨	نفس	نفسى

(رقم الإيداع بدار الكتب ٣٠٦٨ / ١٩٧٨)

هذا الكتاب

رحلة داخل النفس، تعرى طبقاتها، وتتكلم على لسان شخوصها، من واقع تجربة شخصية عنيفة، تقدم مادتها الأساسية شعرا بالعامية المصرية، ثم يعقب ذلك "شرح على المتن" بتفصيل مسهب حتى ليمكن الرجوع اليه كمصدر اساسى من مصادر شرح صور وأطوار العلاج النفسى

وقد قسم هذا العمل إلى ما أسماه الأستاذ الدكتور يحيى الرخاوى "ثلاث لعبات": لعبة الكلام (نقد فيها العلاج الفردى أساسا) ثم لعبة السكات (نقد فيها العلاج الجمعى أساسا)، ثم لعبة الحياة (دعا فيها الى المواجهة والمحاربة والمسئولية)

الناشر

الناشر
دار الغد للثقافة والنشر
٤٧ شارع الفلكي القاهرة

الثمن